

حياة موسى

تأليف
ف. ب. ماير

تعريب
المتنيح / القمص مرقس داود

مكتبة المحبة

حياة موسى

(طبعة جديدة منقَّحة)

تأليف

ف.ب.مايـــر

تعريب

المُتَنيح القمص مرقس داود



اسم الكتاب : حياة موسى
المؤلف : ف.ب.ماير.
الناشر : مكتبة المحبة ت : ٥٧٧٧٤٤٨ - فاكس : ٥٧٥٩٣٤٤
جمع وتصميم الغلاف : شركة فاين للطباعة ت : ٢٤٨٢٤١١٣
المطبعة : طبع بشركة هارمونى للطباعة تليفون ٦١٠٠٤٦٤ (٠٢)
رقم الإيداع بدار الكتب : ٢٠٠٧/١٥١٠٨
الترقيم الدولى : 977-12-0878-0

مقدمة المعرب

بسم الآب والابن والروح القدس، اله واحد، آمين.

لما جاء شعب الله الى مصر، اذ كان يوسف يمثل أكبر مركز فيها، جاء معززا مكرما، وقال فرعون ليوسف : «فى أفضل الأرض أسكن أباك وإخوتك» (تك ٤٧ : ٦). وإذ دار الزمان دورته، أصبح هذا الشعب، المعزز المكرم، منبوذاً محتقراً مضُطهداً، وذاق الأمرين فى عبودية قاسية وكان يظن أنه لا خلاص منها.

لكن الساهر القدوس لا ينعس ولا ينام، ولا يتغافل عن متاعب أولاده، ولا يغض الطرف عن المظالم التى تحّل بهم. فقد رأى مذلة شعبه، وافتقدهم بخلاصه، اذ أقام لهم، مخلصاً هو موسى، الذى كان قد طرحته أمه فى النهر، كأمر فرعون، لكن العناية الالهية تدخلت بكيفية معجزية. وانُتِشلَ من النهر، واستلمته ابنة فرعون ليكون لها إبنا، فعنيت به وهذبته بكل حكمة المصريين.

لكن إن كان هذا التهذيب العالمى قد أفاده فى ناحية، أو فى كثير من النواحى، فقد كان ينقصه تهذيب السماء. لهذا طرح به فى برية مديان، ليقضى فيها أربعين سنة، فى عُزلة عن العالم، ليكون تحت قيادة وإرشاد وتعليم الروح القدس. وبعدها دعاه الله ليستخدمه فى انقاذ شعبه، وإخراجه من مصر.

ونحن اذ نراجع سيرة هذا البطل العظيم، الذى استخدمه الله فى هذه المهمة الشاقة، لا يسعنا إلا أن نعجَّب بايمانه الذى صمد أمام قسوة قلب فرعون وغطرسته، وأمام تذمرات شعب عنيد، قادهم فى البرية أربعين سنة، لم تكُّف فيها تذمراتهم عليه وعلى الله.

هذا الايمان هو «عطية الرب» (أف ٢:٨). والله الذى أعطى فى القديم هذا الايمان لموسى،

وابراهيم، ولربوات لا يُحصَى عددهم فى كل الأجيال، سواء فى العهد القديم أو فى العهد الجديد، لا يزال مستعداً أنْ يعطِى. ولذا فإن هذا الايمان يمكن أن يكون من نصيب كل واحدٍ منا، إن كنا نطلبه ونطيع شروطه، التى سوف نراها بالتفصيل فى هذه السيرة المباركة، التى أرجو أن تكون بركة لكل من يقرأها. آمين.

القمص مرقس داود

---

٢٠ مايو ١٩٥٠ (الطبعة الأولى)

مقدمة المؤلف

ان الفكرة التى كونتها عن موسى، ثم وسعتها ودونتها فى الفصول التالية، أوحاها الىَّ منذ بضع سنوات، ذلك التمثال الحجرى الهائل الذى صنعه له ـ لموسى ـ المثَّال العظيم مايكل أنجلو.

والمرء لا يسعه إلا أن يغمض عينيه عن رأس ذلك التمثال الكبير الحجم، وعن حاجبَّيه الضخمين، وعن ذلك الارتفاع الشامخ، الذى لا أمل له لرجوع الحياة فيه. ولو أن ذلك التمثال نقل الينا صورة موسى الحقيقية، لما وُجد فيه شئ يماثلنا قط. فمما يلزمنا إذن أن نرجع الى ما دوَّنه العهد الجديد، الذى ينبئنا بأنه لم يقفز فجأة ليصل الى العرش، الذى تربَّع عليه، فى كل الأجيال الماضية، لكن صفاته استغرقت سنوات لكى تتشكل، وأعماله العظيمة كانت تُعزَى، لا إلى مجموعة صفات نادرة شخصية، بل الى الايمان الذى اشترك معه فيه جيش القديسين العظيم.

لهذا حرصّتُ على أن أبيَّن بأن موسى كان رجلاً كباقى الرجال، اتصف بصفات عظيمة، كانت تحتاج الى منُ ينمّيها ويهذبها وتوفرت فيه، بعض النقائص، التى امتزجت بحياته النبيلة، وبعض العيوب التى كان من الممكن أن تجعله هزيلاً ضعيفاً، لولا اعتماده على النعمة الغنية. وحرّصتُ أيضاً على أن أبيَّن بأنه أتم كل أعماله العظيمة ببساطة إيمانه، وبالشركة مع الله، وبوضع حياته تحت تصرَّف الله، كآنية تتم عن طريقها المقاصد الإلهية.

وأود بأن أعترف بأننى مدين بالمعلومات الجغرافية وبتفاصيل أخرى لمؤلفات المرحوم «دين ستانلى» ولمقال عن موسى فى سلسلة كتب «رجال الكتاب المقدس»، وكتاب السير داوسون عن «العلوم الحديثة فى أراضى الكتاب المقدس».

ف.ب.ماير

الباب الأول

موقفنـــا

«بالايمان موسى» ...

(عب ١١، ٤٢)

يكشف كاتب الرسالة الى العبرانيين عن سر الأعمال العجيبة التى فعلها أبطال العبرانيين. فإنهم إذ أطاعوا دعوة الله، اصطفوا فى جماعة كبيرة، وفى نفس واحد صرخوا «ما بالكم تتعجبون من هذا، ولماذا تشخصون إلينا كأننا بقوَّتنا أو تقوانا قد فعلناه» (أع ٣: ١٢). إن اله ابراهيم واسحق ويعقوب، إله آبائنا، قد شمر عن ذراع قدسه (إش ٥٢: ١٠) وعمل بنا. وأن اسمه، بالايمان باسمه، وهو الذى أتم كل هذه الأعمال العجيبة (أع ٣: ١٦).

اننا نخطئ خطأ فاحشاً عندما ننسب لهؤلاء الرجال صفات غير عادية من الشجاعة وقوة الجسم أو الروح. إن فعلنا هذا تغافلنا عن الفكرة الرئيسية فى تعاليم الكتاب المقدس. فإنهم لم يختلفوا عن الأشخاص العاديين سوى بايمانهم. ولعلهم كانوا دوننا فى نواح كثيرة. لو أننا التقينا بهم فى الأعمال العالمية اليومية فى العصر الحاضر لدهشنا، ولما أمكن مطلقا أن نصدق بأنهم أتموا مثل تلك المعجزات، معجزات الشجاعة والبطولة والاحتمال والانقاذ.

كان جدعون وباراق وشمشون ويفتاح من رجال البطش والعنف، ولم يصلوا الى روح المحبة المسيحية الهادئة المتسامحة التى يتمتع بها المؤمنون وخُدَّام المسيح فى جيلنا. لكن كانت هناك صفة مميزة اشتركوا فيها كلهم، وهى التى رفعتهم عن مستوى الأشخاص العاديين، وأبرزتهم ضمن أبطال الكتاب المقدس. تلك هى أنهم كانت لهم موهبة الايمان العجيبة، التى تفتح القلب البشرى ليعمل فيه الله. وقد ذكر فى أربعة مواضع بأن الايمان كان هو السر فى كل ما عمله موسى من أجل شعبه.

وقد أيد ربنا يسوع المسيح هذه الحقيقة مراراً، وأكدَّها فى تعليمه. فإنه لم يسأل قط عن مقدار القوة الخاصة الكائنة فى تلاميذه، أو عن مقدار حكمتهم، أو غيرتهم. فهذه فى عُرفِه أمور ثانوية تافهة، ولا ينظر اليها باهتمام. ولا تؤثر على النتائج الاجمالية لحياة المرء. وكل ما كان يطلبه بصفة مستمرة هو الايمان. اذا توفر الايمان فقط، ولو كحبة خردل، أمكن اقتلاع شجر الجميز (لو ١٧:٦) وطرح الجبال وسط البحر (مت ٢١:٢١)، واخراج الشياطين من ضحاياها (مت ١٧ : ٢١). قال مرة لواحد جاء اليه يطلب شفاء ابنه لا تسل عن قدرتى، بل عن ايمانك «إن كنت تستطيع أن تؤمن فكل شئ مستطاع للمؤمن» (مر ٩ : ٢٣).

وما هو هذا الايمان؟ ليس هو قوة أو صفة موروثتين فى أشخاص معينين يتمكنون بهما من اتمام أعمال خاصة لا يستطيع غيرهم اتمامها. بل هو بالحرى القدرة على تنحية الذات لكى يعمل الله فى طبيعة الانسان دون عائق. هو حالة القلب الذى إذ يتأكد من إرادة الله، ويرغب فى أن يكون واسطة فى يده، يتوقع بأن يتمم الله مقاصده عن طريقه. هو بالايجاز تلك الطاقة، التى تسمح لله بأن يعمل الى أقصى حدود الامكانيات، والتى تصبح الآنية التى يستخدمها لبركة البشرية. المؤمن هو الشخص الذى ملأه الله، الذى يحركه الله، الذى امتلكه الله. والعمل الذى يتممه فى العالم ليس عمله هو، بل عمل الله فيه.

إذن فهناك شروط ضرورية لكل ايمان حقيقى :

* الشعور بالضعف وبأننا لا شئ.

* ثقة مطلقة بأننا نتمم الخطة التى وضعها الله.

تكريّس كامل لكى يتمم الله إرادته عن طريق القلب والحياة. التعذية اليومية بمواعيد الله.

الجرأة على التقدم الى العمل، اعتماداً على الايمان الذى يرتكز ارتكازاً مطلقا على أمانة الله، وذلك دون الاعتماد مطلقا على الشعور والعواطف.

وسيكون هدفنا أثناء دراسة هذه السيرة التى أمامنا، سيرة موسى، أن نبين بأنه إن

كان قد تحلَّى بصفات عقلية وبدنية ممتازة، وتهذب بكل حكمة زمانه، إلا أن أعماله التى تممها فى حياته لم تكن تعزى لأية صفة من هذه الصفات، بل للايمان الذى ربط نفسه بالله. كان ايمانه كافيا لاتمام ما لم يكن ممكنا أن تتممه كل صفاته الأخرى مجردة من الايمان.

ونرجو أن نذهب الى مدى أبعد، فنبيّن أن كل البركات التى أغدقها الله على اسرائيل، اتماما لوعده، أتت لذلك الشعب المتمرد الغليظ الرقبة عن طريق ايمان موسى. أن طريقة الله هى أن يبحث عن الانسان الذى يتعاون معه على تنفيذ مقاصده، وأن يتمم مواعيده عن طريق ايمان خُدامه. وفى الحالة التى أمامنا، كان موسى هو الذى دعاه الله ليكون شريكا معه، وعن طريق ايمانه تمم الله وعده لابراهيم واسحق ويعقوب.

ولقد تم فى حياة موسى كل شرط من شروط الايمان العظيم السابق الاشارة اليها.

لقد سمح له بأن يبذل جهوده الأولى لتحرير شعبه بقوته الشخصية وأن يفشل فشلا ذريعا. من أجل هذا هرب الى مديان يائسا من انقاذهم، وقضى السنوات الطويلة مشردا فى وحدة موحشة، الى أن حان الوقت الذى فيه أقنعه الله بجهد شديد بأن يقبل المهمة التى كلفه بها. كان قد وصل الى أقصى حدود الضعف عندما اشتعلت فى طريقه العليقة، التى جاء الله فيها ومع ذلك لم تحترق، مع أن الهنا نار آكلة (مثال أم النور وبداخلها جمر اللاهوت).

لم تكن الخطة التى رسمها الله تحوط بها أية شبهات أو غموض، فقد كانت مكشوفة أمامه فى الوعد الذى أعطى لابراهيم منذ سنوات طويلة ماضية، ذلك الوعد الذى حدد اقامة شعب الله فى مصر بأربعمائه سنة. يضاف الى هذا أن الله قال بوضوح انه نزل لينقذهم.

لقد استسلم لقصد الله استسلاما كليا، كاستسلام العصى التى فى يده لارادته. من هنا جاء اسمه المحبوب: «عبد الله»، ومن هنا رددت هذه العبارة مرارا «كما أمر الرب موسى».

كان يتغذى كل يوم بمواعيد الله، ويستخدمها كحجة فى صلاته، ويرتكز عليها ارتكازا كليا. وكثيرا ما تعلم كيف ينبذ وراءه الأشياء المألوفة، ويجرب الجديدة والقريبة. لقد خرج

اتماما لأمر الله، رغم أنه لم يظهر أمامه أى موطئ لقدمه، معتمدا على عناية الله ليعوله هو وثلاثة ملايين معه، واثقا بأن أمانة الله لا يمكن أن تُخِيِّب رجاءه.

كان ايمان موسى هو الذى جعل منه كل ما كانه. وسوف نتبين هذا بوضوح أكثر، كلما تقدمنا فى دراسة هذه السيرة. فرغبتنا الملحة هى أن نتبين تماما كيف حصل على هذا الايمان؟

لماذا لا يكون لنا مثل هذا الايمان؟ ان طرق الله لا يمكن أن تشيخ. يقينا أننا نستطيع الحصول على ايمانه ان دفعنا الثمن، وهو تحمل تأديبه.

وان حصلنا على ايمانه فلماذا لا نختبر اختبارات الخروج؟ لماذا لاتنشق البحار لتمهيد طريق الخلاص، لماذا لا تُهزَم الأعداء، وتتحطم السلاسل، ويطلق الأسرى أحرارا، ويُعبَد الرب وسط ترانيم الُظفر؟ يقينا انه ليست هنالك حدود لامكانيات الحياة التى أصبحت آلة فى يد الله يعمل فيها بقوة.

هل أنت مستعد بأن لا تعتمد على قوتك، وبأن تتخلى عن خططك، لإخلاء المكان لخطة الله، وبأن تبحث عن ارادة الله وتتممها، وتستسلم استسلاما كليا لمقاصد الله، وتتغذى يوميا بمواعيد الله، وتتقدم بالايمان معتمدا على أمانة الله دون أقل تردد، مقتنعا اقتناعا كليا بأنه لابُد أن يُتمم كل ما وعد به؟ اذن فيقينا أن الله سوف يعمل بك ـ هنا أو فى العالم الآخر ـ كما عمل فى الأيام الغابرة التى أخبرنا عنها آباؤنا.

يقينا انه، اذ يوشك هذا الجيل الحاضر على الانتهاء[1]، سوف يتمم الله قريبا مقاصده العظيمة التى أعدها. ووفقا لخطته، التى لا تتغير، سوف يتممها على أيدى البشر وحسب ايمانهم. والسؤال الوحيد الجوهرى هو هذا : **هل نحن وايماننا فى حالة تسمح لله بأن يعمل بنا لمجد اسمه القدوس؟** فلنتأمل جيدا فى الدروس التى تقدمها الينا سيرة وصفات موسى، لكى- فى الوقت المناسب- نُصبح آنية لخدمة السيد، متأهبين لكل عمل صالح.

✝ ✝ ✝

---

(١) قد انتهى القرن الماضى، وبدأ القرن الحادى والعشرين.

الباب الثانى

ايمان أم موسى

«بالايمان موسى بعدما وُلدِ
أخفاه أبواه ثلاثة أشهر لأنهما
رأيا الصبى جميلا ولم يخشيا
أمر الملك»   (عب ١١ : ٣٢)

لما فتح الطفل الرضيع عينيه، لأول مرة، أبصر عالما مليئا بالعداوة الشديدة.. فى الخارج كان كل شئ جميلا، جمال الطبيعة وجمال صنعة يد الانسان. وبجوار الكوخ الحقير، الذى آواه فترة قصيرة، كان النيل يجرى وسط أشجار الغاب على جانبيه، تنعكس على مياهه زرقة السماء نهارا، وأنوار النجوم ليلاً. وعلى مقربة منه كانت مدينة منف العظيمة، عاصمة مصر، ومقر البلاط الملكى، مركز التجارة والفن والحرب والدين، التى كانت تتجه اليها كل الأنظار.

اذا سار الموكب الملكى، سواء فى خروجه الى الحرب، أو فى نزوله الى شاطئ النيل للعبادة، كان يجتاز بذلك الكوخ الحقير.

كان يجتاز به أيضا الكهنة، من كل أرجاء البلاد، فى طريقهم الى هيكل «بتاح» العظيم، الذى كانت طرقه المحفوفة بالأعمدة، وأروقته الفاخرة، وغرفه ذات الكتابة الهيروغليفية، تتحدث عن صناعة وفن الأجيال السالفة، وعن تاريخ الآباء الذين شيدوها. لكنهم لم يخطر ببالهم قط أن ذلك الكوخ الحقير سوف يجذب أنظار الأجيال الى الآبد، عندما يسقط هيكلهم العظيم ويصير كومة من تراب.

وان وفرة كميات الكرات والبطيخ والثوم والشعير والقمح والأقمشة الدقيقة النسج التى اشتهر بها المصريون، والتوابل والبلسان، التى كانت تعد لمدينة الموتى العظيمة (للتحنيط)، وكل المواد الوفيرة جدا اللازمة لاحتياجات هذا الشعب الكثير العدد الواسع الثراء ـ هذه كلها لابُد أنها جعلت الطرق المجاورة مزدحمة بعدد وافر جدا من الجمال

والحمير والقوافل، كما جعلت النهر مكتظا بعدد كبير جدا من السفن. وعلى مقربة من المكان كانت هناك الأهرامات العظيمة، التى كانت فى ذلك الوقت قد تقادم عهدها، والتى كان مقدرا لها أن تعيش أربعين قرنا، شاهدة لايمان الانسان الغريزى بخلوده، وشاهدة أيضا لأنانية الانسان وعدم اكتراثه بآلام الآخرين. وسط هذه الظروف من الثراء والعظمة وُلِدَ الطفل، لكى يعامل بقسوة.

لقد كان يتصل بجنس غريب. منذ أكثر من أربعمائة سنة هاجر آباؤه من أرض فلسطين المجاورة، بناء على دعوة رئيس الوزراء فى ذلك الوقت، الذى كان يتصل بهم بصلة القرابة والجنس. وقد رحب بهم الملك مؤملا بأن يكونوا حلفاء نافعين، لأنه هو أيضا كان يتصل بجنس غريب، وكان يجلس على عرش غير مستقر. وبناء على أمره استوطنوا فى أحسن الأرض، فى شريط من الأرض الخضراء يدعى جاسان، محاط بمساحات فسيحة من الرمال. هنالك نموا وامتدوا وتكاثروا حتى وصل عددهم الى حوالى مليونين. لكنهم ظلوا شعبا منعزلا، لهم صفاتهم الخاصة، وعوائدهم الخاصة، كما تراهم اليوم فى كل أمة تحت السماء، ولهذا كانت تحوم حولهم الشكوك الكثيرة، وبالتالى كانوا مكروهين.

وكان يتصل بجنس مضطهد. كانت الأسرة الحاكمة تختلف عن تلك التى رحبت بهم عند قدومهم، ولم يكن لديها أى قدر من الاحترام والتقدير ليوسف. وفى ذلك الوقت كان شبح الحرب ماثلا فى الشرق، فخشى الملك الحاكم بأن ينضم اليهود الى أعدائهم، وكان اليهود قد ازدادوا عددا وقوة فأصبحوا فى غاية الخطورة. من أجل هذا اعتزم أن ينهك قواهم، ويُنقِص عددهم، ويذل روحهم، بأن يقسو فى معاملتهم.

وبغتة وجد رعاة جاسان أنفسهم مدفوعين الى الخدمة فى عمل اللبن (الطوب)، تحت إشراف رؤساء قساة القلوب، كانوا يرفضون عليهم كل يوم كمية معينة من اللبن. وكانوا أيضا يخدمون فى الحقول بحمل الماء من النهر لرى الأرض، ويزرعونها. «كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عنفا»(خر ١:١٤). كأنهم قد اتخذوا كل فرصة لتوقيع قصاص قاس على هذا الشعب بلا رحمة.

ولعل والد الطفل اضطر هو أيضا لحمل نصيبه فى تلك العبودية القاسية، التى مررت حياة شعبه. فكان يعمل من الصباح الى المساء، عارى الجسم، تحت أشعة الشمس المحرقة.

وكثيرا ما كان يعود الى بيته ممزق الجسم بسبب ضربه بالسياط، وفى داخله شعور يدفعه الى أن يتساءل عما اذا كان الله موجودا؟ أو يتساءل عما اذا كان فى قلبه رحمة؟ كانت ظلمة الليل ثقيلة على الشعب المختار فى تلك السنوات التى قضوها فى عبودية قاسية.

وُولِدَ فى وقت اضطرابٍ غير عادى وكانت الأسرة مُكونَّة من الأب والأم، من أخت كبرى يبلغ عمرها نحو خمسة عشر عاما، موهوبة فى الغناء. ومن أخ صغير، يسمى هرون، يبلغ عمره ثلاث سنوات. وظاهر أن هذا الطفل الأخير عندما وُلِد لم يكن هنالك مبرر لاخفائه، لأن الملك كان وقتئذ يحاول الوصول الى غايته باستخدام سياسة العنف السابق وصفها. لكنه بعد ذلك أدرك أن عنف تلك السياسة لم يكن كافيا للوصول الى غايته، ولذلك أضاف اليها خطة أخرى هى ابادة كل الأطفال الذكور، بطرحهم فى النهر حالما يولدون.

ويبدو أن هذا الأمر الملكى لم ينفذ أكثر من بضعة شهور. كان الباعث على استخدام تلك القسوة خوف مفاجئ. لكن الغرائز البشرية السامية جعلت خدام فرعون ينفرون منها، فأبوا أن يستمروا فى هذا الوضع الشاذ. لكنه اذ كان نافذا كان أقسى عنصر فى كل حزنهم المرير. فالحرمان والفقر والصعوبات والتحقير والقسوة، كل هذه تهون ان بقيت فلذة الأكباد فى البيت. أما ان هددت حياتهم، وأصبحت صغار الفراخ مهددة بالافتراس من الطيور الجارحة، أصبحت الحياة مُرّة لا تُحتَمل.

إن ولادة طفل بصفة عامة، وولادة طفل ذكر بصفة خاصة، تقابل بفرح جزيل جدا، أما وقتئذ فكانت مصدر قلق، بل مصدر خوف وانزعاج. لم يكن هنالك أى فرح أو ترحيب أو اغتباط ليُعوِّض الأم عن أتعابها، لأنه قد وُلد انسان فى العالم. وبالرغم من كل هذا فان الشعب «أثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيرا جدا وامتلأت الأرض منهم» (خر ١:٧،١٢). ظل الأمر الملكى سارى المفعول فترة وجيزة، وفى أثناء هذه الفترة وُلِد موسى. هذه هى طريقة الله. فإنه فى أحلّك ساعات الظلمة يقترب الينا ليشرق بنوره. عندما يوشك أن يحل يوم تنفيذ الاعدام فى بطرس يأتى الملاك الى حجرته فى سجنه. وعندما تهيأ الخشبة ليصلب عليها مردخاى «فى تلك الليلة يطير نوم الملك»، فيؤدى هذا الى العفو عن اليهود المهددين بالقتل.

ايه أيتها النفس، قد تصل الحالة بكِ الى أسوأ ما يمكن قبل أن تأتى النجاة، لكن ثقى

بأنها سوف تأتى. قد يسمح لكِ الله بالانتظار، لكنه سوف يظل ذاكرا عهده، وسوف يظهر ليتمم كلمته التى لا تُنقَض.

لكنه كان إبناً لوالدين تقيين. نحن لا نعرف عنهما الا القليل. قيل عن الأب إنه كان «رجلا من بيت لاوى» (خر ٢:١). ونقرأ عنه فيما بعد أن اسمه «عمرام» وأنه كان ابن قهات بن لاوى (خر ٦:١٦،١٨). على أن سبط لاوى لم تكن له أهمية تُذكر وقتئذ وكان ينتظر أن يُقسَّم فى يعقوب ويُفرَّق فى اسرائيل (تك ٤٩ : ٧). أما الأم ـ يوكابد ـ فكانت تنتمى لنفس السبط، وكانت فى الواقع تتصل بزوجها بصلة قرابة لم يكن يسمح بها فيما بعد (خر ٦ : ٢٠). لقد كانا يعيشان حياة متواضعة، يكتفيان بالأجر البسيط الذى يحصلان عليه، لكنهما كانا يحتفظان بحياة دينية سامية، وفى هذه الناحية كانا أفضل جدا من الكثيرين من أبناء جنسهما.

يقول «دين ستانلى» إن إقامة بنى اسرائيل فى مصر، أثرت فيهم تأثيرا سيئا جدا. فان «حريتهم السابقة، ونشاطهم السابق، وأهم من كل هذا ان الديانة السابقة التى تمتع بها عصر الآباء البطاركة الأولين ـ كل هذا قد تلاشى». وهناك أدلة واضحة فى الأسفار التالية تبيّن بأن الشعب اشترك فى العبادة الوثنية التى سادت أهل البلاد التى استوطنوها. قال يشوع «انزعوا الآلهة الذين عبدهم آباؤكم فى مصر» (يش ٢٤:١٤). وفى عصر متأخر ذكرَّ الله ـ على لسان حزقيال ـ الأمة بخيانتها فى الأيام السالفة «فى ذلك اليوم رفعت لهم يدى لأخرجهم من أرض مصر، الى الأرض التى تفيض لبناً وعسلا هى فخر كل الأراضى. وقلت لهم اطرحوا كل انسان منكم أرجاس عينيه، ولا تتنجسوا بأصنام مصر. أنا الرب الهكم. فتمردوا علىَّ، ولم يريدوا أن يسمعوا لى، ولم يطرح الانسان منهم أرجاس عينيه، ولم يتركوا أصنام مصر». (خر ٢٠:٦ـ٨). لقد أُهمِل السبت، وأُبْطِل الختان، وهو أبرز علامة على العهد الذى قطعوه مع الله، وأمام اغراء نجاسات الأعياد الوثنية ـ التى عادوا اليها فى السنوات التالية ـ لم يستطيعوا الاحتفاظ بطقوس التطهير التى مارسها آباؤهم.

لكن الأمر واضح أنه كانت هنالك بعض العائلات التى ظلت أمينة وسط الفساد السائد. كانت احداها تلك الأسرة التى وُلِد فيها هذا الطفل كانت تتذكر بوقار ذلك العهد المقدس بين الله وجنس اليهود، وكانت تتمسك به بإيمان تجاسر بأن يثق أن الله لابُد أن يتدَّخل، إن عاجلا أو آجلا. كانت تحرص على أن تقص للأبناء ـ على قدر ما يسع ادراكهم وذاكرتهم

ـ تلك القصص التى دونت فيما بعد فى سفر التكوين. والابن البكر ـ هرون ـ أُفرِزَ، باجراء طقس معين، ليؤدى للبيت وظيفة الكهنوت. ودربت مريم ـ وهى أول من يسمى بهذا الاسم فى الكتاب المقدس ـ لتستخدم صوتها الجميل فى تسبيح وعبادة اله آبائهم.

لكن حياتهم الدينية كشف عنها ايمانهم بوضوح أكثر : «بالايمان موسى بعد ما وُلِد أخفاه أبواه ثلاثة أشهر، لأنهما رأيا الصبى جميلا ولم يخشيا أمر الملك» (عب ١١:٢٣). كثيرا ما رُسِمت أمامنا صورة تمثل الفزع الذى استقبل به والداه نبأ ولادة الطفل الجديد، وحُزن عمرام، ومخاوف يوكابد. أن صورة كهذه يصح تصديقها عن والدين آخرين من العبرانيين، لا عن والدىّ موسى. فالكتاب يقرر صراحةً أنهما «لم يخشيا» أى لم يخافا.

عندما علمت يوكابد أن المولود ذكر، استطاعت أن تلقى على الله أمر العناية به، وأن تتلقى منه التأكيد بأنه لن يصيبه أذى. وعندما انحنى الوالدان على طفلهما فى كوخهما المتواضع، ورأيا جماله الرائع، ازداد الاقتناع فى قلبيهما بأن مستقبلا مزدهرا ينتظره، وأنه بأية طريقة من الطرق سوف يعيش ليرى انتهاء فترة العبودية، الأمر الذى تنبئ به من قبل بكلمات تناقلها السلف عن الخلف، وكانت هذه هى شعاعة النور الوحيدة وسط ظلمة ليلهم الدامس. ويقول يوسيفوس إن عمرام رأى فى حلم أن موسى سوف يكون هو مخلص شعبه.

أيمكن أن ينسى أولئك الذى تمررت حياتهم فى العبودية القاسية ما أخبر به الله أباهم عندما وقعت عليه «رَعبة مظلمة عظيمة». «أعلم يقينا أن ذلك سيكون غريبا فى أرض ليست لهم ويستعبدون لهم، فيذلونهم أربعمائة سنة.. وفى الجيل «القرن» الرابع يرجعون الى ههنا» (تك ١٥:١٣ ـ ١٦).

سارت تلك السنوات متباطئة، حتى وصلت أخيرا الى نهايتها. فقد أوشكت وقتئذ أن تنتهى إن لم تكن قد انتهت فعلا. ولابُد أن يكون الوعد قد أوشك أن يتم. كانت تلك الكلمات «**وبعد ذلك يخرجون**» (تك ١٥:١٤). ترن فى أذنى الأم برنين خاص. وكانت فى قلبها ثقة.. شددها روح الله، ومحبتها لطفلها الذى كان «حسنا» (خر ٢:٢) و «جميلا» (عب ١١:٢٣) و «جميلا جدا»(أع ٧: ٢٠). لقد اعتقدت أنه سيكون له نصيب فى هذا الخروج بأية طريقة من الطرق.

لم تكن تحاول بصفة مستمرة أن تتنبه لوقع أقدام أحد الضباط أو احدى الدايات. كانت تتخذ كل الاحتياطات اللازمة، لكنها لم تدع قط للخوف المفرط سبيلا الى نفسها. وفى بعض الأحيان، عندما كان يمرض قلبها، كانت تجثو على ركبتيها، وتلجأ الى الوعد الالهى الذى كانت ترجوه.

كانت كل الأسرة تعيش على ايمان هذه المرأة، كما يعيش المرء على الخبز، وكانت ملائكة الله تنحنى على الطفل، تظلله بأرق عنايتها، وتهمس بكلمات المحبة فى أذنيه.

وأخيرا أرشد روح الله الصالح الأم بأن تصنع من أعشاب البردى سفطا، وطلته بالحُمْر والزفت، لكى تحصنه ضد الماء. وضعت الطفل فيه، وطبعت على خديه قبلات كثيرة، ووضعت الغطاء فوق وجهه الجميل، وحملته بيديها الى حافة الماء، ووضعته بّرقة بين الحلفاء التى كانت تنمو هناك. كانت تعرف أن ابنة فرعون ذهبت الى هناك لتستحم، وأدركت بأنها ربما تكتشف الطفل وتعطف عليه، والا فان الله الذى ركزت فيه ثقتها سيعينها بطريقة أخرى. وعلى أى حال فانها لم تفقد ايمانها البسيط الأخير. كان الرب نورها وخلاصها فممن تخاف. الرب حصن حياتها فممن ترتعب. عندما اقترب اليها أعداؤها ليأكلوا لحمها عثروا وسقطوا. إن نزل عليها جيش لا يخاف قلبها (مز ٢٧:١-٣).

كلفت مريم بالوقوف لترقُب الأمر، لا لأنه كانت هناك فكرة أن يحل به أى ضرر من يد عدو أو من وحش مفترس، لكن فقط لتعرف ماذا «يُفعل به». وعادت يوكابد الى بيتها، وكانت عواطف الأمومة الطبيعية تصارع ايمانها، الذى أمسك بذراع الله الحى، والذى لا يمكن أن يخيب رجاءها، ولو تزعزعت السماوات، وانقلبت الأهرامات فى أعماق نهر النيل.

.. هذا هو الايمان. وهل يليق بأن نعجب من ايمان الرجل الذى وُلِد من أم كهذه وتربى فى بيت كهذا؟

الباب الثالث

لما كبر

«بالايمان موسى لما كبر أبى أن
يُدعى ابن ابنة فرعون»

(عب ١١: ٤٢)

سارت كل الأمور وفقا لايمان الأم. فقد جاءت الاميرة ابنة فرِعون الى شاطئ النهر لتستحم، يرافقها جواريها. واذ رأت السفط بين الحلفاء أرسلت أمتها وأخذته. فى وسط هذه الجماعة القليلة العدد رفع الغطاء بحرص، فبهرت أعينهم اذ رأت وجه الطفل الجميل، وتأثرت قلوبهم ببكائه لحرمانه من أمه، ولوجومه لدى تطلعه الى الوجوه الغريبة المحيطة به، التى لم يتعود رؤيتها من قبل.

وفى الحال أدرك قلب الأميرة السر. فان قرب أكواخ العبرانيين من المكان، وتقاطيع وجه الطفل، واستحالة نسيان أم لطفلها بهذه الكيفية، وتذكرها للأمر البالغ القسوة الذى أصدره أبوها أخيرا، كل هذه جعلتها تصل الى استنتاجها الصحيح «هذا من أولاد العبرانيين».

ولقد كان فى تدخل مريم المفاجئ، التى كانت ترقب كل المنظر بلهفة وشغف، وكان فى اقتراحها السليم النية، الذى اقترحت به البحث عن مرضعة من العبرانيات، حل للمشكلة، ألا وهى : ماذا يُعمل لهذا الطفل المنبوذ؟ وهذا الحل جاء فى اللحظة المناسبة. وللحال مَثُلتَ أم الطفل أمام الأميرة، وتلقت من يديها الوديعة الثمينة. واذ فعلت هذا ألم تكتشف الأميرة تلك المؤامرة البسيطة من حركتها المصطنعة؟ وعلى أية حال فإننا لا نجد فى رواية الكتاب المقدس ما يؤيد هذا أو ينفيه.

وما أعظم الفرح الذى ملأ قلب الأم عندما دخلت بيتها حاملة الطفل، وأغلقت عليها بابه. لقد أصبحت حياة الطفل فى أمان برعاية ابنة فرعون التى قالت «اذهبى بهذا الولد وأرضعيه لى ». أما الأميرة التى وعدت بإعطائه اليها فكانت كافية لسد احتياجات كل الأسرة. لقد فعل الله أكثر جدا مما طلبت أو افتكرت (أف ٣:٢٠).

لا ندرى على وجه التحقيق مقدار الفترة التى قضاها الطفل فى ذلك البيت المتواضع. لعله بقى فيه الى أن بلغ الرابعة أوالخامسة من عمره. لكنها على أية حال كانت كافية لكى يعرف شيئا عن أخطار ومتاعب شعبه، ويتعلم كثيرا عن تاريخهم المقدس القديم، الذى دونه ببساطة فيما بعد فى سفر التكوين، ويقبل فى قلبه محبة الاله الوحيد، تلك المحبة التى سوف تكون عماد حياته فيما بعد. وقد يستطيع الكهنة والفلاسفة والعلماء أن ينموا معلومات هذا الصبى الصغير فيما بعد، أما المعلومات التى تلقاها وقتئذ فقد تفشت على ألواح قلبه، وامتزجت بكيانه.

.. ياله من تشجيع عظيم، ذلك الذى تجده الأمهات فى هذه الكلمات، لكى يبذلن أقصى جهد فى تعليم أبنائهن فى السنوات المبكرة، التى فيها يكن مسئولات عن أبنائهن. ولا شك فى أن هذه المسئولية لا يمكن أن تعهد لغيرهن الا فى الظروف الاستثنائية.

أخيرا حان الوقت الذى فيه طالبت «ثرموتيس» Thermutis (ابنة فرعون) بالطفل الذى انتشلته وأنقذت حياته. لقد ازداد جمالا، حتى كان كل من يمر يقف فى ذهول ليتطلع اليه، وكان العمال يتركون عملهم ليختلسوا نظرة اليه، كما يخبرنا يوسيفوس..

.. ولابُد أن قلب الأم قد ذاب حسرة وألما اذ وعدت ابنها ليذهب الى العالم المجهول داخل أبواب القصر الملكى. ولابُد أن كل من فى البيت أحس بوحشة رهيبة اذ تبودلت القبلات الأخيرة، وأعطيت للصبى التعليمات الأخيرة، ورفعت لله الصلوات الأخيرة.. يا للأفكار الرقيقة التى ازدحمت فى عقل الأم، والخيال الغريب، والحنين الشديد، اذ أخذت ابنها وقدمته الى ابنة فرعون فصار لها ابنا. لكن، وسط كل هذه العوامل، انتعش الايمان بقوة، فآمنت الأم أن من أنقذ الطفل من أخطار نهر النيل سوف يحفظه طاهرا وسط نجاسات واغراءات القصر الملكى.

كانت مصر فى أوج عزها فى تلك الأيام، كما يخبرنا هيرودوتس، وكما تتحدث الينا النقوش الهيروغليفية. كان الجو خاليا من الأمطار، وكان نهر النيل ينقل من بلاد بعيدة ذلك الطمى الذى يزيد الأرض خصوبة، فتثمر قمحا يكفى لاطعام كل العالم. وكان شاطئا النيل يزدحمان بالمدن والقرى والهياكل الفخمة، وكل الأدلة على تقدم المدنية. ثم كانت هنالك الأهرامات الضخمة والتماثيل الفخمة.. كان يعمل فى ذلك الشريط من الأرض الخضراء فى تلك المنطقة سبعة ملايين. وبينما كانت الأغلبية الساحقة تعيش فى فقر مدقع

ويخيم عليها الجهل المروع، كانت الطبقة الرفيعة، لاسيما الكهنة قد وصلوا الى درجة سامية من العلوم التى نفخر بها نحن أنفسنا اليوم.

كان موسى يتمتع بكل هذه الامتيازات. لقد تربى فى القصر الملكى، وكان يعامل كابن ابنة فرعون. خرج الى الشوارع ركب عربة ملكية، وهتف الجميع «اجثوا قدام الأمير». وإن خرج لنزهة نيلية استقل سفينة موشاة بالذهب، ورافقته أمهر الجوقات الموسيقية. وان اشتهى الحصول على أى شئ وجد كل كنوز مصر وثروتها تحت تصرفه.

وعندما كبر أُرسِل ليتعلم فى الكلية التى كانت بجوار هيكل الشمس، والتى تحاكى جامعة أكسفورد فى الوقت الحاضر. هنالك تعلم اللغة الهيروغليفية العجيبة، والرياضيات والفلك والكيمياء، هذه العلوم التى اشتهرت بها مصر.

.. هنالك أيضا اكتسب الذوق الموسيقى، وبذلك استطاع فى الأيام التالية أن يغنى أناشيد وترانيم الظفر، ويؤلف القصائد التى ضمنها تاريخ معاملات الله مع شعبه. لقد كان الله يعده بكيفية عجيبة لمهمة حياته القادمة. قال عنه استفانوس : «تهذب موسى بكل حكمة المصريين» (أع ٧: ٢٢). كان الكثير من هذه الحكمة بلا شك حماقة. ولكن كان الكثير منها أيضا نافعا له عندما صار مؤسس دولة جديدة.

لكن موسى كان أكثر من طالب فى القصر الملكى يقضى أيامه فى تحصيل العلم. لقد كان رجلا سياسيا وعسكريا. قال عنه استفانوس انه «كان مقتدرا فى الأقوال والأعمال» (أع ٢٢:٧). مقتدرا فى الاقوال، أى رجلا سياسيا، مقتدرا فى الأعمال، أى رجلا عسكريا. يقول يوسيفوس انه اذا كان شابا أغار الأثيوبيون على مصر، واكتسحوا الجيش الذى التقى بهم، وهددوا مدينة منف. وفى وسط هذا النزاع استشيرت الآلهة، وبناء على توصيتها تولى موسى قيادة الجيش. وفى الحال اكتسح جيش العدو وافتتح مدينتهم الرئيسية، وهى مدينة «موروا»[١]، وعاد الى مصر محملا بالغنائم.

وهكذا مرت السنوات، سنة بعد سنة، حتى وصل الى سن الأربعين. كانت أبواب أسمَّى مراكز الدولة مفتوحة أمامه، وبدا كأن مجرى حياته سوف يستمر فى نفس جريانه دون أى تغير، سوى أنه يزداد اتساعا.

---

(١) Meroe جزيرة واقعة بين عطبرة ونهر النيل، وكانت عاصمة أثيوبيا.

لكن، وسط كل هذه المظاهر والعوامل، كانت هناك فكرة ماثلة أمامه بصفة مستمرة، وكانت بالتدريج تكتسح أمامها كل فكرة أخرى، كلما ازدادت تأصلا فى نفسه.

فهو لم ينس أن والديه كانا ضمن جماعة العبيد، ولم ينس أن العبيد الذين يئنون تحت ثقل صناعة اللبن، وتحت ضرب السياط من مسخريهم، كانوا اخوته. لم يغب عن فكره قط ذلك الاله الذى علمته أمه أن يصلى اليه. وفى أمجد ساعات حياته، وأكثرها نجاحا وعزا واقتدارا، لم يستطع قط أن يتناسى بأن مستقبل حياته لا يتصل قط بمظاهر العظمة التى تحيط به، بل يتصل - بطريقة ما - باتمام ذلك الوعد الذى طالما سمعه من شفتىَّ أمه.

ان أفكارا كهذه لابُد أن تكون قد طرحت ظلالا غريبة على وجهه فى كثير من الأحيان، مما حير القريبين منه، ولعل أمه التى تنبته قد عزت تلك الكآبة البادية على وجهه الى اعتلال صحته، أو الى عواطف منحرفة.

ولعل أصدقاءه ورفقاءه كانوا يسخرون به بسبب شرود ذهنه. ولعل حاشيته تحدثت كثيرا عن كآبة وجهه، متعجبة من الباعث لها. ظل السر مكتوما فى قلبه، الى أن تحولت كآبته الغامضة الى عزم أكيد، وتحدث برَّقة الى أمه التى تبنته قائلا بأنه لا يستطيع أن يظل بعد محتفظا بالمركز الذى رفعته اليه، ولا يقبل أن يدعى لها ابنا، بل يجب أن يعود الى شعبه الوضيع.

لعل هذا النبأ قد قابلته ابنة فرعون - التى يدين لها بالكثير - بدموع غزيزة واستياء شديد. لكن هذا لم يثنِه عن عزمه قيد شعرَه. ولابُد أن هذا النبأ قد أثار رجة شديدة فى أرجاء القصر الملكى. لقد تحدثت به دوائر كثيرة، وعللته بأسباب مختلفة. لعل البعض عللوه بالتقشف أو الحسد، وعلله البعض بأن أثر دم العبيد لايزال يسرى فى عروقه، وعلله الآخرون بأن فى عقله خطة يدبرها ليعلى من شأن نفسه. والجميع رثوا لحال الأميرة التى اتضح أن عطفها قد قوبل بجحود وفظاظة. ولكن أحدا لم يخطر بباله قوة ونبل قصده الخفى، الموعز به من الله، الذى غذته روحه الطيبة الخيِّرة.

(١) لاحظ العناصر النبيلة فى هذا العزم العظيم.

١ ـ **لقد عقد العزم فى كمال نضوج قواه.** قد يدفع حماسة الشباب شابا أو شابة يوما ليقول : «سوف يكون هذا الشعب شعبى، وإلههم إلهى» كما قالت راعوث لحماتها. لكن لم يكن هنالك شئ من هذا فى حالة موسى. فقد كان عزمه عزما أكيدا لرجل ناضج مكتمل السنين، يعرف أن يزن الأمور من جميع نواحيها. بعد تفكير طويل نزل عن أعظم عرش فى العالم، ولم يكن أمامه أمل فى أى ربح، بل كانت كل الخسارة تنتظره.

٢ ـ وعقد العزم عندما كان بنو اسرائيل فى أسوأ حالات المذلة.

كانوا مستعبدين، يعانون ضيقة شديدة خانقة، وكانوا يعيرون بصفة مستمرة. كان عليه أن يستبدل القصر الملكى بكوخ حقير، وأن يستبدل التنعم بالتقشف وأردأ طعام، وأن يستبدل التوقير والكرامة البغضة والاحتقار، وأن يستبدل كنوز مصر بالفقر والعوز، وأن يستبدل رفقة العلماء والمثقفين بالجهلة والأذلاء. لكن شيئا من هذا كله لم يُزحزحه عن عزمه.

لقد حسبها تافهة جدا لا قيمة لها. فأحنَّى رأسه تحت النير بعزمٍ ثابت، رغم أنه كان نيرا ثقيلا، وخشنا.

٣ ـ **وعقد العزم عندما بدت لذة الخطية فى أشد اغراءاتها.** ان للخطية اغراءاتها الكثيرة. فالثمرة المحرمة «بهجة للعيون وشهية للنظر» (تك ٣: ٦). والخطوات الأولى للطريق الواسع مفروشة بأفخر الأبسطة، ومزدانة بأينع الزهور. وفى أغنيات الغانيات ألحان شجية تجذب العقول وتخلب الألباب. ولولا هذا لما كان فى التجربة أية قوة قط. واللذة الوهمية للتجربة هى الطُعم الذى يخفى تحته عدو النفوس السنارة لاصطياده بها.

لم ينسَ موسى كل هذا. ومع ذلك فإنه، اذ كان فى عنفوان قوته، وفى كمال نضوجه، واذ كان يعيش فى القصر الملكى الذى لم يكن يعرف فيه شئ عن العفة والطهارة، عزم على أن يتنازل عن كل شئ.

٤ ـ **وعقد العزم بحزم ثابت:** لعل الكثيرين قد حاولوا اقناعه بالاحتفاظ بمركزه الرفيع مع خدمة اخوته المستعبدين فى نفس الوقت، وأن يوفق بين توقيره لأوزوريس فى الظاهر وبين ولائه القلبى للرب، وأن يحتفظ بعلاقات طيبة مع القصر الملكى ومع صانعى اللبن. لكن كل هذه الأمور لم يكن لها أقل أثر، أمام عزم موسى الذى اتخذه لقطع كل علاقة بالاغراءات المحيطة به ألا توجد أوقات فى تاريخ حياتنا حينما نجد أننا ينبغى أن نتخذ خطوة مماثلة؟ ينبغى أن نموت عن ملذات كثيرة، واغراءات وفيرة، لكى ننهض الى حياتنا الحقيقية. ينبغى أن نُدفَن لكى نُثِمر، أن تُقطع اليد أو الرِجل لكى ندخل الحياة، أن نضع اسحق على المذبح لكى نكون قادة المؤمنين، أن نتحول عن الطريق الواسع الذى يبدو بهيجا، ونسير فى الطريق الضيق المحفوف بالأشواك، أن ننبذ ما يتمسك به الآخرون دون حرج، لأن هناك دعوة عُليا تلح علينا لتلبيتها، أن نختار جثسيمانى والجلجثة والقبر فى شركة مع رجل الأوجاع، أن نكون مستعدين لترك الأصدقاء والثراء والشُهرة والرخاء، وأن يُطوحَ بنا فى شاطئ موحِش كبحَّار انكسرت به السفينة، وذلك لأن رؤيا معينة تومئ الينا. ان الذين اتخذوا احدى هذه الخطوات هم الذين يستطيعون أن يُدركوا ـ دون سواهم ـ نبل وعظمة ما اختاره موسى.

(٢) الفكرة التى آلت اليه: «بالايمان موسى ... أبى» (رفض).

يستند الايمان على الوعد. انه يرى بأن الوعد يستوى مع الاتمام. ان كان له الوعد تأكد من الاتمام. ان لم يتم الوعد لا يُبالى كثيرا، لأنه واثق ومتأكد من أنه سوف يتم لأن الله ضامن لكلمته، ولأنه يرى مقدما بأنه قد تم فعلا فيتمتع به. انه يرى بأن ما حصل عليه فعلا يستوى تماما مع ما وعد به، ولو لم يتم بعد، لأنه يثق بأن الثانى يُقتَنى كالأول. هكذا كانت الحال مع موسى.

لقد آمن بوعد الله لابراهيم، بأن شعبه لابُد أن يخرج بعد قضاء أربعمائة سنة فى العبودية، وأدرك بأن هذه الفترة قد أوشكت على الانتهاء.

لقد آمن فى ذلك الوعد الذى أُعطِى للشعب المختار أنه من بين صفوفه يقوم المخلص الحقيقى، وهذا ايمان ـ يحوطه شئ من الغموض ـ فى المسيا الآتى، ولم يشأ أن يفوت عليه هذا الايمان رغم غموضه. لقد آمن بأن مصيرا مُعيَّنا ينتظر الشعب المختار فى المستقبل

البعيد، يفوق عظمة ومجد فرعون العظيم. لقد آمن بأن أجرا ينتظرهم على حدود مصر، أعظم قدرا وجمالا ومجدا من كل أمجاد مصر. لقد آمن بأن الله سوف يخلصهم على يديه، وهذا ما كان يرجو أن يؤمن به اخوته. هذا هو الذى جعله يعقد هذا العزم.

لو انه تصرف بمقتضى ما كان يرى، لما ترك قصر فرعون قط. لكن ايمانه كان يحدثه عن أشياء خفيت عن معاصريه، وهذه هى التى غيرت مجرى حياته ودفعته ليتصرف بطريقة كانت تبدو أمامهم غير معقولة.

انه لم يغلق عينيه عن مطالب مصر، ولم يقف ثابت الجنان أمام تهديدات فرعون، ولم ينسلخ من قصر فرعون، بدافع من سياسة قوية وحكمة عالمية. لكنه فعل ما فعل لأنه رأى بالايمان ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر. واذ أدرك بأن الكنوز الروحية التى تنتظره أثمن جدا من كل ما يمكن أن تقدمه اليه مصر، ارتضى بسرور أن يسلك فى طريق الآلام، وانكار الذات، والعار، ذلك الطريق الذى يؤدى الى تلك الكنوز.

أيها المؤمن، انظر الى ما تستطيع الوصول اليه، إن كنت فقط تُنكِر ذاتك، وتحمل صليبك. ارسل الجواسيس الى أرض الموعد. اصعد الى قمم الجبال الجميلة، وضع المنظار على عينيك. واذ تبصر ثقل المجد الأبدى سوف تكون مستعدا بأن تحسب كل ما كان يبدو ربحا بأنه نفاية، ولا يمكن أن يقارن بذلك المجد. هل تصعب عليك التضحية؟ لا تنس بأن المسيح معك ليعضدك. لقد سلك ذلك الطريق من قبل. ان هذه الكلمة «**عار المسيح**»(١) تعبر عن مقدار آلام المسيح فى آلام شعبه. هو يعرف كل خطوة فى الطريق، لأنه كثيرا ما جازه اذ كان على الأرض. لا توجد تعزية للنفس الحزينة المتألمة أفضل من أن تذكر بصفة مستمرة اسمه العزيز، وتذكر أنه فى كل ضيقها يتضايق، وأن ملاك حضرته يسير بجانبها.

---

(١) «بالايمان موسى لما كبر أبى أن يدعى ابن ابنة فرعون... حاسبا عار المسيح غنى أعظم من خزائن مصر» (عب ١١: ٢٤و٢٦).

ومن ذا الذى يستطيع أن يُدرِك مقدار النتيجة؟ ان المياه تنفجر من الصخرة لدى ضربها، والزهرة تتفتح من البذرة الميتة، والنهر البلورى يفيض من الصخور الطافية على جبل الجليد، والذهب اللامع يخرج من المنجم الأسود، والنار المطهرة. كان الخروج، وكان مولد أمة من الأحرار نتيجة لهذه التضحية العظيمة.

✝ ✝ ✝

الباب الرابع

الخلاص بمجرد القوة البشرية

«واذا رأى واحدا (من اخوته) مظلوما حَامَى عنه. وأنصف المغلوب إذ قتل المصرى. فظن أن اخوته يفهمون أن الله على يده يعطيهم نجاة. وأما هم فلم يفهموا» (أع ٧:٤٢ و ٥٢).

كانت هنالك بطولة حقيقية فى تصرُّف موسى، عندما نزل عن عرش فرعون لكى يقاسم اخوته آلامهم. كان ممكنا أن يقنع نفسه بارسال امدادات مالية اليهم من خزائن مصر. لكنه رأى أن يعطيهم نفسه، وهذا عمل أعظم وأنبل. واذ فعل هذا لمعت غريزة نفسه الدينية الحقيقية. كذلك استعلن ايمانه، الذى سبق أن اشتعل فى داخله اذ كان يجثو بجوار أمه فى كوخها المتواضع، وتبين أنه تغلب على كل العوامل المضادة التى كانت فى قصر فرعون، كأنه كان جذوة نار تعيش وسط كومة من الفحم.

وفى نفس الوقت كان عليه أن يتعلم دروسا كثيرة! فى الأيام التالية كان منتظرا أن يعرف طرق الرب عندما يعرفه الله إياها (مز ١٠٣ : ٧)، أما فى ذلك الوقت فقد كان عقله ممتلئا من طرقه هو. فى الأيام التالية كان منتظرا أن يكون يدا يستخدمها الله ويشددها (مز ٧٧:٢٠)، أما فى ذلك الوقت فقد كان يعمل من تلقاء ذاته بتسرُّع واندفَاع، وممنطقا ذاته ليذهب حيثما أراد. فى الأيام التالية كان ينتظر أن يكون أكثر الناس حلما ووداعة، شاعرا بضعفه، وطالبا الارشاد والمعونة فى كل خطوة، أما فى ذلك الوقت فقد كان معتمدا كلية على فهمه، مفكرا فى تحرير شعبه بتحكيم ارادته، وتدخل قوته، دون طلب مشورة الله.

آه لقد كانت فيه كل الامكانيات ليكون قديسا، لكنه كان فى حاجة لقضاء السنوات الطويلة فى الوحدة والانتظار والاختبار، قبل أن تتحطم طبيعة الاعتماد على الذات التى فيه، وقبل أن يُصقل ليكون إناءً نافعا لخدمة سيده ومستعدا لكل عمل صالح. إن عمل الله لا يتم إلا على يد آنيته المختارة، وهذه يجب أن تكون معدة اعدادا خاصا للخدمة التى يجب أن تقدمها. وهذا الإعداد الخاص لا يوجد فى طبيعة أى واحد منا، لكنه يأتى فقط بعد سنوات طويلة من التدريب.

(١) المحاولة الأولى للخلاص :

١ ـ لقد نشأت من العطف البشرى. حالما وصل الى جاسان كان أول عمل له «أن خرج الى اخوته لينظر فى أثقالهم»، اذ كانوا يعملون وسط أقسى الصعوبات. فصنع اللبن فى حُفَر الطين الخشنة عملية شاقة جدا وبصفة مستمرة. لكنها كانت أكثر قسوة فى شمس مصر المحرقة، اذ كان الرؤساء يقفون بجوارهم وفى أيديهم السياط ليضربوهم بها اذا حاولوا التخلص من العمل أو التباطؤ. تصور ذلك الرجل الذى تربى فى القصر الملكى، متنعما ومترفها، ذلك الرجل الأديب الذى كان يقوم بأعمال جليلة، تصوره وهو يتحرك وسط صفوف هؤلاء العبيد. لابُد أنه فى بدء الأمر بدا غريبا له جدا أن يكون مرتبطا بربط القرابة بهؤلاء العبرانيين، الذين يشقون ويتألمون ويكابدون أشد أنواع العذاب «خرج الى اخوته». لكن هذا الاحساس لابد أن يكون قد تلاشى فى الحال ليحل محله احساس آخر بالشفقة والحنان، اذ سمع الشعب يتنهدون بسبب عبوديتهم، ويئنون تحت آلامهم المتراكمة، ورَّق قلبه وامتلأ عطفا. لكن، بعد فترة وجيزة، تحول هذا العطف نحو شعبه الى غضب نحو مضطهديهم. وقبل أن يتخذ خطوات كثيرة ذهب الى أحد المعذبين وهو يضرب عبرانيا بقسوة. واذ رأى هذا المنظر البشع، وشهد الضربات القاسية تحل بالجسد المرتعش، الذى لا يحاول المقاومة، لم يتمالك نفسه بعد، بل طرح المصرى على الأرض وقتله، ثم دفنه فى أقرب رمال.

كان هذا عملا من أعمال البطولة، وقد تم بنية حسنة، ويدل على الأقل على قوة العواطف المكبوتة فى داخله. لكن على أية حال لم تكن مجرد عاطفة العطف كافية لكى تدعمه خلال رحلة الصحراء القادمة، التى استغرقت سنوات طويلة شاقة. كان لابُد أن تتلاشى أمام تذمرات الشعب المتكررة. لم يكن ممكنا أن يحملهم كما تحمل المرضعة أولادها، أو يسأل أن يُحذف اسمه من سِفرْ الحياة من أجلهم، أو يتشفع الى الله من أجلهم. لم يكن ممكنا

أن يكفيه ازاء المسئوليات التى كانت ستوضع عليه فى السنوات الشاقة القادمة سوى نعمة الصبر الالهى الذى يملأ نفسه.

ألا يوجد هنا درس ثمين للكثيرين من خُدأَم الله؟ لعلهم لم يتعلموا أن يميزوا بين العاطفة والمبدأ، بين البواعث والقصد الثابت. اذا ما قيلت قصة مؤثرة، أو طلبت مساعدة مالية من أجل موضوع يدعو الى العطف والرثاء، أو ألقيت عظة مؤثرة، وجدت الكثيرين يتأثرون بالعاطفة، ويلبون النداء. لكن هذه العاطفة ليست لها صفة الاستدامة، فإنها سريعا ما تذُبل وتموت. والأفضل أن تضحى مجرد العاطفة الطبيعية، وتستبدل باحساس قوى بما هو حق وبما يطلبه الله. إن تعهدنا بالقيام بعمل معين، لأن الله يدعونا اليه، أو لأنه قد وضع أمامنا كواجب نؤديه من أجل اسمه، أو لأننا آنية تفيض عن طريقها ينابيع رحمته، نكون قد تصرفنا بمقتضى المبادئ التى تحفظنا من الفشل وخيبة الأمل والجمود. طالما كان كل شئ قد تم من أجله، فاننا لن نبالى بالطريقة التى يعاملنا بها البشر.

٣ ـ **وكانت قبل أوانها:** كان لايزال باقيا أربعون سنة على الوقت الذى حدده الله لانقاذ شعبه. لم يكن اثم الأموريين قد تم رغم أنه قد قارب الوصول الى حافة الكأس (تك ١٥:١٦). كانت ثقافته لازالت ناقصة. كان يجب أن تنقضى أربعون سنة على الأقل لتنقيته من اتمام ارادته واعتماده على ذاته، ولتهيئته ليكون اناء نافعا لخدمة سيده. ولم يكن الشعب العبرانى قد وصل بعد الى أقصى حدود آلامهم، السابق الاشارة اليها بكيفية مؤثرة، عندما مات ملك مصر (المحرك الأصيل لاضطهادهم) مما أدى الى أزمة شديدة على ما يبدو، فتركوا الآلهة الكاذبة التى عبدوها ليرجعوا الى اله آبائهم (خر ٢:٢٣).

كلنا نعرف شيئا عن هذا التسرع. اننا لا نطيق أن نبقَى صامتين، مع أننا نعلم أن واعزنا العظيم لا يهدأ حتى يقوم بمهمته (را ٣:١٨). اننا نظن بأن الوقت الذى عينه الله للخلاص لابُد أن يكون قد حل قبل دق الساعة. اننا نعتقد ـ كما فعل شاول ازاء غزو الفلسطينيين ـ بأننا لا نستطيع الانتظار ساعة أخرى، فنحشر أنفسنا لتقديم الذبيحة، ونغتم اذ نرى صموئيل منحدرا عن الجبل ببطء عندما توشك نار المحرقة أن تنطفئ، ونسمع من شفتيه حكم العزل بسبب تسرعنا (١صم ١٣:١٢ ـ ١٤). لعل السيد يقول عنا كما قال مرة عن اخوته «ان وقتى لم يحضر بعد. وأما وقتكم ففى كل حين حاضر» (يو ٧:٦).

ليت الله يعطينا نعمة لنعرف كيف نسهر وننتظر الله حتى وسط كل عوامل النعاس ووقت أشد التجارب. اذا حان الوقت المعين فإن مجهودا واحدا أفضل من ألف مجهود يبذل قبل الأوان. ليس لك يا نفسى أن تعرفى الأوقات والأزمنة التى جعلها الآب فى سلطانه (أع ١:٧). «انما لله انتظرى يانفسى لأن من قبله رجائى» (مز ٦٢:٥). انتظرى على أبواب اريحا حتى تنقضى سبعة أيام. لا تسمعى صوتكِ حتى يقول الرب «اهتفى». وعندما يعطى الاشارة تهتفين هتاف النُصرة، وتجتازين الأسوار الساقطة، وتدخلين المدينة.

٣ ـ **وقد تمت فى فخر وكبرياء القوة البشرية:** كان أمرا طبيعيا أن يظن موسى بأنه يستطيع أن يفعل شيئا لتخفيف آلام شعبه. لقد تعود بصفة مستمرة أن تكون كلمته الكلمة النافذة. كانت جماهير عديدة من الخدم ورجال البلاط تخضع لأقل اشارة يعطيها. لقد صنع لنفسه مجدا عظيما بيمينه القوية. كان يحس بنشاط شبابه وقوته الطبيعية، وانه من أجل هذا يستطيع أن يقوم بعمل جليل، يُخيف الأمة الظالمة بقوة بطشه، فيرحب اخوته به بطبيعة الحال كالمنقذ الذى أرسله الله اليهم.

وكم كان ذهوله فى اليوم التالى عندما خرج ليواصل مهمته، التى فرض نفسه عليها، وشرع فى حسم نزاع بين عبرانيين فخجلاه، ودفعاه عنهما، وقال له أحدهما «من جعلك رئيسا وقاضيا علينا»؟ ولم يكن يتوقع صدمة من اخوته، فقد «ظن أن اخوته يفهمون أن الله على يده يعطيهم نجاة وأما هم فلم يفهموا» (أع ٧:٢٥). كان واضحا اذن أن وقت الله لم يأتِ. ولم يكن ممكنا أن يأتى قبل أن تتبخر حرارة روحه ببطء فى جو الصحراء، وقبل أن يتعلم الدرس الأساسى، وهو أقسى كل الدروس، انه «ليس بالقوة يغلب انسان» (١صم ٢:٩).

كنا نميل الى أن نعزو الكثير من نجاح الخروج الى صفات ذلك القائد العظيم الطبيعية. لكن لنتذكر دواما أنه كان فى بداية الأمر قويا جدا عن أن يستخدمه الله كما حدث مع جيش جدعون. الله لا يعطى مجده لآخر. وهو لا يعطى قوته للبشر الا بعد أن يتضعوا، ويُخلوا أنفسهم، ويشعروا بضعفهم التام. حتى الابن «تعلم الطاعة مما تألم به» (عب ٥:٨) ونزل الى تراب الموت قائلا «أنا دودة لا انسان» (مز ٢٢:٦) قبل أن يقول «دُفِع الى كل سلطان فى السماء وعلى الأرض» (مت ٢٨:١٨). كان لابُد للرسول العظيم أن تكون له شوكة فى الجسد، لتُذكرَّه بضعفه، ويعترف برضائه بها، لأنه حينما يكون ضعيفا فحينئذ، وحينئذ فقط، يكون قويا (٢كو ١٢:١٠).

عندما تمتلئ النفس بالثقة فى ذاتها وفى كفايتها لا يمكن لقوة الله أن تدخل اليها أو تستخدمها لخدمته. عندما نرتضى بأن نُحسَب دودة، وقصبة مرضوضة، وأطفالا صغاراً، جهلاء، ضعفاء، أدنياء، محتقرين، غير موجودين، عندئذ نصبح آنية مستعدة لخدمته.

يجب أن تخلو من كل اعتماد على ذاتك، لكى يبدأ الله بأن يعمل فيك، وعندما نصل الى هذا الحد فانه لا تصبح هنالك حدود لما يمكن أن تصنعه قوة الله اللانهائية فى شخص واحد.

٤ ـ وكانت تخشى دينونة الآخرين لها: يخبرنا الكتاب المقدس أنه «التفت الى هنا وهناك» قبل أن يقتل المصرى، وعندما عرف أنه افتضح أمره خاف وهرب (خر ٢: ١٤و١٥). لكن لو أنه كان واثقا بأن الله أرسله للانتقام من المصريين، لو أنه تحقق من رفقة الله له، لو أنه أدرك بأنه لم يَحِد عن الخطة التى رتبها الله، فهل كان يبالى بمن يتطلع اليه أو بما يُقال عنه؟ لم يكن ذلك ممكنا قط. لو أنه ثبت نظره الى تحرك السحاب الالهى، وركز ذهنه فى إتمام ارادة الله، ولم يحتسب لشئ حتى يتمم خدمته، لما كان يهمه مدح الناس أو قدحهم.

عندما يلتفت الناس الى هنا وهناك لينظروا ماذا يصنعه الآخرون أو يقولون، فثق بأنهم لا يدركون الخطة التى رسمها سيدهم. أنهم أمامه، لكنهم يعملون بواَعزٍ من ارادتهم، ولو كانوا يعملون تحت ستار الغيرة الدينية.

لم تطأ أرضنا الا شخصية واحدة كاملة. انه لم يلتفت الى هنا أو الى هناك. لقد ثَّبت نظره الى اتمام رسالته التى كانت مرتسمة أمامه، دون أن يحيد عنها يمنة أو يسرة. هو وحده الذى استطاع أن يقول «الذى أرسلنى هو معى. لم يتركنى الآب وحدى لأنى فى كل حين أفعل ما يرضيه» (يو ٨ : ٢٩). ليتنا تكون لنا العين البسيطة لكى يكون كل الجسد منيراً.

(٢) الهروب الى الصحراء :

وصلت أبناء محاولة موسى الأولى الى أذنى فرعون، وطلب أن يقتله. لكن موسى خاف وهرب من وجه فرعون. وبعد عدة سنوات، وفى ظروف مماثلة، قيل عنه انه «ترك مصر غير خائف من غضب الملك» (عب ١١: ٢٧). واذا ما تساءلنا عن سبب عدم خوفه أدركنا

أنه فعل هذا بالايمان «لأنه تشدد كأنه يرى من لا يرى». لكن ان كانت هذه هى حالته فى الظروف الأخيرة، فلماذا لم تكن حالته مماثلة فى الظرف الأول الذى نحن بصدده؟ لماذا لم يؤمن بالله الذى لا يُرَى؟ لماذا لم تكن حالة قلبه مماثلة فى الظرفين؟ إن السبب واضح.

أن الايمان ممكن فقط عندما نكون منفذين خطة الله، ومرتكزين على مواعيده. وعبثا نطلب أن يزيد ايماننا الا أن أتممنا شروط الايمان. وعبثا أيضا أن نقضى الوقت فى التأسف وسكب الدموع بسبب السقطات التى تعزى لعدم ايماننا. «فقال الرب ليشوع قم. لماذا أنت ساقط على وجهك»؟ (يش ٧: ١٠). الايمان طبيعى لحالة النفس القويمة، كما أن الزهرة طبيعية للنبات.

وأول تلك الشروط هو هذا : تأكد من وضعك فى خطة الله واستمر فيه. والشرط الثانى: لتكن مواعيد الله غذاءك المستديم. عندما يتحقق هذان الشرطان يأتى الايمان من تلقاء ذاته، ولا يبقى شئ مستحيلا بعد. النفس المؤمنة تقول «أستطيع كل شئ» فى الله، لأنها تسير فى طريق الله، وعن طريقها يتصل الله بالبشر فى المحبة والنعمة والحق.

لكن موسى لم يشأ أن يلتقى بالله. بل هرب، وعبر الصحراء الكائنة بينه وبين الحدود الشرقية، واجتاز الطرق الجبلية فى شبه جزيرة سيناء، التى كان يجب أن يقود فيها شعبه فى السنوات التالية. وأخيرا، بعد أن أنهكه التعب، جلس عند بئر فى أرض مديان.

هنالك ظهرت فجأة روحه الوثابة المقدامة، اذ تدخل لصالح بنات كاهن مديان اللاتى يبدو أنهن كن يعانين يوميا من وقاحة الرعاة اذ كانوا يأخذون لغنمهم المياه التى كن يستقينها لغنمهن. فى ذلك اليوم لقى هؤلاء الحمقى من يصدهم، فاضطروا لترك أجران المياه للفتيات اللاتى أسرعن فى العودة الى بيتهن مبكرات عن المعتاد ليخبرن، بحماسة البنات، عن المصرى الذى أنقذهن من أيدى الرعاة. كانت هذه خدمة طيبة لم يكن من اللائق أن تترك دون مكافأة فى تلك الأرض الكريمة. ومن أجل هذا استضاف الكاهن هذا المصرى. وأخيرا تزوج موسى باحدى هؤلاء البنات اللاتى كن يرعين الغنم. وأخيرا عاش حياة هادئة فى رعاية الغنم فى ذلك الفضاء الفسيح بتلك الأرض الجميلة التى طالما كانت مدرسة سماوية لتدريب خدام الله.

مثل هذه الاختبارات قد نجوزها أجمعين. وبتسرع نتقدم ظانين أننا سنكتسح أمامنا

كل شئ، ثم نضرب ضربات قليلة لكنها بدون جدوى، واذ نصاب بالفشل نتراجع الى الوراء، ويملأ الخوف قلوبنا عندما نسمع من البشر كلمة استهجان، ونهرب من المكان الذى منينا فيه بالفشل لنختبئ فى غم وكمد وحزن. عندئذ نختبئ فى ستر وجه الله من مكايد الناس (مز ٣١:٢٠). وهنالك تظهر لنا رؤى واضحة جلية، وتتطهر النفس من كل رواسبها، وتموت محبة الذات، ونشرب من نهر الله الملآن ماء، ويتعمق ايماننا، وتستعلن فيه قوة الله، وأخيرا نبرز ليستخدمنا فى قيادة الخروج.

«هذا أيضا خرج من قبل رب الجنود. عجيب الرأى عظيم الفهم» (اش ٢٨:٢٩).

✝ ✝ ✝

الباب الخامس

المحاورة العجيبة

«ناداه الله من وسط عليقة
وقال: موسى موسى. فقال هأنذا»
(خر٣:٤)

يوم خالد: هنالك أيام فى حياة كل واحد تأتى دون أن تسبقها مقدمات أو اعلانات، ولا يظهر ملاك من السماء، ولا يسمع صوت ملاك. ولكن حينما نحاول التطلع الى أيام الحياة العادية السابقة لها، يشهر الملاك السيف ويمنعنا من الرجوع، ويضطرنا الى التقدم للأمام، هذا ما حدث مع موسى.

عندما أشرق ذلك الصباح كان صباحاً عادياً كأى صباح، الشمس أشرقت كعادتها على الرمال الفسيحة الأرجاء، أو فوق الجبال المحيطة. فى بداية ذلك النهار القصير أشرقت الشمس وكان الجو صافياً، وامتدت الظلال طويلة فوق السهول، وإذا انتصف النهار اشتدت الحرارة فى تلك السهول. كانت الغنم ترعى كالمعتاد فى العشب الضئيل، أو ترقد لاهثة فى ظل صخرة كبيرة. لكن لم يكن فى تصرفها شئ يثير الفكرة بأن الله قريب. كانت الجبال الشامخة، والسماء المنبسطة، والصمت الرهيب الذى لا يقطعه سوى غناء عصفور أو همهمة حشرة، وشجيرات السنط الذابلة فى الشمس المحرقة، كانت هذه كلها فى نفس الحالة التى كانت عليها منذ أربعين سنة، وفى نفس الحالة التى كان ينتظر أن تكون فيها بعد أن يرقد موسى فى قبره المجهول.

وفجأة بدأت عليقة (شجيرة) تضئ بلمعان شديد، رمزا لحلول اللاهوت فيها. ومن وسط النار المشتعلة فيها قطع صوت الله صمت الدهور الرهيب بكلمات وقعت على أذنىَّ ذلك الراعى وقعاً غريباً «موسى....موسى».

ومنذ تلك اللحظة تغيرت حياته كلها. وذلك الباب الذى ظل سنوات طويلة تحت الاصلاح، وُضِعَ فى مكانِه المضبوط ثانيةً. وأصبح مفتوحاً. وذلك الهدوء الشامل، مع ما

يتبعه من وقت الفراغ الطويل، الذى كان يقضيه فى تأملات عميقة، وذلك الاختباء من مخاصمة الألسن (مز ٣١: ٢٠)، وتلك التقوى البسيطة فى بيته (حيث كان كاهن مديان يمارس خدمته، وحيث كانت صفورة ترحب به مع أولاده اذ كان يعيد غنمه الى حظيرتها) - كل ذلك اختفى فجأة كما تختفى قطعة أرض اذ تغوص تحت المحيط. وخرج دون أن يعلم تماماً الي أين يذهب، لكنه كان يعلم فقط أنه لا يليق به أن يعاند الرؤيا السماوية، أو يرفض الصوت الذى تكلم.

لا يزال ذلك الصوت يتكلم مع كل من تصمُت قلوبهم لتُصغِى. لا يزال اله الأجيال السابقة يعلن إرادته للأذن المقدسة، فى خطاب يصل الى المرء، أو كتاب أو صحيفة يقرأها، أو فى جمال سيرة شخص تقى، أو فى استعادة ذكري جميلة، أو فى صوت أحد المعلمين. ولن تصل حياتنا الى ما يجب أن تكون إلا بعد أن تتأكد بأن لله خطة مرسومة لكل ساعة فيها، وأنه ينتظر بأن يعلن تلك الخطة للقلب المحب المطيع، ويُعرِّفها لنا بإحدى ربوات الخدمات المحيطة بنا.

لقد تعودنا - بكيفية لا شعورية - بأن نفكر فى الله، بأنه هو إله الأموات، الذى كلم الآباء بالأنبياء، مع أن هذا اللقب العزيز «أنا هو» يشير إلى إله الأحياء، الذى يجوز فى شوارعنا المزدحمة، ويحوم فوق الصحارى الفسيحة، ويبحث عن القلوب التى تكف عن خططها ومشاغلها، وتصمُت لكى تُصغى.

والنقطة الجوهرية التى يحتاجها كل منا هى أن يكون قادراً على إجابة ندائه بهذه الإجابة «هأنذا». قد يبدو بأن فترة الانتظار طالت، وأن اليوم الذى طال انتظاره قد أبطأ مجيئه، وأن القلب قد مرض بسبب ضغط ازدحام الأيام العادية، ودبت فيه عوامل اليأس.

لكن تأكد بأن فرصتك آتية أخيراً. كن على أهبة الاستعداد بصفة مستمرة. لا تسمح قط بأن تكون أحقاءك غير ممنطقة، أو سرجك غير موقدة. لا تسمح قط بأن ترتمى فى يأس وقنوط بجانب النهر وتشرب بكسل من مياهه الصافية.

سوف يأتى فى ساعة لا تنتظرها. وياله من فرح جزيل عندما تستطيع أن تجيب نداءه قائلاً: «هأنذا» . إن جاءت مثل هذه الدعوة اليوم تطلب الكثيرون جداً منا مهلة، ولو برهة

واحدة، لإتمام واجب أهملوه. ليت الرب يهبنا الروح الحرة غير المرتبكة غير المقيدة، لكى نكون مستعدين فى كل لحظة للذهاب الى حيث يريدنا الله.

إعلان عجيب:

من العليقة خروج صوت الله، يحمل فى طياته الماضى والحاضر والمستقبل فى عبارة واحدة عجيبة. الماضى: «أنا إله أبيك إبراهيم وإله اسحق وإله يعقوب». الحاضر : «أنى قد رأيت مذلة شعبى الذى في مصر، وسمعت صراخهم من أجل مُسخِرِّيهم. أنى علمت أوجاعهم. فنزلت لأنقذهم». المستقبل: «فالآن هلم فأرسلك الى فرعون» (خر ٣: ٦- ١٠).

أننا اذ نتأمل فى هذه الكلمات تبرز أمامنا أفكار عميقة رائعة، خليق بنا أن نقدمها بقوة لكل مؤمن لاسيما لخدام الرب. كلنا نميل بأن نجرى قبل أن نرسل، كما فعل موسى بمساعيه الأولى التى توفرت فيها النية الحسنة، لكن الوقت لم يكن حسناً. ومن تلقاء ذواتنا نضع أيدينا على العمل الذى يتطلب الاتمام، ونطلب المعونة من الله، ونسير سيراً حسناً - بقوة دفع نشاطنا - على الأقل يوماً واحداً، لكننا فى الغد، عندما نتلقى التأنيب والتوبيخ، وعندما تقوم الصعوبات، كما حدث مع موسى، وتخور عزائمنا وننبذ العمل كله، نهرب ملتجئين الى عزلة الصحراء.

أما الذين تعلموا أن ينتظروا الله، فإنهم يتصرفون عكس هذا المجهود العقيم غير المثمر. وهذا الفشل الذريع. فإنهم عندما يحين الوقت يسمعونه يقول «نزلت... فالآن هلم فأرسلك». ومن تلك اللحظة لا يتصرفون من تلقاء أنفسهم، بل يعتبرون أنفسهم مجرد آلات فى يد الله، ليستخدمهم في إتمام خطته.

وماذا يكون موقفهم إزاء الصعوبات التى يلقونها؟ أنهم يتوقعونها بدون اضطراب، ويجوزونها بدون خوف، ويعتقدون أن الله رأى كل شئ مقدماً، قبل أن يُهيِّئ العمل. لابُد أنه يستطيع أن يشق طريقنا فى القفر، الذى يبدو أنه لا طريق فيه. لابُد أنه يعرف باباً فى الصخور التى يبدو أنه لا يمكن فتحها.

وعلى أيه حال، فإن المرء الذى اختاره الرب ليس عليه إلا أن يسير معه، ويكون مستعداً لإتمام أية مهمة يطلبها، سواء كانت المهمة هى مخاطبة الملوك، أو رفع العصا، أو النُطق

بكلمة الرب. هذا هو كل المطلوب. وبعد ذلك ينتظر المرء صامتاً ليرى كيف يشق الرب طريقاً فى البحر بسهولة؟ وكيف يُهيِّئ مائدة فى البرية؟

أناة الله وسط العوامل المثيرة: فى حماسة الشباب تعّجل موسى فى محاولة تحرير شعبه بضرب المصريين بيمينه. لكن بعد ذلك، اذ اقترح الله أن يرسله ليقود شعبه فى «الخروج»، فقد تراجع خائفاً جداً، وكاد قلبه يتجمد بسبب الخوف. وهذا يليق بالطبيعة البشرية. فالطالب الذكى فى مدرسته يظن أنه يعرف كل شئ يمكن تحصيله فى أى فرع من فروع العلم. لكنه بعد عشرين سنة يرى نفسه أنه لم يدرك حتى مبادئه الأولية، رغم أنه لم يكف عن الدرس طول تلك المدة. والمؤمن الذى يبدأ حياته بالحديث بأنه «أصغر القديسين» يختمها بالقول أنه «أول الخُطَاة». وموسى الذي جرى أمام الله فى تعجل مذموم تلكأ خلفه فيما بعد خَائِر القُوىَ.

١- كان هذا هو اعتذاره الأول «مْن أنا حتى أذهب الى فرعون؟» هذه العبارة تنطوى على شئ غير التواضع. أنها لم تنم عن تحقيره لنفسه، الأمر الذى لا يتفق مع الإيمان الحقيقى فى اختيار الله له، وتعيينه لتلك المهمة. يقيناً أنه من اختصاص الله أن يختار آنيته الخاصة. وعندما نقتنع بأننا سائرون فى إتمام قصده، فليس لنا الحق أن نتساءل عن الحكمة في اختياره إيانا. هذا معناه انتقاص حكمته، أو الشك فى قدرته، أو فى استعداده لسد أعوازنا.

أما الله «فقال أنى أكون »، أنا الذى يضئ مجدى هنا، أنا الذى لا أضعُف بمرور الأجيال كما أن هذه النار لا تضعف بالاشتعال. أنا الذى لا احتاج الى معونة من البشر، كما أن هذه النار لا تحتاج الى وقود. أنا الذى جعلتُ الآباء السابقين ماكانوا عليه، أنا الذى لى طبيعة غير قابلة للتغيير، إنى أكون معك».

ياله من تأكيد وجده موسى فى هذه الكلمات. ومع ذلك فإننا إن دُعّينا للقيام بأية مهمة جديدة استطاع كل واحد أن يستمع الى مثل هذه الكلمات. لقد دعينا الى شركة ابن الله. أنه قد «مات لأجلنا حتى اذا سهرنا أو نمنا نحيا جميعاً معه» (افسس ٥: ١٠). هو معنا كل الأيام والى انقضاء الدهر.

هو لا يتركنا ولا يُهْمِلنا وهو يقول لكل واحد: «لاتخف، إننى معك. أنا الذى لا أتغيَّر، وبدون إذنى لا يسقط عصفور على الأرض. لقد أعطى، الىَّ كل سلطان فى السماء وعلى الأرض. لا تمر عليك ساعة دون أن أكون في رِفْقَتك. لا تجوز صعوبة دون أن أتعاون معك. لا تواجه البحر الأحمر دون أن تمتد يمينى. لا تسير مسافة فى البرية دون أن يرافقك ملاك حضرتى. تهل علينا الأيام مختلفة بعضها عن بعض، فى بعض الأحيان نستقبل الصباح فنجد الشمس مشرقة، وفى أحيان أخرى نستقبله فنجد السماء ملبدة بغيوم قاتمة. فى بعض الأحيان يواجهنا مأتم، وفى أحيان أخرى حفل زفاف. فى بعض الأحيان نعيش فى رخاء، وفى أحيانٍ أخري نعيش فى ذل وفقر. لكن لا شئ يستطيع أن يفصلّنا عن رفيقنا الإلهى - لا شئ سوى الهَّم الذى بلا مبرر، أو الخطية التى نسمح بها.

٢- وفى الاعتذار الثانى، اعترف موسى بعجزه عن الإجابة إذا ما سُئِل عن اسم الله(ع١٣). فكانت إجابة الله له أن أعلن له ذلك الاسم العجيب **«أهيه الذى أهيه»**(١). هنا نجد وحدة الله، بعكس تعدد آلهة المصريين. هنا نجد عدم تغير الله الذى لا يعرف الماضى والمتسقبل، بل يعيش فى الحاضر من الأزل وإلى الأبد. هنا نجد اكتفاء الله الذاتي، الذى ليس له نظير. لا توجد تسمية أخرى تستطيع أن تصفه. مهما ذكرت من أسماء فيجب أن نعود الى هذا الاسم الواحد - الله هو الله.

لم يكن هذا الاسم مجهولاً جهلاً تاماً من موسى، فقد كان يتدخل فى اسم أمه «يوكابد» أى «الرب مجدى». أما وقتئذ فقد استخدم لأول مرة، كتسَّمية وحيدة، يُعرف بها الله فى اسرائيل. وقد شق طريقه تدريجياً فى ايمان الشعب. وحيثما استخدم نم عن صفات طبيعة الله كذاتى الوجود، وكفادٍ. وهو بصفةٍ دائمة يتدَّخل فى إسم مخلصنا العزيز يسوع.

كان هذا الاسم هو باعث الحياة فى كل حياة موسى التالية، وحياة بنى اسرائيل. فى كل تاريخ حياتهم كان يِّرن فى آذانهم برنين مُحبباً ذلك الفْكر. وهو ماذا كان لهم. الله فى الماضى، وماذا يمكن أن يكون لهم فى الحاضر والمستقبل.

---

(١) أى «أكون الذى أكون» حسب هامش الكتاب المقدس، أو «أنا هو الكائن» حسب ترجمة اليسوعيين، أو «أنا هو» حسب الترجمة الانكليزية.

أما لنا نحن، فهذا الاسم ملئ بالمعانى. لقد قال الله «هذا اسمى الى الأبد، وهذا ذكرى الى دور فدور» (ع١٥). وإذ ينكشِف أمامنا معناه الكامل، فكأن الله قد وضع فى أيدينا تحويلاً (شيكا على أحد البنوك) على بياض، وترك لنا أن نملأه كما نريد. هل نحن نعيش فى ظلام؟ فلنضف على قوله «أنا هو» هاتين الكلمتين «**النور الحقيقى**». هل نحن جياع؟ فلنضف هاتين الكلمتين «خبز الحياة». هل نحن بلا حماية؟ فلنُضِف هاتين الكلمتين «الراعى الصالح». هل نحن متعبون ومجهدون؟ فلنضف هذه الكلمات «شيلوه، واهب الراحة». «فإنه فيه يحل ملء اللاهوت جسدياً. وأنتم مملوءون فيه» (كو ٢: ٩ و١٠).

٣- أما اعتذار موسى الثالث فقد كان أن الشعب لا يُصدّقُونَه ولا يسـمعون لقوله (خر ٤: ١). لكن الله تحنن عليه، وأجاب على هذا الاعتذار بأن أظهر له بعض المعجزات التى يمكنه اجراؤها فى مصر، والتى تحمل الى نفسه دروساً عميقة. «فقال له الرب ما هذه فى يدك؟ فقال «عصا». والأرجح أنها كانت مجرد عصا راع. ياله من مستقبل مجيد كان ينتظرها. كانت سوف تمتد الى البحر الأحمر لتشق طريقاً فى أعماقه، وتمتد لتضرب الصخرة الصوان، وتأتى بنُصَرَة على جيش عماليق، وتعرف بهذا الاسم «عصا الله».

عندما يطلب الله آلة لخدمته فإنه لا يختار صولجانا ذهبياً، بل مجرد عصا راع، أضعف وأحقر وسيلة يجدها. قرن كبش (إش ٦: ٤)[١]. رغيف خبز شعير (قض ٧: ١٣)، منساس البقر (قض ٣:٣١)، آنية خزفية، مقلاع راع. أنه يستخدم لتفتت الجبال وتجعل الاكمام كالعصافة (القشة) (اش ٤١: ١٤ و١٥). إن عصاً يدُعّمها الله أقوى من أعظم أسلحة الجيوش.

وبناء على أمر الله طرحت العصا على الأرض، فصارت حية. لقد لعبت الحية دوراً هاماً فى هبادة المصريين. وإذ زحفت الحية على الرمال، وسعت الى أذية موسي، هرب منها. وكان ذلك رمزاً الى قوة مصر التى هرب منها.

وبناء على أمر الله، صارت عصاً فى يده مرة أخرى فى الحال لما أمسك بالوحش السام من ذنبه بلا خوف. وهكذا أراد الله أن يدرب إيمانه. فإن تجاسر بأن يفعل ما أمره به الله خضع له فرعون وكل كهنته وكل قوات الامبراطورية المصرية، كما خضعت له الحية.

---

(١) أو قرن هتاف.

أما العلامة الثانية فكانت أكثر أهمية، فإنه إذ أدخل يده فى عبه صارت برصاء مثل الثلج. وإذ أخرجها عادت مثل جسده، وتطهرت من البرص. كأن الله قد أجابه عن شعوره بنجاسته الأدبية، وأعلمه بأنه يمكن أن تزول بسهولة بنعمته الغافرة كما تطهرت يده.

أما العلامة الثالثة التى وعد بها أن تصير مياه النيل دماً على اليابسة فكانت تحمل شؤماً مزعجاً لآلهة تلك البلاد القوية، التى كان شعبها يعتمد كليةً على نهرها، وكانوا يعبدونه كإله.

وخليق بنا أن نتأمل فى هذه العلامات البارزة. هل نحن مجرد عصى، وعصى كانت يوماً ما حيات؟ فلندرك بأن الله يستطيع أن يفعل بنا أعمالاً جليلة، إن كنا فقط نرتضِى بأن يمسكنا بيده. هل نحن مدنسون ببرص الخطية؟ أننا نستطيع أن نتطهر إن مسّتنا يده المقتدرة. هل أعداؤنا كثيرون؟ إنهم أعداؤه فى نفس الوقت، وهو له السلطان المطلق أن يبطش بهم.

٤- **أما الاعتذار الأخير الذي قدمه موسى:** فكان أنه ثقيل الفم واللسان: «استمع أيها السيد. لسُت أنا صاحب كلام. أنا ثقيل الفم واللسان» (ع ١٠). لعله كان لا يسعفه الكلام بسرعة، لأنه لم يكن سريع البديهة. لكن الله، بنعمته وصبره ارتضى أن يسد هذا النقص أيضاً. ولو كان موسي قد ارتضى أن يثق فيه لكان قد أضاف الى مواهبه الأخرى البارزة موهبة الكلام البليغ المقنع. «فقال له الرب مْن صنع للانسان فما؟ أو مْن يصنع أخرس أو أصم أو بصيراً أو أعمى؟ أما هو أنا الرب؟ فالآن اذهب وأنا أكون مع فمك، وأعلمك ما تتكلم به» (أع ١١و ١٢).

لكن موسى لم يصدق. فاحتدم عليه الغضب الإلهى أخيراً، وأنهى الرب الحديث بقوله أنه سيرسل معه هرون لكى يكون له رفيقاً، ويتكلم بإسمه. آه لقد كان خيراً له ألف مرة أن يثِق فى الله بأن يعطيه موهبة الكلام، من أن يخسر مركز الرئاسة. فقد كان هرون هو الذى صنع العجل الذهبى، وتصرَّف بحماقة فى إسرائيل، وصار شوكة فى جنب هذا القديس العظيم، موسى. ولعل هرون كان يسترّعى التفات معاصريه أكثر من موسي، وكانوا يعزون إليه الفضل فى ذلك الخلاص العظيم أكثر من موسى.

٥- الموافقة الأخيرة: كانت تنطوى على كثير من التذمر «فقال استمع أيها السيد. أرسل بيد مْن ترسل». وكأنه قد قال له : طالما كنت مُصرَّاً على أن ترسلنى، وطالما كنتُ أنا ملزماً بأن أقوم بهذه المهمة، فليكن كما تريد، لكننى كنت أفضل أن ترسل غيرى. ولذلك فسأذهب، لأننى مضطر للذهاب.

كثيراً ما نهرب من التضحية التى يدعونا الله إليها، أو الواجب الذى يضعه علينا، متوهمين بأننا سوف نذهب إلى هلاكنا. وكثيراً ما نتلمس كل المعاذير لكى نهرب من إتمام إرادة الله، دون أن نُدِرك أنه إن كان يدفعنا من بيوتنا الهادئة فهو إنما يقصد لنا مستقبلاً جليلاً يتضمن - ضمن ما يتضمن من أمور أخرى - هتاف النصر على شاطئ البحر الأحمر، ومعاشرة الله فى المرتين الوحيدتين فى تاريخ البشرية، لمدة أربعين يوماً فى كل مرة، والوجه اللامع، ورؤية المجد، والدفن بيد رئيس الملائكة ميخائيل. والمجد الرفيع عند الوقوف بجانب الرب على جبل التجلّى.



الباب السادس

إلى أرض مصر

«فأخذ موسى امرأته وبنيه ورجع الى أرض مصر. وأخذ عصا الله في يده»
(خر٤:٢٠)

خمدت النار من العُلَّيقة. وانطفأ النور الإلهى من نور الشمس، وسكت الصوت، وتلفت موسى حوله إلى الغنم التى ترعى، وإلى الجبال الشامخة، بتعجب كإنسان يستيقظ من نومه. كانت هذه هى أسمَّى ساعة فى حياته. كانت كل السنوات السالفة تمهد لها، وكل السنوات القادمة تبدأ منها.

(١) الخطوات الأولي نحو الرجوع:

لقد استعد موسى لإطاعة الرؤيا السماوية ببطء، وبتفكير عميق، وربما بألم. وإذ جمع غنمه ذهب بها من البرية الفسيحة الموحشة الهادئة الى مديان، مقر جماعته، حيث يختلط فيها بالبَشر مرة أخرى. «فمضى موسى ورجع الى يثرون حميه».

وإذ صاهر موسى تلك القبيلة، التى كان يثرون رئيسها، فقد أخضع نفسه لتلك العادات القديمة التى لازالت باقية لدى سكان الصحراء دون أن تتغير، مثلها فى ذلك مثل عالم الطبيعة المحيطة بها. كانت تتضمن إحدى تلك العادات أنه إن أراد أحد أعضاء القبيلة القيام برحلة بعيدة تقتضى طول غيابه عن المحلة، وجب أن يطلب الإذن أولاً. من أجل ذلك طلب موسى هذا الإذن. «ورجع الي ثيرون حميه. وقال له «أنا أذهب وأرجع الى إخوتى الذين فى مصر، لأرى هل هم بعد أحياءً»؟!

والأرجح أنه لم يذكر شيئاً عن الرؤيا التى رآها، ولا عن المهمة التي أوكلت إليه، وكان هذا تحفظاً نبيلاً. إننا ننال قوة روحية عندما نتجَّنب الحديث عن اختباراتنا مع الرب. طبيعى أنه يتحتم التحدُّث عنها فى بعض الأحيان، لكى نفسر أسباب تصرفاتنا، أو لإعطاء الفرصة لغيرنا للاقتداء بنا في اختباراتنا. لكننا إن تحدثنا عنها - بصفة مستمرة - فقدنا جدة ولذة عشرتنا الداخلية مع الله.

ليس من طبيعة المحبة العميقة أن تكشف كل ملذاتها ومباهجها لمن لا يُبالون بها. خير للبشر أن يروا ثمار ونتائج مثل هذه العِشرَة الجميلة، ويتغذوا عليها، من أن يُسمح لهم بدراسة أسرارها الداخلية. وهكذا طلب موسي مجرد الأذن للرحيل، متخذاً نفس الطريق التى سلكها منذ أربعين سنة.

لابُد أن يكون طلب الإذن قد سَّبب تعجُباً وألماً لكل الأسرة. أنهم لم يشكوُّا قط فى حنين قلبه إلى تلك الأرض البعيدة، التى كان شعبه مُستعَبداً فيها. لقد كانوا يعتقدون أنه أصبح واحداً منهم. وكان الأمر يتطلب أن تذهب معه زوجته والأولاد والابن الحديث الولادة. وعلى أية حال، فإنه لم تقم فى وجهه أية عقبات، وأُعِطى الإذن المطلوب بهذه العبارة الوجيزة «اذهب بسلام».

على أن موسى تباطأ حاى فى ذلك الوقت. لقد كان للأربعين سنة تأثيرها حتى أن روحه الوثابة المتعجلة قد تلاشت، وذاك الذي تسرَّع سابقاً وركض أمام الله نراه الآن يتباطأ خلفه. ولم يتعجل قط فى الذهاب. أكان ذلك لأنه خشى متاعب ازدحام السكان فى الأرض التى سيذهب إليها؟ أكان لأنه بدأ يحس بضغط الشيخوخة التى تتطلب عدم الإجهاد؟ أكان لأنه أحب سكون وهدوء الصحراء، والحياة وسط تلك الجبال الشامخة، فلم يشأ أن ينتزع نفسه من بينها؟ أكان لأنه خشى على حياته من غضب الملك وحاشيته؟ إننا لا نستطيع أن نعرِف السبب على وجه التحديد، لكن النقطة الجوهرية الوحيدة هى أن نلاحظ التغيير العجيب الذى حدث في حياته الداخلية. وكيف كان يميل الى التَروِي وضبط النفس، والتحفُّظ من باب الاحتياط. كانت هذه الصفات تنمو فيه حتى تطلَّب الأمر أن يرسل الله إليه دعوة أخري «وقال الرب لموسى فى مديان اذهب ارجع الى مصر، لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك» (ع ١٩).

واذ أثرَّت فيه هذه الدعوة الثانية - كما تأثر ابراهيم بالدعوة الثانية التى أتته بعدما مات أبوه تارح - استعد للذهاب الى مصر. كان الموكب بسيطاً جداً، وهو ليذكرنا بموكب آخر مماثل له فى البساطة، ولكنه جاء بعده بعدة أجيال، ليذهب الطفل يسوع الى مصر أيضاً، ويسلك جزءاً من نفس البرية.

لكن موسى ذهب «أمينا فى كل بيته كخادم»، أما الطفل الذى حملته القديسة مريم العذراء فكان هو الابن الذى بنى البيت، والذى أتى ليسكن فيه الى الأبد (عب ٣: ١ - ٦).

لاحظ ترتيب الموكب. جلست صفورة على الحمار، ولعلها كانت ترضع طفلها حديث الولادة، أما زوجها فكان يسير بجانبها، وفى يده العصا المقدسة، ولم تكن سابقاً سوى مجرد عصا راع. أما الآن فقد أصبحت عصا الله. وكان ينتظر أن يستخدمها فى صنع قوات عظيمة، كما كانت تُذكِّره دواماً بما يستطيع فعله أى شئ ضعيف إن أمسكته يد الله.

فى هذه الرحلة حدثت ثلاثة أحداث.

(٢) رؤيا أخرى. «وقال الرب لموسى....» (ع ٢١). وبعد ذلك سرد الرب ملخصا لعدة حوادث تتم فى الشهور القادمة، من تحويل الماء الى دم الى قتل كل بكر فى أرض مصر.

كان هذا يتفق مع مبدأ من أهم المبادئ فى الحياة الروحية والحياة الأدبية، وهو أننا لا نتعلَّم إلا عندما نسعى لكى نطيع. والنور يُعطَى إلينا لكى نعرف كيف نخطو الخطوة التالية فقط لا أكثر. هوذا شعاعة من النور قد أضاءت فى الظلمة، لتضئ لنا الطريق. هل نخطو هذه الخطوة؟ إننا نتردد لأننا لا نستطيع أن نرى الخطوة التالية والخطوة الثالثة، أو لأننا لا نستطيع أن نجد المبرر، ولا نقتنع بأن نعمل بما يُملِّيه علينا الواجب الذى أمامنا، أو لأننا نخشى الآلام المريرة التى تُهدّدنا. لكن طالما كنا نرفض بأن نعمل، فإن النور لا يمكن أن يتزايد، بل يبدأ حتماً بأن يتضاءل. إن الطاعة هى الشرط الوحيد اللازم لكى يتزايد، بل لكى يستمر.

ربما تكون فى ظلام، كذلك الظلام الذى أحاط بالملك شاول قُبيّل إنتهاء مُلكِه المُتعِب حينما «لم يجبه الرب لا بالأحلام ولا بالأوريم ولا بالأنبياء» (١صم ٢٨: ٦). لقد مضى عليك وقت طويل لم تسمع فيه صوت الله، ولا رأيت وجهه. لكن السبب هو نفس السبب الذى اختبره شاول، وهو عدم الطاعة. لقد أهملت أن تُتمّم وصية الله. لقد عصيت كلمة الرب الواضحة. وأنك لن تعود الى اختبار عشرة الله الحلوة، حيث ترى ابتسامة وجهه، وتسمع صوته العذب قبل أن تعود الى المكان الذى عصيت فيه الله. واذ ترجع عن عصيانك تتمم مايُحقق إرادة الله، وما تأمرك به كلمته. واذ تبدأ بأن تُطيع تعود مرة أخرى بأن تستمع الى صوت الله الحلو.

(٣) **خدمة تمهيدية.** يبدو أن موسى، إذ كان هو وقافلته في الخان فى الطريق، باغته مرض فجائى خطر، ووصل الى حافة الموت. ويالها من تجربة غريبة ومريرة أن يموت مخلص اسرائيل فى ضوضاء خان شرقى. كان معنى هذا أن تتوقف دعوته، وأن تعود زوجته الى عشيرتها أرملة، وأن يتَّيتم أولاده، وأن يظل شعبه يُعانى ذل العبودية. لكن وسط رعبة تلك الساعة استيقظ الضمير وعمل عمله، وفتش مكامن قلبه بنوره الوهاج، ما أكثر المرات التى فيها اختبرنا معاملة مماثلة من يد الرب. لقد قضينا كل الليل ونحن نتقلب على الجمر، لقد كادت الآلام تصل بنا الى الجنون، لقد وصلت بنا الأحزان الى أقصى حدودها. واذ رفعنا عيوننا المتعبة الي الله، وسألنا عن سبب هذه المحنة الشديدة، جاءت الإجابة بأننا تذكرنا خطية خفية أو واجباً أهملناه.

يبدو أن موسى ـ لسبب ما ـ أهمل فريضة الختان فى أحد أبنائه، ولعله هو المولود الجديد. وربما كان السبب هو أن صفورة لم تشأ. فرضخ لها موسى. لكنه ـ كرب البيت ـ كان هو المسئول الأول عن إهمال هذه الفريضة. إننا لا نستطيع أن نتنصل من المسئوليات التى يضعها الله نفسه على أكتافنا، لا يستطيع الزوج أن يضعها على الزوجة، ولا تستطيع الزوجة أن تأخذها من الزوج، وإذ وازن موسى الأمر بين الحياة والموت، تذّكر أنه قد أهمل هذه الفريضة، فأضطر بأن يُصِرّ علي إتمامها.

كان هذا أمراً تافهاً نسبياً بحسب النظرة البشرية، ومع ذلك ففى معاملاتنا مع الله لا يوجد أمر تافه. هنالك مبادئ عظيمة تنطوى عليها أتفه الأعمال، كما تدور الكبارى الضخمة على محاور صغيرة جداً. قد تكون محبة الذات فى بعض الأحيان كامنة وراء أمر تافه أكثر مما تكون وراء أمر عظيم.

هكذا ظل موسى منتظراً على عتبة مهمة حياته العظيمة، لإهمال ختان طفل صغير.

ربما نكون قد أُرسِلّنا لإتمام خدمة عظيمة له، ومع ذلك نكون قد تنصلنا من واجب صغير. فتصبح عدم طاعتنا معطلة لتقدمنا ونجاحنا كما تفعل الحصاة فى حذاء السائح. ينبغى أن نتعلم هذا الدرس الجوهرى: وهو أن تصرفاتنا فى أعمال الحياة العادية تحدد مصيرنا. وأن الروح التى نتمم بها هذه الأعمال العادية هى ا لتى تؤثر على كل مستقبلنا، فإما أن تُصيَّرنا محررى شعبنا، أو تصيرنا جثثاً مُنتنه على وجه الرمال.

هنالك عبارة هامة جداً فى نبوة عاموس، يقول الله فيها «إياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض، لذلك أعاقبكم على جميع ذنوبكم» (عا ٣: ٢). كلما كنا أعزاء فى نظر الله زادت عنايته بنا. كلما كثرت صفات الأثمار التى نمتلكها زاد التدقيق فى عملية التشذيب والتنقية. وأن أدق وأندر المعادن تعرض لأشد حرارة. ولأن موسى كان سيستخدم فى مهمة سامية جداً لهذا سمح له الله بهذا التأديب الشديد.

أيها المؤمن المتألم، تشجع. فالله يؤدب لأنه يحب، وهو يزمع أن يستخدمك فى خدمته. احرص على أن تعرف الشر الذى فيك، والذى يُحزِنه، ثم اتركه. وإن كان يعسر عليك تركه فاطلب من الله أن يقطعه، لأنه إن كان يرثى لآلامنا إلا أنه يمسك سيفاً ذا حدين يخترق الى مفصل النفس والروح. وبعدئذ يكف الله عن التأديب. «فانفك عنه»[١] (ع٢٦).

ويبدو أن موقف الاشمئزاز الذى أظهرته صفورة عندما تمت فريضة الختان جعل موسى يشعر بأنه ليس من الحكمة أن يأخذها معه، وأنه من الأصوّب أن تبقى مع أهلها حتى تتم عملية التحرير.

وقد كان هذا أيسر طالما كان الله قد أخبره صراحة أنه سيخرج شعبه، ويجتاز نفس ذلك المكان فى طريقه الى كنعان (خر ٣: ١٢). وقد تم الأمر حسب إيمانه، لأننا نقرأ فيما بعد هذه العبارة «وأتى يثرون حمو موسى وإبناه وإمرأته الى موسى الى البرية، حيث كان نازلاً عند جبل الله» (خر ١٨: ٥).

ليس مطلوباً منا أن نتمَّثل دواماً بموسى فى تصرفه هذا، للتخلُّص من رباطاتنا العائلية لإتمام عمل الله. وفى نفس الوقت يجب على المرء أن يسير دواماً إلى الأمام في الخطة التى رسمها الله لحياته، دون أن يتأثر بأعضاء أسرته، بل يحملهم هو معه ليشتركوا معه فى عمل واحد. إن الظروف التى تحتاج الرُبط العائلية القوية لابُد أن تكون ظروفاً استثنائية جداً، لكن عندما تقوم ظروف كهذه، فإن العناية الإلهية لابُد أن تبينها بكيفية واضحة، ولابد أن ترتب بأنها لا تترك رد فعل فى حياة خُدآمِه.

---

(١) أو «فكَّف عنه» حسب ترجمة اليسوعيين، أو «فَسمح له بأن يسير» حسب الترجمة الإنكليزية.

(٤) **محالفة أخوية.** وإذ شُفِىَ موسى من مرضه، وكان وحيداً لأنه أعاد زوجته وابنيه الى مديان، استأنف رحلته فى تلك البرية نفسها التى عَبرها منذ أربعين سنة. لكن كل شئ قد تغيَّر. وهو نفسه قد تغَّير. لم يكن بعد إنساناً فاشلاً يعض اصبعه، بسبب شعوره بالفشل، بل قوياً بالرب، وبشدة قوته، شاعراً بأنه قد وُضِعَت عليه مهمة عظيمة، وبأن ملاكاً يُرافقه ليمده بكل ما يحتاجه، فى كل مناسبة.

ولقد عرف بأن نفس القوة التى دفعت به ليتقدم الى شعبه، دفعت بأخيه ليتقدم إليه بعد أن غاب عنه أربعين سنة. لابُد أن قلب كل منهما كان ينبض بسرعة كلما فكر فى لقاء أخيه. ولابُد أن كل واحد منهما كان متحمساً فى المسير ليلتقى بأخيه. ولابُد أن كلاً منهما كان يتطلع الى الأفُق من بعيد ليرى شبح أخيه. **وأخيراً دبر اله أن يجتمعا معاً فى جبل الله**، حيث اشتعلت العُليقّة، وحيث دعا صوت الله موسى من رعاية الغنم الى رعاية شعبه الوفير العدد. ويالها من تحية، و«قُبْلة»، وتبادلت ثقتهما ببعضهما «فأخبر موسى هرون بجميع كلام الرب الذى أرسله». أية أسئلة وجهها موسى لأخيه عن أنباء أولئك الذين أحبهم؟.

هكذا سوف نلتقى نحن أيضاً. الله يعرف أين هو هرَوننا. أخونا الذى نحتاجه ليكون بجانبنا لإتمام مهمة حياتنا. قد يكون الآن بعيداً. لكن الله يدفعه إلينا، ويدفعنا إليه. ترحل صفورة فيأتى هرون. ولن يتيه الواحد عن الآخر، طالما كان الله هو المرشد. فلنعتمد على عنايته ومحبته، ولابُد أن يُرّتب هو أخيراً أن نلتقى عند جبل الله، فى مكان مقدس يختاره هو. وعندئذٍ يكون العناق، والفرح، وقُبلات المحبة، سبباً فى أن ننسى تعب الأربعين سنة التى قَضيناها فى المنفى والعزلة والوحشة والحزن.

✝ ✝ ✝

الباب السابع

فشل وخيبة أمل

«فرجع موسى الى الرب وقال ياسيد لماذا أسأتَ الى هذا الشعب؟ لماذا أرسلتنى»؟ (عد ٢٢:١٦)

«فإنه منذ دخلت الى فرعون لأتكلم بإسمك أساء الىَّ هذا الشعب، وأنت لم تُخلِّص شعبك».

(خر ٥: ٢٢ و٢٣)

وبعد أن تبادل الأخَوان النبيلان الموقران الأفكار، وصلَا الى مصر، وإطاعةً للأمر الإلهى شرعا فى دعوة شيوخ اسرائيل الى مؤتمر، يقدمان فيه أوراق اعتمادهما، ويتحدثان فيه عن الرسالة الإلهية الى أؤتمنا عليها (خر ٤: ٢٩).

(١) الحديث مع الشيوخ:

لابُد أن ذلك الإجتماع كان رهيباً جداً، ولعله كان الأول من نوعه. لم يحدث قط من قبل أن تلك الأمة الذليلة أخرجت رجلاً تجاسر على اتخاذ خطوة كهذه، نحو الحرية والاستقلال. لم يخبرنا الكتاب المقدس أن أحداً من هؤلاء الشيوخ، قادة الأُسرَ العبرانية، تجرَّأ على أن يسأل عما إذا كان هذان الاخَوان لهما الحق فى دعوتهما لذلك الإجتماع. والأرجح جداً أنهم كانوا مسرورين جداً لدرجة أنهم آثروا أن يوحدوا جهودهم من أجل خير شعبهم عن أن يلتفتوا الى أية مصلحة شخصية. ولعله قد انتشرت أقاصيص كثيرة عن حياة موسى وأعماله قبل أن يبعد نفسه بنفسه فى المنفى البعيد، وكان من تأثير هذه الأقاصيص أنها هيأتَّهم لتلبية دعوته، والإجتماع فى مكان مناسب، فى المنطقة المعدة لهم للسكن فيها.

واذا اجتمع الجميع بدأ هرون يتلو، نيابةً عن موسى الذى وقف بجانبه دون أن ينطق بكلمة، الكلمات الرائعة التى قيلت من العُلّيقة (خر ٣: ١٦ - ٢٢). ولا نعلم كيف قوبلت هذه الكلمات. لعل خوف موسى قد تحقق، ولو جزئياً، عندما قال لله «هاهم لا يصدقوننى

ولا يسمعون لقولى. بل. بقولون لم يظهر لك الرب». ولعل سِنِى العبودية الطويلة قد طوَّحت بآمالِهم، وأخمدت أرواحهم، حتى لم يستطيعوا أن يُصدقُوا بأن ساعة الخلاص قد حلت. وكما لم يصدق الأخوة المجتمعون فى بيت مريم أن بطرس، الذى كانوا يصلون لأجل إطلاق سراحه، واقف فعلاً بالباب. هكذا كان مستحيلاً أن يصدق أولئك الشيوخ، أن أيام العبودية قد أوشكت على الإنتهاء، وأن ساعة الحرية قد دنت.

فى تلك الساعة قدَّم موسى وهرون العلامات التي أمدهم بها الله، فتحولت الحية الى عصا، وعادت اليد البرصاء سليمة، وتحوَّل الماء الى دم، عندما سكب على الأرض (خر ٤: ٢ - ٩). كانت هذه العلامات كافية للإقناع. ومن هذا الاجتماع ذاعت الأنباء فى كل الأمة، وانتشرت من كوخ الى كوخ، ومن عبد الى عبد: «فآمن الشعب. ولما سمعوا أن الرب افتقد بنى اسرائيل، وأنه نظر مذلتهم، خرُّوا وسجدوا».

(٢) مقابلة فرعون:

كانت الخطوة التالية أمام موسى وهرون أن يذهبا الى فرعون، ويطلبا منه أن يطلق الشعب ليعبدوا الرب فى البرية.

وكان هذا الطلب بناءً على الارشاد الإلهى (خر ٣: ١٨)، فضلاً عن أنه كان طلبا معقولاً. كان هينا على المصريين أن يدركوا كيف يفضل الاسرائيليون أن يتمموا شعائرهم بعيداً عن عيون الأجانب، وبعيداً عن نجاسات الديانة المحيطة بهم. وعلاوة على هذا، فقد كان ذلك بمثابة طلب عُطلَة قصيرة بعد كد وتعب ظلاً أجيالاً طويلة بلا توقف. لم يُبّين هذا الطلب كل ما أرادوه. وطالما كانت النتيجة المرتقبة هى أن فرعون لا يمنح شيئاً. فقد حرص موسى وهرون على أن لا يُعطياه فرصة للإحتجاج بأن طلباتهم غير معقولة.

ولعل فرعون استقبل موسى وهرون فى غرفة الاستقبال فى قصر فخم. لا ندرى كيف كان شعور موسى إذ دخل كطالب إحسان فى تلك الدار التي لعب فيها دوراً جوهرياً فى تلك السنوات الغابرة. عندئذ تكلم هرون وموسى بهذه الكلمات، التى وقعت على آذان المستمعين وقع الصاعقة «هكذا يقول الرب إله اسرائيل أطلِق شعبى ليعيدوا لى فى البرية».

ولكى ندرك جرأة هذا الطلب، يجب أن نذكر مقدار السلطة الواسعة التى كان يتمتع بها ملوك مصر. كان كل فرعون إبناً للشمس (الإله رع). وكان يُصوّر كأن أعظم الآلهة تُدلله وكأنه جالس معهم فى هياكلهم، ليتقبل العبادة مثلهم. كان أعظم قَسَم هو: «وحياة فرعون». وبدون فرعون كان لا يستطيع انسان أن يرفع يده أو رجله فى كل أرض مصر. من أجله كانت مصر العظيمة كائنة، ومن أجله كان سائر البشر يعيشون ويتعبون ويموتون. ومن أجله كان يفيض نهر النيل العظيم من منابعه المجهولة. لكى يُخصِّب الأرض. من أجله كان جمهور عظيم من الكهنة والسحرة والحاشية يعملون ويخدمون. من عرشه العظيم كان يتطلع إلى أسفل لينظر رعاياه التُعَساء، دون أن يبالى بشقائهم. لم تكن دموعهم وأناتهم وأثقال عبوديتهم سوى ذبائح لائقة تقُدَّم الي عظمته السامية. يُضاف الى هذا أن الملك الذى يملك وقتئذ كان قد حاز نصراً عظيماً فى أحد الحروب، وقد أدى انتصاره إلى ازدياد غطرسته وكبريائه، حتى أنه أجاب على الدعوة الإلهية باحتقار شديد قائلاً «مْن هو الرب، حتى أسمع لقوله فأطلق اسرائيل؟. لا أعرف الرب. وإسرائيل لا أُطلقه».

والنقطة الجوهرية فى هذه الأجابة تنحصر فى هذه الكلمة «أسمع» (أو «أطيع» حسب الترجمة الانكليزية). لقد رأى أن هذين الرجلين لم يتقدَّما إليه برجاء، بل بأمرٍ سامٍ صادر من شخصية ذات سُلطة أسمى من سُلطته. هذا ماحز فى نفسه جداً. لقد كان هو أيضاً إلهاً. فمن هو هذا الإله الآخر الأعظم منه، الذى يتجاسر بأن يُصدِر إليه أمراً كهذا؟ لم يكن يعلم الى تلك الساعة بوجود هذا الإله. مْن هو هذا الإله؟ إله حفنة من العبيد؟ كيف يتجاسران بالتحُدث عن إلههما التافه، فى حضرته، وفى وسط الكهنة والحاشية وعظماء الدولة.

أما الأخَوَان فقد قَابلا ثورة الغضب هذه بإبلاغ رسالتهما، ذاكرَّين كيف أن إله العبرانيين قد التقاهما، وطالبَّين بصوتٍ أرق أن يسمح لشعبهما بإتمام ما أمر به الله. لكن الملك رفض أن يُصدّق بأنهما جادّين فى طلبهما. وأصرَّ على اعتقاده بأن كل الأمر لا يتعدى عن أنه رغبة فى التخلص من أتعابهم، وحجة يتذرعون بها للكسل.

وإذ التفت بغضب إلى الأخوَّين أتهمهما بتعطيل الشعب عن عملهم، وأمرهما باتخاذ نصيبهما فى عمل اللبن. «فقال لهما ملك مصر لماذا يا موسى وهرون تُبطلاّن الشعب من

أعماله؟. أذهبا إلى أثقالكما». ياللتعنيف المرير الذى تحمله تلك العبارة الأخيرة. يالقسوة شفتى الملك اذ نطق بها. لقد بدأ القلب يتقّسى. وهكذا انتهت المقابلة، ونزل الأخَوَان من قصر الملك، وسط استهزاء الحاشية بهما. كان هذا المنظر يختلف اختلافاً كلياً عن المنظر الآخر الذى كان ينتظر تمثيله بعد بضعة شهور، عندما رنت الأنباء بطرح الملك فى البحر الأحمر. وكان هذا هو آخر دور فى الصراع بينه وبين إله العبرانيين، الذي سمع اسمه لأول مرة، فى ذلك اليوم.

(٣) فشل وخيبة أمل:

في نفس ذلك اليوم، خرج أمر جديد من القصر الملكى إلى مُسخِرّى الشعب، صادر من الملك نفسه. والأرجح أنه قبل أن يحل المساء صدرت الكلمة المشئومة من المسخرين إلى رؤساء الشعب الذين أقيموا على إخوتهم العبرانيين، والذين كانوا مسئولين عن تقديم كمية مُعيّنة من اللبن، وكأن مضمون تلك الكلمة أنهم يجب أن لا ينتظروا تبنا فيما بعد، على أن يقدموا نفس الكمية دون نقصان: «هكذا يقول فرعون لستُ أعطيكم تبناً. أذهبوا أنتم وخذوا لأنفسكم تبناً من حيث تجدون. إنه لا ينقص من عملكم شئ».

كانت هذه محنة شديدة. فإن الرؤساء الأسرائليين أمروا بعضاً من الشعب ليتفرقوا فى كل أرض مصر ليجمعوا قشاً عوضاً عن التبن من أى مكان يجدونه فيه، وأن يعملوا هذا بأقصي سرعة. وفى نفس الوقت حثوا بقية الشعب ليعوضوا عن تغيب جامعى القش بمضاعفة المجهود. عندئذ توترت كل الأعصاب بشدة. من الصباح الباكر إلى المساء المتأخر كانت الأمة كلها تبذل المستحيل، فى حرارة الشمس اللافحة، دون أن تتوقف لحظة واحدة. ومع ذلك فعندما أحصيت كمية اللبن كان لابُد أن توجد ناقصة. وكان عبثاً أن يُعجلّهم المسخرون قائلين: «كملُّوا أعمالكم أمَر كل يوم بيومه، كما كان حينما كان التبن».

وكان عبثاً أن يضرب مدبرو بنى اسرائيل الذين أقامهم عليهم مسخرو فرعون، وكان هذا الضرب لا يؤدى إلا إلى الموت. وكأن كل بحارة السفينة بدأوا يعملون على تفريغ المياه المتدفقة إلى السفينة، لكن لأن كمية المياه التى يفرغونها أقل من الكمية المتدفقة فلابُد أن تغرق السفينة.

وأخيراً عجزوا عن القيام بمهمتهم، وعزموا على تقديم التماس إلى فرعون مباشرة «فأتى مدبرو بنى اسرائيل وصرخوا إلى فرعون» (ع ١٥). كان يوماً مريراً جداً على نفس موسى وهرون عندما حاول الشعب أن يعالجوا أمرهم بنفسهم دون وساطتهما، وذهبوا إلى الملك مباشرة لكى يُعيدهم إلي الحالة التى كانوا عليها قبل وساطتهما الأليمة السليمة النية، وواضح أنه كان خيرا لموسى أن يقفا خارج القصر الملكى ليعرفا نتيجة المقابلة (ع٢٠).

وحدث ما كان متوقعاً، إذ أبيَ الملك أن يصِغى إلى الإلتماس المقدم إليه «فقال متكاسلون أمنتم متكاسلون. لذلك تقولون نذهب ونذبح للرب، فالآن أذهبوا أعملوا. وتبن لا يُعطَى لكم ومقدار اللبن تقدمونه» (١٧و١٨). ولعله أشار مرة أخرى بتهكم إلى «كلام الكذب» الذى جعلهم موسى وهرون يتكلون عليه (ع٩). وهكذا خرجوا من لدن فرعون فى أشد حالات الحزن، يخشون الموت بسبب الأجهاد الشديد، والضرب الذى بلا رحمة، الأمر الذى كانت كل الأمة تنتظره.

... وإذ التقوا بموسى وهرون صبوا عليهما جامات غضبهم. كانت كلمات قاسية جداً تلك التى وجهوها إليهما، فحز ذلك فى قلبيهما كالسكاكين، مع أنهما كانا مستعدين لبذل حياتهما لتخفيف آلامهم. «فقالوا لهما ينظر الرب إليكما ويقضى. لأنكما أنتمتنا رائحتنا فى عينىَّ فرعون وفى عيون عبيده، حتى تعطيا سيفاً فى أيديهم ليقتلونا».

ونحن إذ نتطلع الى خلف إلى هذا المنظر، نستطيع أن نُدرك سبب كل هذا. يستطيع الله أن يجيزنا فى ممرات كهذه، بسبب النتائج التى سوف تؤدى إليها فيما بعد. كان ضرورياً أن يرى موسى وهرون والعبرانيون بأن قضيتهم ميئوس منها، وأنها لا يمكن أن تزحزحها التوسلات، ولا البراهين، ولا الاحتجاجات. كان ضرورياً أن يُحرَم القائدان من ولاء الشعب وحماستهم. لكى **يعتمدا فقط على ذراع الله الحى ويتقدما إلى الأمام، متكلين عليه وحده فقط**. كان ضرورياً أن يرى الشعب بأنهم لا يستطيعوا أن يحسنوا مركزهم بأى مجهود يبذلونه من أنفسهم. نعم وكان ضرورياً أن تتحول أنظارهم من القائدين اللذين فشلا فى أول مسعى، وتتجه إلى يد القدير.

(٤) استغاثة النفس الفاشلة:

«فرجع موسى إلى الرب وقال: يا سيد لماذا أسأتَ إلى هذا الشعب؟. لماذا أرسلتنى»؟ (ع٢٢). ليست هنالك معونة أخرى أمامنا عندما نجوز شدة كهذه. ومسكين حقاً ذلك المرء الذى لا يستطيع أن يلجأ إلى الحصن الحصين، فى مثل هذه الشدائد. عندما يرى بأن آمالنا قد انهارت، والخِطط التى وضعناها قد فشلت، ومجهوداتنا أدت إلى الضرر، لا إلى الخير، وأننا نلقى اللوم والتعيير، ونُقابَل بالتعنيف والبغض، ممن كنا مستعدين أن نبذل حياتنا من أجلهم فإننا نستطيع أن نحتفظ بهدوء خارجى، ومع ذلك يظل القلب كسيراً والنفس ذابلة، ما لم سكب كل شكوانا أمام الله.

لابُد أن كآبة النفس التى جازها موسى كانت له بمثابة الموت. لقد مات عن اعتماده على نفسه، عن أحلامه التى دفعته لكى يبنى قصوراً فى الهواء، عن افتخاره بمعجزاته، عن تحمس شعبه، عن كل ما يهواه قائد شعبى. واذ أرتمي على الأرض وحيداً أمام الله، متمنياً العودة إلى مديان، ومفتكراً فى نفسه بأنه قد أسئ إليه، كان كأنه قد وقع فى الأرض ليموت كحبة الحنطة، لكى لا يبقى وحده بل ليأتى بثمر كثير.

آه، لكن الموت ليس عملية محببة. ليس من السهل - أو المحبب - أن يتنّحى المرء عن خططه، التى سبق أو وضعها، أو يكف عن عمله، أو يغُض الطرَف عن سمعته، أو أن يحتقر أو يستهزأ به من نفس العبيد الذين يريد أن يحررهم. ماذا تتمتع به حبة الحنطة إذا تمزقت قشرتها الى لا تنفذ منها المياه، وتعطنت عناصرها، وذاب قلبها، وهى راقدة لا حول لها ولا قوة، معرضة لعوامل الأرض المفسدة، فى التربة الباردة الرطبة المظلمة؟ ومع ذلك فهذا هو الشرط الضرورى الواجب إتمامه قبل أن تنبت النبتة الرقيقة وتنمو لتعطى ثلاثين وستين ومائة ضعف. «الذى تزرعه لا يحيا إن لم يمت ولكن إن مات يأتى بثمر كثير» (١كو ١٥: ٣٦، يو ١٢: ٢٤).

هذا درس لنا أجمعين. يجب أن يذلنا الله قبل أن يرفعنا. يجب أن نُخلَى قبل أن نمتلئ. يجب أن ننتهى مع أنفسنا قبل أن يبدأ الله فينا. ويالها من بداية يبدأها. «فقال الرب لموسى الآن تنظر ما أنا أفعل بفرعون. فإنه بيد قوية يطلقهم، وبيد قوية يطردهم» (خر ٦:١). وإذا رنت فى أذنيه كلمات التشجيع هذه، وكلمات الوعد، لابُد أن يكون قد نسى نظرات

الشعب الحادة، وكلماتهم المُرَّة، وقام إلى حياة جديدة، حياة الأمل والانتظار والطمأنينة. كان الخلاص أكيدا ومضموناً، وإن كان قد تعلم بأنه لا يتوقف على رأى شئ يعمله هو، بل على الله الكلى القدُرَة، الذى أعلن بأنه هو يهوه «أنا أكون».

ومن كل هذه الرواية نتعلم هذا الدرس، وهو أننا يجب أن لا نظن بأن الصعوبات التى نلقاها تدل على أننا لسنا فى طريق الله متممين عمله. والواقع أن العكس هو الصحيح، بصفة عامة. فنحن إن كنا راغبين فى السير مع الله، فإنه يختبر اخلاصنا، يسمح للآخرين بأن يركبوا فوق رؤوسنا، يجيزنا فى النار وفى الماء ولكنه يخرجنا من هذه كلها إلى الرَحب ويمنحنا نفس الشئ الذى وضعنا عليه قلوبنا. إن شاطئ البحر الأحمر، في الجانب الآخر، وما يتبعه من هتافات النصر، ستمحو ذكريات ذلك الفشل المرير، وتلك الكلمات القاسية، وساعات الحزن الكئيب.



الباب الثامن

محبة الله فى الضربات الأربع الأولى

«فإنه ولو أحزَّن يرحم
حسب كثرة مراحمه»
(مراثى ٣: ٣٢)

ارتمى موسى عند قدَّمى الله يائساً. وبدأ يروى قصة فشله: «لماذا أسأتَ إلى هذا الشعب؟. لماذا أرسلتنى»؟ (خر ٥: ٢٢). على أن الرب - صديقه الأمين - لم يُعنِّفه، ولم يوبخه، فقد عرف جبلته، وذكر أنه تراب (مز ١٠٣: ١٤). «فقال الرب (عندئذ قال الرب) لموسى: الآن تنظر ما أنا أفعل بفرعون» (خر ٦: ١). «عندئذ» أى عندما كف نهائياً عن الاعتماد على نفسه. «الآن» طالما كان قد فشل كل مجهود بشرى. «أنا» الرب، الكائن بذاته، المجد إلى الأبد. إنه لا يَعطِى مجدَه لآخر (أش ٤٢: ٨). ومن أجلنا يغار على كرامته. لذلك فإنه يذلنا إلى أن نصل إلى أقصى درجات الاتضاع، ويُفرّغنا من الكبرياء البشرى، ويفصل بسيفه ذى الحدين بين جهودنا البشرية وبين الجهود الإلهية. وعندما يتم هذا نشرب حتى الثمالة كأس اليأس من أنفسنا المرة. عندئذ فقط يتدَّخل قائلاً: «يا أبن محبتى، قف جانباً، هدئ نفسك كفطيم، فترى ما أنا أفعل. لستُ فى حاجة إليك، سوى كآلة أستخدمك فى يدى، وعن طريقك أُعِبرَّ عن القصد الذى وضعته فى قلبى، الذى أنا مستعد أن أُتممه بيمينى القوية.

إن وقت الكآبة والحزن وانقباض النفس الذى يكابدهم خادم الله، الذى خابت آماله هو عادة وقت استماع مواعيد الله. عندئذ يتخذ الله لنفسه إسماً جديداً (خر ٦: ٣) عندئذ يعطى لمحة عن معنى مُعاملاته فى الماضى (ع٤)، عندئذ يعلن عطف قلبه الذى يكشف الآنات الغامضة (ع٥). وإذ لا يمكن أن يحِلف باسم آخر، فإنه يؤكد مواعيده بضمانات مكررة سبع مرات (ع ٦ - ٨).

هل تقرأ هذه السطور... نفسٍ قد حطّمها ذل العبودية، التي فشلت معها كل جهودها؟ لتضع مثل هذه النفس فى قلبها هاتين الكلمتين «أنا الرب» اللتان تكررتا فى سلسلة المواعيد هذه التي هى النِعَم، والأمين في يسوع المسيح، التى تنطبق على كل الظروف، وتسد أعواز كل الأجيال، هذه المواعيد الأزلية الأبدية غير القابلة للتغيير، كطبيعة يَهْوة الذى نطق

بها. «أنا الرب. وأنا أخرجكم... وأنقذكم.... وأخلصكم... وأتخذكم لى... وأكون لكم إلهاً... وأدخلكم إلى الأرض... وأعطيكم إياها». ولاحظ تكرار كلمتى «أنا الرب» فى بداية الكلام (ع ٦)، وفى نهايته (ع ٨). لكى يؤكد إتمام هذه المواعيد.

الله سيربط دواماً الطاعة بالمواعيد. فإن إطاعة كلامه يتبعها إتمام مواعيده. والمواعيد قصد بها أن تُحفِّزنا للعمل. ونحن نصغى لكى ننقل للآخرين الكلمات التى حفزت أرواحنا للعمل. لهذا صدر الأمر لموسى مرة أخرى ليكلم بنى اسرائيل أولاً، ثم فرعون ملك مصر. لابُد أنه كان يوماً خالداً ذاك الذي أتت فيه الدعوة إليه «في أرض مصر»، كما أتت من قبل فى برية سينا» (خر ٦: ٢٨).

هل خطر بباله يوماً ما أن تلك الرؤيا وذلك الصوت لا يمكن أن ينعم بهما إلا فى عزلة البرية، وفى صمت وسكون تلك الأكام الدهرية. وأن ما حدث هنالك لا يمكن أن يكون له نظير فى جلبة الحياة المصرية، وفى وسط تلك العبادة الوثنية البغيضة؟ إن كان فكر كهذا خطر بباله فعلاً، فقد تلاشى الآن. إذ ناداه الصوت فى مصر نفسها. آه أيتها النفس البشرية، إن الله لا يتكلم فقط فى هدوء صومعة الراهب، بل فى وسط زحمة الحياة وازدحام الجماهير.

وكان الأمر يحتاج إلى أكثر من شجاعة عادية، لكي يستأنف موسى وهرون خدمتهما. فإن شعبهما كانوا مُرِىّ النفس وفاترِى العزيمة. ولذلك لم يكن لديهم أى استعداد لسماع ما يقال، لاسيما إذا قيل من هذين الشخصين اللذين تسببا فى زيادة أثقالهم. أما فرعون فقد كان من العبث الظن بأنه يتأثر بكلام هذين اللذين لم يستطيعا أن يستميلا آذان العبرانيين. «فتكلم موسى أمام الرب قائلاً هوذا بنو اسرائيل لم يسمعوا لى، فكيف يسمعنى فرعون وأنا أغلف الشفتين» (خر ٦: ١٢). لكن لم يكن هذا هو الوقت للمناقشة، فقد كان يجب أن يقوم بواجبه دون أى تردد.

فى بداية المقابلة طلب فرعون - كما كان منتظراً - أعطاه الدليل على أن الله أرسلهما، فأعطياه كما قال لهما الله. لكن الدليل أضعفه السحرة اذ قلدُّوه، إما بمهارتهم وخفة يدهم. أو بتواطؤهم مع الروح الشرير الذى يحاول دواماً أن يقلد الأعمال الإلهية. وعلى أية

حال. فقد كان أمراً بارزاً أن عصا هرون ابتعلت عصيهم. على أن المسألة الجوهرية يجب أن تقرر فى دائرة أوسع، وتؤيد بسلسلة آيات أكثر وضوحاً.

من الضرورى أن نقف برهة، لنتأمل فى المبادئ التى تنطوى عليها معاملات الله مع فرعون، لاسيما فى الضربات الأولى. سوف نجد أنه ليس من العسير أن نتبَّين عمل المبادىء الأزلية للعدل الإلهى والمحبة الإلهية فى الضربات التى لم يتعجل الله فى أن ينزلها على فرعون وأرضه.

(١) محبة الله:

الله محبة، فى كل زمان وفى كل مكان. أن الشخص الحكيم الذى تحلى بالحكمة السماوية، وتطهرَّت عيناه من قشور التعصب والتحُيز، يستطيع أن يرى رحمة الله وشفتيه ومحبته فى العهد القديم، كما فى العهد الجديد، فى العاصفة كما فى النسيم العليل، فى الزلزلة كما فى الصوت الهادئ الخفيف، فى الضربات كما فى الصليب. ونفس هذا الاصطلاح «يهوه» الذى طالما تكرر فى هذه الصفحات، يُعّبر أولاً عن عدم تغير طبيعة الله، ثم يعبر عن الناحية الفدائية. ويجب أن نعتقد بأن فرعون كان فى دائرة محبة الله التي أظهرها عندما أرسل الرب يسوع المسيح إلى العالم، وكان أيضاً فى دائرة كفارته، وكان يمكن أن يضئ مثل كوكب فى جَلدَ القديسين الذين اشتُروا بالدم.

فمن السهل إذن أن نوَّفق بين محبة الله التى كانت ترفرف فوق فرعون وأرضه وبين الصرامة الظاهرية التى جلبت تلك الضربات المتتالية. ومما يعيننا فى هذا الصدد أن نذكر بأنه كان يوجد هناك فرق واضح بين الضربات الأربع الأولى، وبين الضربات الباقية. فى بداية معاملات الله مع هذا الطاغية يبدو كأن الرب قصد أن يجيب على هذا السؤال «من هو الرب حتى أسمع لقوله» وأن يُزيل الجهل الذى أظهرَه عندما قال «لا أعرف الرب».

كان الموقف هكذا. هنا شخص تعوَّد منذ طفولته أن يعتقد بأن آلهة أمته مقتدرة فى السماء وعلى الأرض، كتلك الآلهة الجميلة التى كانت تفيض من قارورتها السحرية مياه نهر النيل المقدس، بصفة دائمة، فتُكِسب الأرض خصباً وجمالاً، وكمصدر الحياة الخصيب (الولود) الذى كانت الضفدعة هى رمزه المحبوب، وكان شاطئاً النيل يكتظان

بالضفادع. وكان أيضاً يعطى أهمية وتوقيراً لطهارة الكهنوت، وسمو إله الشمس (رع) الذى يرمز إليه الجعران[١]

لذلك كان من المستحيل أن يتوقع بأنه في أسبوع واحد يتحول فرعون عن هذه لكى يقبل أوامر إله سمع اسمه لأول مرة من ممثلى أمة عبيد.

عندما كان الرسول بولس فى أثينا اكتشف مذبحاً لإله مجهول. فلم يوبخ الشعب لعدم تقديم العبادة اللائقة لله. لكنه سعَى يُبَّين طبيعته وصفاته. ثم استمر فى حديثه لكى يبّين بأن الطبيعة، بكل أعمالها العجيبة، لن تُعزى إلى الآلهة الوثنية، مهما سما الفن البشرى، بل هى خلقة ذلك الذى كلم البشرية فى يسوع، والذى كان هو «بولس» يمثله. وهكذا أراد الله أن يُبّين بأن آلهة الوثنيين ليست آلهة. وأن كل نُظم العبادة المصرية يجب أن تخضع لإله أعظم من كل الآلهة التى ينادى بها سحرتهم وكهنتهم، وأنه إن كان قد تغاضى عن أزمنة الجهل الماضية، فقد حان الوقت الذى يأمر فيه جميع الناس فى كل مكان (فرعون فى عرشه، والكهنة فى هيكلهم، والفقير فى كوخه) أن يتوبوا (أع ١٧: ٣٠).

«**منْ هو الرب؟**» هو إله الطبيعة، الذى بأمره لا يعود نهر النيل يبارك عابديه بل يلعنهم، وبأمره تصبح العبادة المصرية بغيضة وكريهة، وتجعل الأرض نتنة، وبكلمته يغطىِ القمل[٢] أجساد الكهنة، ولا يكفى الموسى ولا الماء لاستئصاله، وبأمره يتلف الذبان (الذباب) الأرض.

«لا أعرف الرب؟» هو الرب الذى يتكلم عن طريق أصوات البشر، هو إله موسى وهرون المتقدمين فى الأيام، هو إله أولئك العبيد الذين يئنون تحت ثقل العبودية، هو الإله الذى لا يمكن أن يُنقِض عَهده الذى قَطَعه مع ذلك الشعب الذى طالت آلامه، هو إله الفداء وإله الأزل.

---

(١) وترجم فى الكتاب المقدس «الحرجوان» (لا ١١: ٢٢).

(٢) هكذا وردت فى الترجمة الانكليزية للكتاب المقدس خر ٨: ١٦ وكذا فى هامش الكتاب. أما فى الترجمة العربية فوردت «البعوض».

(٢) إيمان موسى:

صحيح أن محبة الله كأنه تعمل طالبة أن تعلن ذاتها لفرعون بإرسال الضربات، إلا أننا يجب أن نذكر دواماً أن ايمان موسى كان يلعب دوراً جوهرياً بإزائها. ويوضح هذا بجلاء ما ذكره الرسول بولس فيما يتعلق بآخر الضربات. «بالإيمان ترك مصر» وأنه «تشدد كأنه يَرى من لا يُرى» (عب١١: ٢٧). إذن فإن ما يصدُق على آخر الضربات يصدُق على الباقى. وخليق بنا أن نقرأ فى رواية الخروج الصفات الروحية الى تنكشف لنا فى رسالة العبرانيين، حيثُ يبَّين لنا روح الله أعمال حياة موسى الداخلية، ويظهِره كما كان.

إذن فقد كان موسى يتصل بالله اتصالاً وثيقاً فى كل الصراع مع فرعون الذى أدى الى تحرير اسرائيل. لقد كان الله ماثلاً أمام عينىَّ روحه بكيفية واضحة. كان يفكر فى رفقة الرب له، وفى قُدرته أكثر مما كان يفكر فى عظمة وقدرة فرعون، الذى كان أعظم ملك فى زمانه. وإذ كان الله يكشف له كل خطوة فى أعمال عنايته مع فرعون، فقد كان إيمانه واثقاً من أن الله لابُد أن يتمم ما قاله. إذن فقد عمل الله بذراع قوته عن طريق إيمان موسى، فكان الايمان بمثابة واسطة أو آلة استخدمها الله.

هل هناك أعمال عجيبة مدونة فى الكتاب المقدس تمت بعيداً عن عمل إيمان أحد المؤمنين أو بعض المؤمنين؟ إن كان أخنوخ قد نُقِلَ كأنذار لعالم ما قبل الطوفان. فذلك لأنه كان له إيمان بأن يُنقَل. وإن كان إسحق قد وُلِد من أم فقدت كل أمل فى أن تحبل، فذلك لأن إيمانها تقوى. وإن كان البحر الأحمر قد شق طريقاً لشعب الله، فذلك لأن ايمان قئدهم كان شديداً. وإن كانت أسوار أريحا قد سقطت فذلك، فلأن يشوع كان له ايمان يثق فى أنها ستسقط. وكما تتطلب الكهرباء أسلاكاً لتنقلها كذلك تتطلب قدرة الله القادر على كل شئ عنصر إيماننا.

قد يكون ذلك الإيمان رقيقاً جداً. قد ينقص المؤمن ما يعتبره العالم ثميناً جداً. لكن إن توفرت فقط علاقة وثيقة يبن الله الأزلى وبين الحالة الى تواجهها. فهذا يكفي. فكل اللاهوت يمكن أن يمر فى ايمان شخص حقير جداً. ولو كان الايمان رقيقاً كما يمر المحيط فى قناة ضيقة جداً. بهذه الأفكار أمام أنظارنا لنتأمل فى الضربات الأربع الأولى وكيف أظهَّر الله محبته فيها.

✝ ✝ ✝

(٢) الضربات:

١ - النهر: وفى صباح أحد الأيام، بعد الحوادث السابق ذكرها بقليل، نزل فرعون الى النهر يحف به كبار موظفيه ورجال البلاط والكهنة - إما ليغتسل كعادته، أو للعبادة . وكان ذلك فى صباح أحد الأيام. وعلى شاطئ النهر وجد موسى فى انتظاره، وفي يده العصا التى يعلم فرعون عنها الكثير، لم يكن هنالك وقتئذ أى تردد فى الدعوة الجازمة التى لا تقبل الأخذ والرد «الرب إله العبرانيين أرسلنى إليك قائلاً أَطلِق شعبى ليعبدونى فى البرية» (خر ٧: ١٦). وبعد هذا وجه إليه كلمات تُبَّين ماسبق أن قيل عن قصد الله من الضربات «بهذا تعرف إنى أنا الرب». لقد تم أول اعلان عن الله فى ضرب المياه وتحويلها الى دم، فى موت السمك الذى فيها (ولم يكن السمك فقط موضوعاً للعبادة، بل كان جزءاً كبيراً من الطعام)، وفى الرائحة النتنة التى جعلت الأرض كريهة.

أما الدعوة فقد قوبلت إما بالاستهزاء أو بالصمت. ولم يكن أمام هرون إلا أن يضرب الماء بالعصا فى حضرة الملك وحاشيته. ويقيناً أنه عندما ضرب الماء فقد كان يؤمن، هو وموسى، بأن الله لابُد أنْ يتِّمم ما قاله، وحسب إيمانهما تم الأمر. فى لحظةٍ تغيرّ منظر الماء، وتغيرت طبيعته. لقد تحول الى دم. ظلت عملية التحول تستمر ساعة بعد ساعة، ويوماً بعد يوم، حتى كملت سبعة أيام، ومات السمك، وطاف على وجه النهر، وفسد الهواء بسبب التعفُّن. وامتدت الضربة حتى شملت كل الأنهار والسواقى والآجام وكل مجتمعات المياه، فى الأماكن العامة وفى بيوت الشعب. ولم يوجد ماء فى كل الأرض سوى كمية ضئيلة، يحصلون عليها بحفر آبار قليلة العُمق.

أما السحرة فقد قلدوا المعجزة. ولعل فرعون توهم بأن موسى وهرون لم يقوما إلا بنوع قوى من أعمال الشعوذة. ولذلك لمُ يبالِ بما فعلاً، ولو أنه لابُد أن يكون قد أدرك بأنه أمام قوة أعظم من قوة إلهه نهر النيل.

٢ - الضفادع: المفروض أن الضربات تتابعت فى سرعة، لدرجة أنه لم يكد يمر تأثير إحداها حتى أتت ضربة أخرى. وهكذا يمكن القول أن الضربات كلها استغرقت نحو تسعة أو عشرة أشهر. ولذلك فالأرجح أنه بعد بضعة أيام جدد موسى وهرون الطلب لإطلاق الشعب، وأخبراه بالعواقب فى حالة الرفض. لكن لم تكن هنالك إجابة للطلب، ولا قدم أى اقتراح، ولذلك كان مُحَتما أن تحل الضربة التالية.

اكتظت الأرض بالضفادع فجأة. خرجت من النهر ربوات ربوات حتي خيل بأن الأرض تتحرك بسببها، وكان من المستحيل أن يسير المرء خطوة دون أن يسحق بقدميه عشرات منها. ضفادع فى البيوت، وضفادع فى الفراش والأَسَّرة، وضفادع تُخبز مع الخُبز فى التنور، وضفادع فى المعاجن تختلط بالعجين. ضفادع بأصواتها المزعجة المملة، ضفادع فى كل مكان بجلدها البارز القذر. ضفادع من الصباح إلى الليل، ومن الليل إلى الصباح. ومما زاد فى شناعة الضربة أن الضفدعة كانت رمز آلهة الاخصاب (كثرة الولادة). ولذلك كان مُحرَّماً إبادتها.

كانت نتيجة هذه الضربة أن فرعون أظهر أول علامة للخضوع. فقد أرسل إلى موسى وهرون، ورجاهما أن يُصلّيا لكى تُرفع الضربة، ووعد بأنهما إن قبلا رجاءه أطلق الشعب: «صليا إلي الرب ليرفع الضفادع عنى وعن شعبى، فأطلق الشعب ليذبحوا للرب». ولكى يظهر موسى قدرة وسلطان الله بأكثر وضوح، طلب من الملك أن يحدد الوقت الذى يريده لرفع الضربة. ثم ذهب ليصرخ إلى الرب: «وصرخ موسى إلى الرب... **ففعل الرب كقول موسى**».

ومما يلاحظ أنه إن كان السحرَة قد قلدوا معجزة إصعاد الضفادع على أرض مصر إلا أنهم عجزوا عن رفعها. ويقينا أن الملك لم يلجأ إليهم فى هذا الصدد. فإن تخفيف آلام البشرية لا يدخل ضمن برنامج الشيطان أو أعوانه. هذا من عمل الله فقط، عن طريق صراخ عبيده المقترن بالايمان. وياله من درس تعلمه فرعون بأن الرب هو فوق كل الآلهة، وأنه هو وحده الذى يستطيع أن يفعل كل ما أراد.

٣ - البعوض :(١)كان المصريون يُراعون منتهى الدقة فى النظافة. وكان الكهنة أكثر نظافة. كانوا يغتسلون مراراً ويحلقون شعورهم لكى لا يعلق بهم أى دنس يعطلهم عن واجباتهم المقدسة، وياله من فزع تملكهم إذن عندما ظهر لهم بأن نفس التراب كان يفرخ القمل (البعوض). ولقد وجدوا أنهم لم يُعفوا من الضربة التى كانت أليمة كما كانت بغيضة لنفوسهم الرقيقة الاحساس.

لاشك أنه كان هنالك معنىً أعمق من المعنى الظاهرى لهذه الكلمات «فصار البعوض على الناس وعلى البهائم». تكاثر هذا الوباء الكريه ليس فقط على أجساد الكهنة بل أيضاً

---

(١) أو «القمل» حسب هامش الكتاب وحسب الترجمة الانكليزية.

على أجساد البهائم المقدسة. كان كل معبد يفخر بعجله المقدس أو تيسه الذي كان ينظف جلده الأملس بعناية وتوقير. وكانت مصيبة شديدة أن تُصاب هذه البهائم بهذه الحشرات الطفيلية البغيضة. هكذا أنزل الله غضبه على آلهة مصر، لكى يُدرك فرعون أن «الله» هو إله الآلهة الذى يستحق وحدة كل ولاء وإكرام. ويبدو أن السحرة أنفسهم أدركوا بأن هذه الضربة علامة على عمل قوة أعلى مما يعرفون، وهم أنفسهم أوعزوا إلى فرعون بأن يعتقد بأن هذا هو أصبع الله. كم مرة نرى أصواتاً غير متوقعة، تقرأ إلينا الدروس التى يريد الله أن يعلمنا إياها.

٤ - الذبان: لعله هو الجعران الذى كان يرمز لإله الشمس.. لقد ظهر وقتئذ بأن أقوى إله من آلهتهم قد تحوَّل ضدهم، وأصبح مُعذِباً لهم بأمر إله هؤلاء العبيد الرعاة. لقد غطى الذبان الأرض. واكتظ في البيوت، وأتلف محصول أرضهم.

ولكى يتبين أن الضرَبة ليست طبيعية فقد ميزت أرض مصر عن أرض جاسان (التى يسكنها الاسرائيليون)[١]. كان واضحاً أن الله الذى استطاع أن يحول آلهة مصر ضد عابدّيها. واستطاع أن يحمي شعبه. ولعل هذه الضربة أثرت فى قلب فرعون أكثر مما سبقها، لأنه أظهر استعداده بأن يسمح للاسرائيليين أن يذبحوا فى الأرض.

.. لم يقبل موسى هذا العرض، مُقدِماً حجته بأن الاسرائيليين سوف يُقدمُّون ذبائحهم من البهائم التى يعتبرها المصريون مقدسة، وقد يؤدى جرح شعورهم إلى ثورة عنيفة. سلم فرعون بهذه الحجة ووعد بأن يُطلقهم إن كانوا لا يذهبون بعيداً، على شرط أن يضمن موسى رفع الضربة. «ففعل الرب كقول موسى».

فى كل هذا كان موسى مجرد الواسطة، السفير، والآلة التى استخدمها الله ليعمل. كان اقتراح الضربات من قِبلَ الله القدير، وقد تم تنفيذها عن طريق الايمان القوى لعبده الأمين، الذى كان يفعل ويتكلم كما كان يؤمن. ثم أن الضربات كانت تَبطلُ إجابةً لصلوات إيمانه...

.. عن طريق إيمان كهذا يتمم الله عمل قدرته ومحبته وخلاصه بين البشر.

---

(١) وهى محافظة الشرقية الحالية.

الباب التاسع

كيف نمت صفات موسى وترعرت

«كان موسى ايضاً (أميناً) في كل بيته» (عب ٣: ٢).

خليق بنا عند درس تاريخ الخروج أن ندرس بدقة ما قيل عن الضربات التالية. على أن تاريخ اسرائيل - بالنسبة لدراستنا الحالية - عرضى بإزاء دراسة تلك الشخصية العظيمة التى كانت أبرز شخصية، فى تلك الحركة الجبارة، التى انتهت بعبور البحر الأحمر، **وستنحصر دراستنا الآن فى شخصية موسى:** والواقع أنه لأمر رائع أن نتتبع نمو صفات هذا الشخص فى شهور قليلة. فإنه بعد أن كان ضعيفاً مُتردداً فى مديان، أصبح ذا صفاتٍ أدبية سامية نبيلة، جعلته «عظيماً جداً فى أرض مصر» فى نظر كبار موظفى القصر الملكى. وكذا فى نظر عامة الشعب (خر ١١: ٣).

ونحن نستطيع أن نتتَّبع نمو صفاته فى الضربات الباقية. واذ نفعل هذا نكتشف يقيناً **أن سر النمو ينحصر فى الطاعة السريعة التى لا تُحاجج، وعدم المبالاة قط بالآراء البشرية، وقوة القصد، والصبر الذي لا يكل، والشجاعة التى لا تلين، والثبات فى الايمان، والمواظبة على الصلاة.**

(١) ضربة المواشى: فى بداية خدمة موسى، نراه يُحاجِج الله مراراً قبل أن يشرع فى إتمام الرسالة الإلهية: «من أنا حتي أذهب إلى فرعون»؟ (خر ٣:١١)، «ها أنا أغلف الشفتين فكيف يسمع لى فرعون»؟ (خر ٦:٣). كان موسى يحتاج إلى إقناع كثير، ورجوات كثيرة - إن جاز لنا إستعمال لغة البشر - لكى يتمم كلام الرب.

لكن كل ذلك قد تلاشى وقتئذٍ . فمع أنه قابل الملك سبع مرات، على الأقل، وفى كل مرة كان يحمل أنباءً ثقيلة، وفى كل مرة كان يزداد بُغض فرعون وحاشيته له، ومع أن كل مقابلاته فشلت إلى ذلك الوقت، فى إتمام القصد العظيم الذى وضَعَه الله أمامه، فإنه لم يُظهر أى تردُّد قط، ولم يحاجج الله أبداً عندما أمره للمرة الثامنة، بأن يقابل الملك لكى يطلب منه بأن يطلق الشعب، وإلا هدد بوبأ يصيب المواشى.

يجب أن لا نُقلل من شأن **نتائج الطاعة البسيطة،** التى لا تتحاجج في نمو الصفات. كان رفض الله لشاول أول ملك فى اسرائيل، وأختياره لداود، يدوران حول هذه الحقيقة: أن الأول لم يُطِع صوت الرب فى إتمام وصاياه، وكان الثانى رجلاً حسب قلب الله، وصنع مشيئته (أع ١٣:٢٢). وفى خطاب الرب الوداعى لتلاميذه تراه يكرر بشدة ضرورة الطاعة. **فالطاعة دليل المحبة، والشرط للرؤى الإلهية، والممهد للشركة العميقة بين الله والانسان.** وبقدر ما نطيع بقدر ما نحصل على الصفات النبيلة، الكامنة فى قلوبنا كالبخار، إلى أن تتكثف بعمل الطاعة، وتُصبح فيما بعد قنية دائمة. وعدم الطاعة أو «العصيان» معناه عدم الإيمان (عب ٤:١١). ومن ذلك نستنتج أنه كما تكون طاعتنا يكون إيماننا، تمسك بما تعتقد أنه هو واجبك، تمم وصايا الله. لا تتباطأ منتظراً أن تفكر فى النتائج. إن قال الله «اذهب إلى فرعون وقل له» وأطعت ، فإنه الله لا يقيمك على مهام أعظم فقط، بل تحصل على صفة لا يمكنك الحصول عليها بأى قدر من التأملات الروحية أو الصلاة.

حلت ضربة المواشى فى الوقت المحدد. «فماتت جميع مواشى المصريين». المواشى التى كانت ترعى فى مراعى النيل الخضراء. خيول الأثرياء التى اشتهرت بها مصر، حمير الفقراء، الجِمَال التى كانت تحمل بضائع مصر إلى مسافات بعيدة بالمبادلة بالكثيراء والبلسان واللاذن (تك ٣٧: ٢٥)، الثيران التى تحرث الأرض، الغنم التي تعتبر جُزءاً من ثروتهم. بهذه كلها حلَّت الضربة. امتلأت الأرض بالموت. افتقر جداً أصحاب الاراضى، واشتدت فاقة الفقراء، وأصبَّح ألوف الرُعاة عاطلين، وتوقفت حركة مواصلات الأعمال التجارية. وهكذا ظهرت خطورة هذه الضربة. وفى نفس الوقت سيَّج الله بعنايته حول شعبه فى أرض جاسان: «وأما مواشى بني اسرائيل فلم يُمت منها واحد»!!.

(٢) الدمامل والبثور: عندما نريد أن نُقدّر أعمال إنسان يجب على الدوام أن نتأمل أولاً فى صفات ذلك الانسان نفسه. فبعض الأعمال تكون متجانسة مع بعض الميول والطباع ومتنافرة مع غيرها. وإن كان مستحيلاً أن تجد تفاحاً فى شجرة العنب، فمن المستحيل أيضاً أن تجد التفاح والعنب مقترنين معاً. من الغريب جداً أن نجد نواحٍ معينة الصفات ولا نجدها فى صفات أخرى. هذا يشبه وجود طبقة من الصخور فى الطبقة الجيرية. ويقينا أن الأمر كان يحتاج إلى مجهود عنيف لكى يُستخدَّم موسى كواسطةٍ لضربات كهذه، ولكى

يعرض لأن يكون مبغضاً بشدة. لقد كان بطبيعته رقيقاً لطيفاً وديعاً حليماً، كان دواماً مستعداً لكى يصلى بأن تكفُّ الضربة. ولم يكن مستعداً قط لكى يصلى بأن تحل. كان يعطف ويُشفِق على أخته وأخيه، بالرغم من إساءاتهما البالغة إليه. كان مستعداً أن يُحرَم من الحياة الأبدية، لو كان ذلك يؤدى إلى خلاص شعبه (خر ٣٢: ٣٢). إن رجلاً اشتغل أربعين سنة فى رعاية الغنم كان خليقاً به أن يحمل قلب الراعى الرقيق اللطيف. ولهذا فلم يكن هيناً ذلك المجهود الذى بُذِل معه ليكون واسطة فى حلول آلام مريرة كهذه. لكن هذا كان نصيبه فى محاولاته للإعلان عن عظمة الله وسُلطانه.

على أنه لم ينثنِ عن عزمه قط. لم يفكر فى أن يكون أكثر شفقة من الله. ولذلك فعندما أمر هو وهرون بأن يأخذا رماداً من أتون منطفئ، ويذرّياه نحو السماء، ليصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور، لم يتردد. واذ أخذ حفنة من رماد في يده اقترب من فرعون فى مناسبة عامة إذا كان هو وحاشيته وسحرته مجتمعين، فى الهواء الطلق، وذّراه موسى نحو السماء. فكانت النتيجة سريعة جداً حتى لم «يستطع العرّافُون أن يقفوا أمام موسى من أجل الدمامل، لأن الدمامل كانت فى العَّرافين وفى كل المصريين» (ع١١). ولعل الدمامل اخترقت أيضاً أبواب الهيكل المقدس، ووصلت إلى البهائم التى كانت محفوظة بحرص، ومُبعدَة عن كل شائبة، على أساس أنها هى آلهة الأمة (عد ٣٣: ٤).

(٣) البَرَد: مما يلاحظ أنه في الضربات الأخيرة يختفى هرون بالتدريج عن الأنظار. ففى الضربات الثلاث الأولى قال الرب بوضوح لموسى «قل لهرون» (ص٧: ١٩، ٨: ٥، ١٦). وفى الرابعة (ص٨: ٢٠) والخامسة (ص ٩: ١) كانت كلمة الرب إلى موسى وحده. وفى السادسة صدر الأمر لكليهما معاً (ص ٩: ٨). أما فى هذه الضربة، وهى السابعة، فقد صدر الأمر إلى موسى وحده «ثم قال الرب لموسى مد يدك نحو السماء ليكون بَردَ (كرات ثلجية) فى كل أرض مصر» (ص ٩: ٢٢) وهكذا فى أمر ضرّبتى الجراد (ص ١٠: ١٢) والظلام الذى يُلمس (١٠: ٢١).

لم يخبرنا الكتاب المقدس عن سبب هذا. لم يظهر لنا أن هرون قد فَقَد مركزه بسبب سوء تصرُّفه. لكن لعله لم تتوفر فيه البساطة والاستقامة وطهارة القصد التى تميَّز بها أخوة. ثم أن إيمان موسى نما فى كل مرة اختبر فيها أمانة الله وقدرته، إلي أن أصبح مقتدراً علي أن يعمل كأنه أداة طيعَّة للإرادة الإلهية. وعلى أية حال، فإن موسى كان يتقّدم إلى الأمام بصفة مستمرة، كُممسك للعصا صانعة المعجزات، وكمُحرّر لإسرائيل.

وفى الضربة الحالية أيضاً يبدو أنه قد حصل على درجة مُدهشة من القدرة على الكلام. فالشفتان المتلعثمتان أصبحتا فصيحتين، واشتعلتا بنار غير منتظرة. كأنه قد أحس فجأة أنه غير محتاج إلى وساطة هرون. وأن فى استطاعته المطالبة بالكلام الذى وعَدَه الله أن يضعه فى فمه. أو ليس مُعزياً جداً أن نجد بأن الرب لم يُلزِمه بالعرض الخاطئ الذى اقترحه أن يكون هرون هو لسان حاله؟ (خر ٤: ١٥ - ١٧) **لعلنا قلنا فى الماضى بعض أشياء بتعجُّل نأسف عليها اليوم بشدة.** لكن إن أظهرّنا بأننا جديرون بمهام أعظم مما حدده إيماننا الضعيف، فإن الله لا يربطنا بكلامنا، بل يفتح أمامنا إمكانيات لم نكن نحلم بها، ولا يصبح هرون لسان حالنا فيما بعد، بل نقف ونتكلم عن أنفسنا.

كان الأنذار الذى أُعطِى لفرعون فى ذلك الصباح الباكر خطيراً جداً. لكنه عبثاً أُعطِى. لقد قسىَّ قلبه مِرَاراً كثيرة حتى أصبح الأنذار والرجاء بلا جدوى، كنزول المطر والشمس على الجرانيت، بل إنهما عملاً على زيادة قساوة قلبه. ليس هنالك ثلج أقسى من ذلك الذى يذوب بالنهار ويتجمد بالليل.

وهكذا هبت العاصفة. فإنه حالما رفع موسى عصاه صعدت من البحر سُحُب كثيرة جداً، وكثيفة جداً، محملة بالرعد، وغطت الأرض، وصبت محتوياتها فى رعد وبَرَدَ ونار. العواصف - فى أى نوع من أنواعها - نادرة جداً فى مصر، أما البرد والنار المتواصلة هذه فكانت «شيئاً عظيماً جداً لم يكن مثله فى كل أرض مصر منذ صارت أمة». هنالك إشارات عديدة فى سفر المزامير لهذه الضربة. ونحن نستطيع أن نستمع إلي قصف الرعد، ونتبين الخراب الذى أحدثه البَرَدَ، فى المزامير. وفى فترات قصف الرعد، التى فيها أعطى القدير صوته، نستطيع أن نستمع إلى أصوات نزول البَرَدَ وأنفجار جمر النار (مز ١٨: ١٢ و١٣).

لقد هلكت الكروم بالبَرَدَ، والجميز بالصقيع، وتحطمت أشجار الغابات، والكتان والشعير ضُرِباً وَتلِفاً بالكلية. أما المواشى والرعاة الذين بقوا فى الحقل فى العراء، تحدياً للإنذار الذى أعطى، فقد قتلتهم كرات البَرَدَ التى من السماء وكانت ثقيلة كالمطر، هذا هو جزء من وصف رُعب ذلك المنظر (مز ٧٨: ٤٧ و٤٨، ١٠٥: ٣٢، خر ٩: ٣١). أما أرض جاسان (الشرقية) فقد نجت من هذه الكارثة كلها.

وفى وسط هذه العاصفة القاصفة دُعِيَ موسى وهرون لمقابلة الملك، ليسمعا لأول مرة الاعتراف بالخطية، من هاتين الشفتين المتكبرتين المتغطرستين (خر ٩: ٢٧)، مع رجاء حار بأن تَكُف ضربة البَردَ والرعد، التي كانت تهز القصر وكل المدينة. لم يشك موسي فى استجابة صلاته، لكنه كان يشك كثيراً فى صَدِق كلمة الملك. وعلى أية حال، فقد فعل كما طلب فرعون. وإذ جاء وسط العاصفة، دون أن يصيبه أى أذى، خرج من أبواب المدينة إلى الخلاء. وكأنه كان ساكناً فى سِتر العلي، وفى ظل القدير يبيت. ثم رفع يديه، وتوَّسل من أجل أرض ظالمى شعبه. واستجاب الله إلى طِلبته، «فانقطعت الرعود والبَرَد، ولم ينصب المطر على الأرض» (ع٣٣).

(٤) **الجراد :** كانت نغمة صوت موسى ترتفع قليلاً قليلاً في كل احترامه لوعوده، سبباً فى تغيير العلاقة بينهما. لم يعد فرعون يستحق أى احترام. لقد أعطى وعوداً كثيرة، ولكنه نقضها. لقد اعترف بخطيته، ولكنه لم يبذل أى مجهود لتغيير خطته. لم يعد بعد يجهل الرب، لكنه **تعمَّد العناد والتحدّيِ.** لقد أصبح محتقراً بكيفية مُزرية لأنه صار ضعيفاً، متذبذباً، ذليلاً فى وقت الشدة، متغطرساً عنيفاً فى وقت الرخاء. لهذا غيرّ موسى نغمة صوته. فلم يعامله بعد كملك، بل كخاطئ. وتحدث مباشرةً إلى قلبه المتعجرف العنيد: «هكذا يقول الرب إله العبرانيين إلى متى تأبىَّ أن تخضع لى»؟. ثم هَدَده بضربة الجراد إن هو تمادى فى الرفض.

كان المصريون يعرفون معنى ضَربةَ الجراد. ولذلك توسل عبيد فرعون إليه بأن يرضخ لطلب قائدىّ العبرانيين. وقالوا: «خير لنا أن نفقد أمة من العبيد عن أن نعرض الأرض للخراب». ومن تلك اللحظة بدأ التمييز بين قوة ملك مصر، وقوة الله الذى اتضح له لأول مرة أنه أقدر منه.

عرض فرعون عليهما اقتراحاً، بناءً على توصية عبيده. ارتضى أن يطلق الرجال فقط. وهددهما بالشر إن رفضا هذا الاقتراح. لكنهما لم يترددا لحظة فى الرفض. لم يكن ممكناً قط قبول الاقتراح. لهذا أصرا على أن يذهب الصغير والكبير، البنون والبنات، الغنم والبقر، الجميع يذهبون. يجب أن لا يتغيَّب أحد فى ذلك الأجتماع العظيم الذى يعقد فى مكانٍ ما فى البرية، لإقامة عيد للرب. لم تسمع الحاشية قط من قبل أن يُخاطَب فرعون العظيم بمثل

هذه اللهجة. ثم أنه لم يحتمل هذا الحديث الجرئ. ولهذا طُرِدَ موسى وهرون، من أمام فرعون، بمجرد إشارة منه لرجاله.

أتى الجراد بريح شرقية هبت من الصحراء، وحل على الأرض يوماً كاملاً وليلة كاملة. «ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد، فصعد الجراد على كل أرض مصر وحل فى جميع تخوم مصر» (ع١٣ و١٤)، ملأ الجراد الجو «وغطي وجه كل الأرض» (ع١٥). أصبح وجه الأرض الأخضر أسمر بسبب لون الجراد. واختفى فى الحال كل زرع أخضر، وكل أوراق شجر الفاكهة الخضراء، وكل عشب أخضر - هذه التى أحبها المصريون. «لم يبق شئ أخضر فى الشجر، ولا فى عشب الحقل ولا في كل أرض مصر» (خر ١٠: ١٥). لقد سبق أن نفقت البهائم، والأن تتلف محصولات الأرض.

لابد أن تفنى الضربة القادمة كل البشر، واذ ملأ الفزع والرعب قلب الملك أرسل إلى الرجلين اللذين سبق أن طردهما من حضرته، منذ وقتٍ وجيز، واعترف بأنه لم يخطئ فقط إلى الرب الذى أصبح الآن ماثلاً أمام ضميره، بل أخطأ إليهما أيضاً «أخطأت إلى الرب إلهكما وإليكما». وتوّسل إليهما أن يرفعا عنه هذا الموت.

يالرحمة الله وطول أناته. فإنه إجابة لصلاة موسى «رد الرب ريحا غربية شديدة جداً، فحَملت الجراد وطرحته إلى بحر سوف (البحر الأحمر) لم تبق جرادة واحدة فى كل تخوم مصر» (ع١٩). لكن فرعون تراجع فى كلامه مرة أخرى.

(٥) الظلام : وبدون إنذار، حل الظلام علي الأرض كغطاء «حتى يلمس الظلام (ع ٢١). تعصف العواصف الرملية أحياناً فتسبب ظلاماً كثيفاً، حتى يصبح مستحيلاً أن يرى المرء يده إذا أقتربت أمام وجهه. ومهما اختلفت الأسباب، فلا شك فى أن ظلام تلك الضربة كان كثيفاً بالكيفية التى وُصِف بها.

«لم يبصر أحد أخاه، ولا أقام أحد من مكانه ثلاثة أيام» (ع٢٣). شُلَّت كل حركة فى الأرض. وارتعبت أقسى القلوب. وبدأ كأن إلههم الأعظم قد هجرهم فجأة ونبذ قضيتهم. ولعلهم اعتقدوا بأنهم سوف لا يرون النور مرة أخرى. لقد كان اختباراً أليماً فى تلك الأرض التى تشرق فيها الشمس ساطعة بصفة مستمرة. والتحفت بالظلام الهياكل نفسها، حتي

عجز الكهنة عن رؤية البهائم المقدسة. بل عجزوا عن إتمام واجباتهم الدينية العادية. ولأول مرة - منذ أجيال عدة - لم يحيى تمثال ممنون أشعة شمس الصباح بالموسيقى.

وعندما زالت الضربة، استدعى الملك الأخوين، للمرة الأخيرة، وعرض عليهما اقتراحاً نهائياً. قال لهما إن الأمة كلها يمكنها أن تذهب، غير أن الغنم والبقر يجب أن تبقي. لكن موسى أدرك الحيلة، وفضحها، وقال: «تذهب مواشينا أيضاً معنا. لا يبقى ظلف» (ع٢٦). وواضح أنهم كانوا يحتاجونها ليُقدِّموا ذبائحهم منها (غ٢٥). لكن قلب فرعون تصلف ثانيةً، وتغطرَّست روحه، ولم تؤثر فيه التأديبات المتوالية. واحتدم غضبه، كأنه لم يعد يطيق الصبر بعد، وقال «أذهب عنى. اخترز لا ترَ وجهي أيضاً. إنك يوم ترى وجهى تموت» (ع٢٨).

احتدم غضب موسى أيضاً. مع أنه لم يغضب إلا نادراً. وكان غضبه كعاصفة هبت على بحيرة هادئة (خر ١١: ٨). لكنه أجاب الملك بهدوء ورزانة، كما يليق بسفير الله: «فقال موسى نِعَماً قُلت. أنا لا أعود أرى وجهك أيضاً» (ع٢٩). ولكنه إذ أدار كتفه ليغادر القصر، رفع صوته، ووجه إنذاراً رهيباً مُرعباً إلى ذلك الملك، الذى تعمّد أن يختار الشر إلهاً له، والخراب والدمار نصيباً له. «وقال موسى هكذا يقول الرب إنى نحو نصف الليل أخرج فى وسط مصر. فيموت كل بكر فى أرض مصر، من بكر فرعون الجالس على كرسيه، إلى بكر الجارية التى خلف الرَحي، وكل بكر بهيمة. فينزل إلى جميع عبيدك هؤلاء ويسجدون لى قائلين أُخرج أنت وجميع الشعب الذين فى أثَرِك. وبعد ذلك أَخرُج» (ص ١١: ٤ - ٨).

وهكذا رأينا قصبة مديان الضعيفة، تصبح صخرة تتحطم عليها العاصفة، والرجل الذي هجر القصر خائفاً مرتعداً يدخله كملك. والإيمان الذى هرب من أمام العصا التى تحولت الى حية (خر ٤: ٣) أصبح الآن قوياً جداً واستطاع أن يُمسك بصواعق السماء، ويجلب الخراب والدمار علي كل أرض مصر.

✝ ✝ ✝

الباب العاشر

الاستعداد للخروج

«وكان عند نهاية أربعة مئة وثلاثين سنة...أن جميع أجناد الرب خرجت من أرض مصر»(خر١٢:٤١)

رأينا كيف أن موسى- خلال تلك الشهور الأليمة- كان هو الواسطة التى استخدمها الله لإتمام مقاصده أولا أنارة عقل فرعون، وثانيا فى اخضاع كبريائه وعناده. وسبق أن رأينا كيف أنه عن طريق ايمان هذا الرجل- الايمان الذى كان يتزايد بشدة- أتت البرَكَة الى الشعب المختار.

حلت الضربات الثلاث الأولى ببنى اسرائيل كما حلت بالمصريين. ولكن لما هدد الأخَوَان فرعون بالضربة الرابعة أمرا بأن يبلغا الرسالة التالية باسم الرب«ولكن أميز ذلك اليوم أرض جاسان حيث شعبى مقيم»(٨:٢٢). ومن تلك الساعة لم يتعَّرض بنو اسرائيل للضربات المروعة، التى خَرّبت مصر. فى كل مرة كان موسى يقول إن الرب يتمم ما قاله، فكان يحدث حسب إيمانه. لم يحل الوباء ببهائمهم. ولم تُصب أجسامهم بالدمامل والبثور. ولم تجتح العاصفة حقولهم. ولم يُتلِف الجراد محصولات أرضهم. ولم يحجب الظلام الشمس عنهم. وهكذا إذ كان مضطهدوهم يعانون ضيقات وشدائد، كانوا هم(العبرانيون)فى سلام. وعندما منع الظلام المصريين من أن يتحركوا، كان لشعب جاسان المضطهدين الوقت الملائم للإستعداد للخروج، الذى كان يعرف موسى- على الأقل- أنه قريب على الأبواب.

ونحن اذ ندرس هذه الرواية العجيبة، يجب أن لا نتجاهل النور الذى تُسِلّطه عليها تلك الكلمات البديعة«بالايمان صنع(موسى)الفصح ورش الدم، لئلا يمسهم الذى أهلك الابكار»(عب١١:٢٨)والنقطة الجوهرية فى هذه الكلمات تنحصر فى هذه الحقيقة. وهى أنها تَنسِب إتمام الفصح، ورش الدم على قوائم أبواب العبرانيين، وصيانة الشعب العبرانى

من هلاك الابكار، الى الايمان العظيم المشتعل فى نفس ذلك الرجل البسيط القلب، الذى كانت طاعته الكاملة مماثلة لايمانه الكامل، الذى يتجاسر بأن طالب الله باتمام كلمته.

(١) كان ايمانه يرتكز على وعد:

كل ايمان يجب أن يرتكز على هذه القاعدة. يجب أن تكون هنالك كلمة صريحة، أو وعد واضح، من ذاك الذى يعتمد عليه الاعتماد المطلق، والا فلا يوجد هنالك أى أساس يبنى عليه الايمان. هنا نجد الفرق بين الايمان والتصدِّيق بين الايمان والأوهام الباطلة الناشئة عن التصوَّرات الفاسدة.

لا نستطيع أن نحدد الطريقة التى بها أتت الكلمة الالهية لهذين الأخوين. هل أتت كما يكلم الانسان صاحبه؟ لو كنا فى رفقتهما أكان ممكنا أن نسمعها بآذاننا الغلفاء؟ أم كانت تأثيراً قلبياً انبعث من مصدر النور؟ وعلى أية حال، فمهما كانت هذه الطريقة، ففى تلك الكلمات التى أُعلنت أولا، ما يجب أن يفعله الاسرائيليون، ثم بلا تلك الخطوات التى سوف تُحطم نهائياً الأغلال من أيدى العبيد، وتُحرّر الأمة- فى ليلة واحدة- فى تلك الكلمات تبيَّن موسى وهرون الصوت الذى سبق أن أمرَهما بالذهاب الى فرعون، ليوَّجها اليه الدعوة، مكررة بالخضوع والتسليم.

وكانت هذه هى التعليمات التى أُعطِيَت. فى اليوم العاشر من الشهر التالى: يختار كل رئيس أسرة- عبداً أو شيخاً- حَملاً بكراً خاليا من المرض، ومن أى عيب. وإن كان البيت صغيراً عن أن يكون كفوا لحَمَلٍ، فيمكنه أن يشترك فيه مع بيت جاره. ولم يذكر أى شئ عما إذا كان الحَمل صغيرا للبيت. فيسوع فيه الكفاية للجميع، وفيه الكفاية لكل انسان، وفيه الكفاية الى الأبد.

كان الحَمَل يُحفظ من اليوم العاشر الى اليوم الرابع عشر من الشهر، ويُذْبح فى مساء هذا اليوم الأخير. واذ يتدفق الدم حاراً من الجرح كان يُجَمع بحرص فى وعاء. ثم يُرَّش على قائمتى الباب، وعلى العتبة العُليا، حيث يسكن الاسرائيليون. ثم يُشوَّى الحَمَل صحيحاً، ويؤكل مع فطير وأعشابُ مُرة.

ثم أعطيت أيضا تعليمات عن الكيفية التى بها يأكلون تلك الوليمة. كانت الأسرة كلها تجتمع حول المائدة، من الشيخ الى الطفل الرضيع. ويجب أن لا تظهر أية علامة للتباطؤ أو الكسل. الرجال يمنطقون أحقاءهم ـ استعداد لرحلة طويلة - وعصيهم فى أيديهم. والنسوة يحملن عجينهن ومعاجنهن مصرورة فى ثيابهن(ص١٢:٣٤)لسهولة حملها على أكتافهن. والجميع تكون أحذيتهم فى أرجلهم. ثم يأكلون بعجلة(ع١١). وهكذا كانت الأمة كلها مرهفة السمع، لتسمع أول هتاف بالبوق، ومنتظرة أول اشارة للخروج يسترها الدم. ولقد كان الرب يدخر لهم قوة تُعينَهم على تحَّمل الأعباء التى كان يجب أن يتحملوها قبل مغادرة أرض العبودية الى الأبد.

كان هنالك إذن فرق شاسع بين موقف الاسرائيليين فى هلاك الأبكار، وموقفهم فى الضربات السابقة. ففى تلك كانوا لا يتحركون قط، لكنهم انما كانوا ينتظرون ليحصدوا ثمار الانتصار المتتالية التى حازوها عن طريق بطلهم العظيم. أما الآن فقد دُعُوا ليحصدوا الثمار التى لا يمكنهم الحصول عليها، إن لم يوفُّوا الشروط المطلوبة. وإذا طُلِب منهم الإيمان والطاعة لابُد أن يكون المتقدمون منهم على الأقل قد امتلأوا شعورا بأن هنالك فى هذه العملية كلها معنىً أعمق مما كان يبدو فى الظاهر وأن هنالك نتائج أبدية تعمل عملها لم يستطيعوا أن يتبيّنُوها تماماً الى ذلك الوقت.

ولابُد أن يكون موسى- على الأقل- قد أحس بأن الله كان فى الواقع يقول لشعبه بأنهم من بعض الوجوه ليسوا أقل شراً من المصريين المحيطين بهم. لم يكن كافياً أن يحتجوا بأنهم لم يصلوا الى درجة العناد وصلابة القلب مثل فرعون وشعبه. ألم ينسوا السبت، ألم يعبدوا آلهة أخرى؟ ألم يشتركوا مع المصريين فى نجاسة عبادتهم الوثنية؟ من أجل هذه- على الأقل- كانوا خطاة فى نظر الله، مُعرَّضين لفقد أبكارهم فى بيوتهم، الا إذا رَشُوا الدم على قوائمها.

واذ تليت عليهم كل هذه الشروط، تبعتها كلمات الوعد التى ركز فيها موسى ايمانه منذ ذلك الوقت«انى اجتاز أرض مصر هذه الليلة وأضرِب كل بِكْرٍ فى أرض مصر، من الناس والبهائم...**فأرى الدم وأعبر عنكم**. فلا يكون عليكم ضربة للهلاك، حين أضرب أرض مصر»(ع١٢و١٣).

(٢) ودَفَعه إيمانه للعمل:

لقد جمع شيوخ اسرائيل، ونقل اليهم التعليمات التى تلقَّاها. وسواء أكانوا قد تلقوا إلهاماً بقُرب نجاتهم، أو أنهم صَدقُوا قائدهم العظيم، لدرجة لم تكن مُمِكنة من قبل، فمن المؤكد أنهم لم يعترضوا كلامه، أو يقدموا أى اقتراح مخالف. «فخر الشعب وسجدوا. ومضى بنو اسرائيل وفعلوا كما أمر الرب موسى وهرون. **هكذا فعلوا**»(ع٢٧،٢٨).

جميل جدا للبَشر والملائكة أن ينظروا إيماناً يسير فى طريق الطاعة الكاملة، دون أية مظاهر خارجية تُدعّمه وبالرغم من أنه لا يوجد إلا خيط رفيع يُستند عليه. كان خلاص شعبه بسبب رش الدم على قوائم أبوابهم يبدو أمرا عجيباً جداً لا يُصَّدق مُطلقاً لم تكن له سَوابق، ولم يكن هنالك سبب معقول يُبَّرر أمراً كهذا، للمنطق العادى، ولم يكن يُعقَّل أن للطاعة أى دخل فى النجاة لعل أفكاراً كثيرة خَطَرت ببال موسى، لكنه طردها من مخيلته، وأطاع بكل بساطة، واثقا أنه لا يوجد هنالك خطأ ما، ولا يوجد ظل للتحول فى ذلك الذى سلم اليه كل أمر.

آه، ليت ايماناً كهذا يكون من نصيبنا الايمان الذى لا يُحاجج، ولا «يتساءل ولا يطلب المبررات، بل يثق أن مواعيد الله فيها النعم وفيها الأمن»(٢كو١: ٢٠)فى المسيح، وأن مايقوله عن قبوله لكل من يؤمن بالمسيح، وعن إجلاسنا معه على عرشه، وعن محبته ايانا، - بالمحبة التى يحب بها الآب ابنه - هو يريد ويقدر أن يُتمّمه فى حينه.

- **وايمان كهذا لابُد أن ينقل عدوآه للآخرين.**

كيف حلت بمصر الكارثة فى تلك الليلة العاشرة من شهر أبيب الخالدة؟ ألم يكن الهواء ثقيلاً جداً بسبب رُعب تلك الضربة القادمة؟ ألم يصرخ الكهنة صرخات مُدّوية، منذرين بالضربة المروعة القادمة سريعا؟ ألم ترفرف أجنحة ملاك الموت، فوق الأرض التعسة قبل أن يضرب الشعب المصرى بسيفه؟

يقينا إن حصول الاسرائيليين على هدايا كثيرة، من الحُلى والثياب من المصريين كان دليلا على اعتقاد الطرفين بقُرب الرحيل وعلى أية حاله فإنه فى نفس الوقت كان هنالك من الجانب الواحد تشاؤم وتُردد وقلق وحيرة، ومن الجانب الآخر كان هنالك انتظار ورجاء.

لقد أشغل ايمان موسى إيماناً فى ثلاثة ملايين نفس، وقفوا مستعدين لذبح الذبائح التى تنتظرهم، ورش الدم، وبدء الرحلة الطويلة، دون أن يُخامرَهم أقل شك، فى أن أبكارهم سوف لا يمسهم الملاك المُهلك. ولم يتطَّلع أى أب لإبنه بحَسَرة، لم تنزعج أية أم متوقعة أن تسمع حفيف أجنحة ملاك الموت، ولم ينزعج أى ولد متوقعاً اقتراب الموت. كان يكفيهم أجمعين أن يقول الله بأنه عندما يرى الدم يعبر عنهم.

ومع أنهم لم يستطيعوا أن يروا قصد الله، أو يفهموه، أو يسبروا غوره، فإنهم كانوا يُدركون أن الدم هناك يتكلم عنهم ولهذا آمنوا أن كل شئ يهدف لخيرهم. ومع أنه لم يعرف أى واحد بالضبط الجهة التى يقصدونها، ولا عرف كيف سيصل إليها، إلا انهم لم يَشكُّوا فى النتيجة السارة المُفرِحَة.

(٣) ولقد تزكَّى إيمانه:

منْ ذا الذى يستطيع أن يصور تلك الخالدة فى تاريخ البشرية، التى فيها - كما يقول أحدهم - ولد التاريخ نفسه، تلك الليلة التى أخرج فيها الله اسرائيل من بيت العبودية؟ كان ذلك فى بداية فصل الربيع، وعندما كان القمر بدرا يعكس أشعته الفضية على الأرض من تحته. وكان الصمت يسود كل الأرجاء فى هدوء الليل البهيم.

فجأة قطع حبل الصمت صراخ أم اندفعت من بيتها لتخبر بأن ملاك الموت بدأ عمله، فأجابتها أم أخرى بعويلها ونحيبها على ابنها البكر، ثم ثالثة ورابعة. كان غير مجد أن يدعى الكهنة أو الأطباء، السحرة أو المنجمون، فكيف يستطيع أن يعين غيره من لم يقدر أن يدفع الموت عن فلذة كبده؟ اشتركت الخادمة التى تطحن على الرحى مع سيدتها الثرية فى حزن مشترك لم يميز بين شخص وآخر«لم يكن بيت ليس فيه ميت»، بل لم يعف من الموت قصر فرعون نفسه. فسرعان ما ذاعت الأنباء بسرعة البرق بأن ولى العهد مات«كان صراخ عظيم فى مصر».

آه يا مصر، مهما كانت تلك الليلة مريرة فانها لا تعادل الاساءات التى لقيها اسرائيل على أيدك أجيالا طويلة. لم تكن دموعك سوى قناة صغيرة بالنسبة لأنهار الدموع التى انسكبت من أعين ذلك الشعب الشجاع الذى أجبر على تحويل التراب الى لبن دون أن ينال أجرا سوى ضرب السياط. ليست خسارتك - فى حياة ناعمة نبيلة - خسارة ضئيلة

بالنسبة لآلاف الأطفال الذين طوح بهم فى نهر النيل، أو آلاف الرجال الذين استشهدوا فى عملية اللبن القاسية. ومهما كان صراخك أليما يمزق القلب فليس سوى همس بالنسبة لعويل الأمهات وتنهداتهن اذ كان أطفالهن ينتزعن من أحضانهن، وأنات المضطهدين اذ كانوا يرون أعزاءهم يرزحون تحت نير عبودية لا مفر منها، أو صرخات الرجال الذين كانوا يساقون الى العذاب.

«فقام فرعون ليلا، هو وكل عبيده، وجميع المصريين. فدعا موسى وهرون ليلا وقال: قوموا اخرجوا من بين شعبى»(ع٣٠و٣١). لم يكن هنالك أى مجال للمناقشة. يجب ءن يخرجوا، شعبهم، وأطفالهم، وممتلكاتهم. وردد ربوات من الشعب صوت الملك. كانت رغبة المصريين الملحة هى أن يتخلصوا منهم بكل سرعة مهما كان الثمن. وقد ارتضوا بسرور أن يعطوهم كل ما طلبوا. وهكذا ردوا جزءا من الأجر الذى حرموا منه طويلا. وحتى فرعون، الملك المتغطرس، توسل اليهم بأن يباركوه قبل أن يخرجوا.

وهكذا بدأت الجماعة تخطو أول خطوة فى سبيل الحرية. ولأول مرة أدرك الاسرائيليون أنهم أمة، ولأول مرة تنسموا نسيم الحرية. كانوا مجرد جماعة من العبيد فتحولوا بغتة الى شعب. ولقد ألهبت فيهم روح قائدهم روح الحياة والانتعاش. كانت هنالك نار فى عيونهم، ومرونة فى خطواتهم، وشجاعة فى قلوبهم، وهذه كلها كانت تتحدث عن موقفهم. وعندئذ امتلأت أفواههم ضحكا. وألسنتهم». (مز١٢٦:٢). لقد شمر الله عن ذراعه لنجاتهم. وحل فيهم الاغتباط الذى كان مزمعا أن يتحول عن قريب الى هتاف الفرح على شاطئ البحر الأحمر.

أيتها النفس المستعبدة بعبودية أقسى من عبودية فرعون ان ما فعله الايمان لهم يمكن أن يفعله لك ولى. ان طلبت النجاة حظيت. اصغى الى الترنيمة التى أنشدت مبشرة باقتراب عمل المسيح«أن يعطينا أننا بلا خوف منقذين من أيدى أعدائنا نعبده بقداسة وبر قدامه جميع أيام حياتنا»(لو١:٧٤:٧٥). هذا الوعد هو لنا. نحن أيضا نستطيع أن نغلب بدم الحمل، وبكلمة شهادتنا(رؤ١٢:١١). بالايمان نستطيع نحن أيضا أن ننال المواعيد، ونسد أفواه أسود، ونطفئ قوة النار(عب١١:٣٣،٣٤). كل ما عليك هو أن تطالب بحريتك، وعندئذ تستطيع أن«تطأ الأسد والصل، الشبل والثعبان تدوس»(مز٩١:١٣).

✝ ✝ ✝

الباب الحادى عشر

عبور البحر الأحمر

«والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم. فخلص الرب اسرائيل من أيدى المصريين»
(خروج١٤:٢٩-٣٠)

بعد مرور فترة وجيزة، من ساعة نصف الليل تحركت كل جماعة اسرائيل، وشرعت فى الارتحال. وعندما أشرقت أشعة نور الصباح الأولى كانوا سائرين فى طريقهم، الرجال فى خمسة صفوف، تتبعهم الزوجات والأولاد والمتاع والمواشى.تحرك الجمهور العظيم من أماكنهم المختلفة، متجهين نحو نقطة رئيسية واحدة يلتقون فيها، هى سكوت، وكان عددهم لا يقل عن مليونين ونصف مليون، إذ أن عدد الرجال كان ستمائة ألف.

ولعل موسى كان يقود أكبر فرقة. وإننا لنتخَّيل وجهه تبدو عليه علامات الفخر المقدس، الممتزج باتضاع عميق، لأن الله شرفّه بأن يستخدمه كآلة فى يده، لإتمام خلاص عظيم كهذا.

كانت سكوت تبعد نحو خمسة عشر ميلا من مكان بدء ارتحالهم. وهنالك، فى سكوت، حطوا رحالهم، وكانت أول مكان يستريحون فيه طويلاً. هنالك خبزوا فطيرهم من العجين غير المختمر، الذى حملوه معهم من مصر. هنالك استراحت النسوة والأطفال المكدودون فى مظالٍ أقاموها بسرعة من أوراق وأغصان أشجار تلك المنطقة. وإذ استراحت كل الجماعة وانتعشت، استطاعت أن ترتحل الى المحطة التالية، وهى إيثام فى طرف البرية، حيث لا يوجد أى أثر لمزارع مصر، بل مجرد رمال وصحراء. وخليق بنا هنا أن لا ننسى ذكر حادثة هامةُ تبيِّن كيف أن فكَرة الخروج تمت بايمان توفر- على الأقل- فى موسى، أو فى أكثر من موسى«وأخذ موسى عِظَاَم يوسف معه»(ص١٣:١٩). سبق أن مات جدهم العظيم هذا منذ نحو أربعمائة سنة. وإذ كان على فِرَاش مرضه استحلَّف إخوته أنهم عندما يفتقدهم الله - وكان مؤمناً أنه سيفتقدهم - ويُخرِجّهم من مصر، يجب أن يحملوا عظامه معهم. لقد كان يوسف هو نبى الخروج، سواء فى موته أو فى كل فترة الانتظار الطويلة التى

تلت موته. كانت هذه العظام غير المدفونة موضوع الحديث بصفة مستمرة فى بيوت العبرانيين. والآن - وقد كانت هذه العظام ترافقهم - أدرك كل الشعب أن ملء الزمان قد تم، وافتقدهم الله يقينا(خر٣:١٦).

(١) العمود المرشد:

قيل انه فى حملات الاسكندر الأكبر كان يرفع موقد، به نار مشتعلة، على عمود مرتفع، لكى يدل على خيمته، ولكى يوجه كيفية ارتحال جيشه الظافر. لكننا نرى هنا منظرا أعظم فى ارتحال العبرانيين عند بدء خروجهم من أرض العبودية. من منا لم يرَ سحابة صيف كثيفة تمر ببطء فى كبد السماء؟ لقد حدث شئ من هذا القبيل فى الصباح فى الجو الصافى، اذ انبسطت سحابة كثيفة فوق رأس طليعة الركب، ولم تغادر إلا بعد أن عبروا الأردن، وحينئذ نزلت واستقرت فوق بيت الله. وفى كل تلك السنوات كانت تتأجج بالنار إذا ما حَّل الليل. وكانت النار دواما رمزا وعلامة لحضور الله.

كان هذا العمود يخدم أغراضا عدة. كان يرشدهم فى رحلاتهم، وكان يظللهم ليحميهم من الشمس المحرقة«كظل صخرة عظيمة فى أرض معينة» (أش٣٢:٢). وفى الليل كان ينير لهم وهو يرقبهم كعين الله. وفى احدى المناسبات على الأقل - كما سترى فيما بعد - قدم خدمة جزيلة جدا اذ أخفى تحركات اسرائيل عندما توسط بينهم وبين عدوهم الذى يطاردهم.

لا يوجد الآن عمود سحاب ونار منذ انتهاء رحلة اسرائيل فى البرية، لكن لعل الرب يسوع كان يشير اليه والى خدماته الجليلة عندما قال «أنا هو نور العالم»، مبينا استعداده التام لاتمام الخدمات التى كان يقدمها ذلك العمود لاسرائيل.

هو مرشدنا. انه بروحه القدوس فى داخلنا، وبمثاله الذى تركه لنا، وبكلمات انجيله، وبأعمال عنايته - يرشدنا أثناء ارتحالنا فى برية هذا العالم، الى الأرض التى نتطلع اليها. لا تتعجله بتسرعك، أو بالتصرف حسب أوهامك المتعجلة. ولا تتلكأ خلفه فى بلادة وكسل. بل انتظر شهورا، أو حتى سنوات، ان كان لا يعطيك أية اشارة أو علامة على أن الوقت قد حان لتفك خيمتك وترحل.

هو حمانا. تحت ظل جناحيه نختبئ من شمس التجارب، أو من شمس الرخاء، ومن شمس النجاح العالمى.

هو نورنا. ان الذين يتبعونه لا يسيرون فى ظلمة الجهل أو ظلمة النجاسة، وظلمة الحزن، بل يكون لهم نور الحياة. ارفع ستر خيمتك أيها المؤمن، وفى الليل تطلع الى ربوات نجوم المواعيد، وفى وسطها كلها تطلع الى العلامة بأنه معك، هو لا ينعس ولا ينام، والليل مثل النهار يضئ أمامه(مز١٢١:٤، ١٣٩:١٢).

كان موسى يعتقد بأن هذه السحابة نهارا وليلا لابُد أن تكون مليئة بالتأكيدات لأنها هى مركبة الله التى يسير فيها أمام شعبه. وكم هو مُعزٍ جداً أن نقرأ هذه الكلمات«لم يبرح عمود السحاب نهارا وعمود النار ليلا من أمام الشعب»[1]. (خروج١٣:٢٢). كأنه لا خطايانا ولا تذمراتنا ولا عصياننا يحجب عنا وجه من أحبنا، لا لأننا صالحون بل لكى يجعلنا صالحين. فهو لا يمكن أبدا أن يترك أو ينبذ من عملهم أن يقولوا«يا أبا الآب».

(٢) الطريق:

إن أسهل طريق لكنعان هو عن طريق برزخ السويس وأرض فلسطين. كان الأمر لا يحتاج لأكثر من مائة ميل لكى يصلوا الى هدفهم. لكن الله لم يسمح لهم باتخاذ هذا الطريق لئلا يفشلوا اذا ما رأوا الجيوش المستعدة للقتال مترصدة لهم. أما فى السنوات التالية، عندما انتهى تدريب البرية واعلاناتها، فكان يمكنهم أن ينظروا هذه المناظر دون خوف. الى ذلك الوقت كان يجب أن لا يواجهوا حربا الى أن يتعلموا تعليما كافيا، الاتكال على قدرة الله وعنايته. هكذا تكون رحلتنا على الدوام متفقة مع قوتنا. فالله يراعى دواما مقدار ما نستطيع أن نتحمله، ولن يقودنا الى المخاطر التى تخور أمامها قوانا«فزدار الله الشعب فى طريق برية بحر سوف». وعندما يديرنا الله فانه يقصد امتحان صبرنا. لكن هذا هو أحسن طريق لقلوبنا الضيعفة، وأقدامنا غير المتمرنة.

لابد أن تكون الجماعة قد أحسنت بخيبة أمل مريرة عندما حوَّل العمود طريقَه، واتجه بهم ناحية الجنوب. لكن لم يكن هنالك بديل. وأخيرا وجدوا أنفسهم قد حلوا فى آخر مكان

---

(١) أو «لم يرفع(الله)عمود السحاب الخ» حسب الترجمة الانكليزية.

يمكن أن يختاره الانسان بفكره البشرى. ويبدو أن موسى نفسه تردد فى الاقامة به لولا أنه تلقى أمرا صريحا بأن يأمر بنى اسرائيل باتخاذ هذا الموقف. كان على الجانب الواحد «مجدل»وبرية قاحلة يصعب عبورها، وعلى الجانب الآخر البحر الأحمر. وكان فى الشرق، بل أمامهم، سلسلة جبال«بعل صفون»الحصينة.

كان هذا كمينا لا مهرب منه. لم يكن هنالك مخرج منه سوى الطريق الذى دخلوا منه. لابُد أن عديمى الاختبار فى كل الجماعة قد حكموا بأن التحرك الى هذا الاتجاه كان سخافة. ولابُد أن صيحات التذمر والاحتجاج قد ارتفعت عالية من الشعب: هل هذا هو الطريق الى كنعان؟ إننا نعرف أكثر منكما. كيف تجرؤان على الادعاء بأن تكونا قائدين لنا إن كانت أول خطوة قد أثبتت أنكما لا يمكن الاعتماد عليكما؟ كان خيرا لكما ولنا أن يدفن فرعون ابنه الذى تبناه، لأنه ان اقتفى أثرنا صرنا كقطيع من الغنم محبوس فى حظيرته، وأصبحنا فريسة للذئب الذى يستطيع أن يقتحم الحواجز مثل هذه التعبيرات والتوبيخات لا تُحتمل بسهولة. لا يتحملها الا شخص تدرَّب تدريباً كلياً بأن يثق فى إلهه. لكنها لم تترك أثرا فى نفس موسى. فقد كان عالما بمن آمن. وتعلم أن يعطيه ببساطة، وأن يكون مزكى أمامه بصفة مستمرة. ان نزل عليه جيش لا يخاف قلبه، ان قامت عليه حرب ففى ذلك هو مطمئن(مز٢٧:٣). ليت لنا نصيب وافر من هذا الايمان البسيط فى الله المركز على ارشاده ومعونته. عندئذ يستطيع المؤمن أن يفعل مايراه الآخرون علامة على الجنون والحماقة، لكن النتائج هى التى تُبرَّره.

كثيرا مايبدو بأن الله وضع أولاده فى مراكز حرجة جدا، فيقودهم الى شق من الأرض ليس له مخرج، ويدبر لهم مركزا لا يقبله العقل البشرى، إذا ما استشير من قبل. لكن العمود نفسه هو الذى يرشدهم اليه.

قد يكون هذا هو موقفك أيها القارىء العزيز فى هذه الساعة. قد يبدو مربكا ومحيرا الى الدرجة الأخيرة. لكنه موقف صحيح سليم. وسوف تبرر النتيجة ذلك الذى أتى بك اليه. وهو مظهر لإظهار نعمته وقُدوته. إنه سوف لا ينقذك فقط، ولكنه اذ ينقذك يعطيك درسا لن تنساه أبدا، بل تذكره بصفة مستمرة فيما بعد، فى كل ترنيمة تترنم بها. سوف تجد نفسك فيما بعد عاجزا عن شكره من أجل ما صنعه معك. لو أنك أتيت بنفسك

الى هذا الموقف بمجرد هواك ورغبتك، لكنت قد هلكت بلا رحمة . لكن طالما كان الله هو الذى أتى بك اليه فليس عليك الا أن تقف صامتا وتنتظر خلاصه الذى هو«يقين كالفجر»(هو٦:٣).

(٣) فرعون يقتفى أثرهم:

حالما ارتحل الاسرائيليون ندم فرعون. تعطلت الاعمال العامة لعدم توفر الأيدى العاملة. ولقد أقفرت فجأة مساحة متسعة من الأرض من السكان. وحرمت البلاد من خدمة هؤلاء العبيد، فى كل مكان، فى المدينة وفى الحقل. لقد حلت خسارة مفاجئة فى الايرادات، وفى كل نواحى النشاط، ولا يمكن تعويض هذه الخسارة. ثم أن كبرياءه منعه من أن يسلم بخروجهم بهذه السهولة.

يضاف الى هذا أن المصريين فى تعجلهم الجنونى ليتخلصوا من هذا الشعب حملوهم بأمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياب بوفرة جدا، حتى قيل صراحة انهم«سلبوا المصريين». وواضح من التبرعات التى قدمت فيما بعد لعمل خيمة الاجتماع أن بنى اسرائيل يحملون معهم كمية وفيرة من المعادن النفيسة. «فلما أخبر ملك مصر أن الشعب قد هرب تغير قلب فرعون وعبيده على الشعب. فقالوا ماذا فعلنا حتى أطلقنا اسرائيل من خدمتنا»؟ (ص١٤:٥،٦).

فى هذه اللحظة سمع الملك بتحرك اسرائيل الشاذ نحو الجنوب، فأدرك أنهم أصبحوا فى قبضة يده مرة أخرى، وخيل اليه بأن آلهته قد استردت قوتها القديمة، وأسرعت لنجدته، فقال: «اتبع. ادرك. اقسم غنيمة تمتلئ منهم نفسى (ص١٥:٩). عندئذ أسرع جدا وقام بجيش مصر الجبار«ستمائة مركبة منتخبة وسائر مركبات مصر وجنودا راكبة على جميعها...فسعى المصريون وراءهم وأدركوهم، جميع خيل مركبات فرعون» (ص١٤:٩).

واذ اقترب مساء أحد الأيام، ولعله اليوم الخامس للخروج، رأت طليعة جماعة الهاربين، واذا بشبح الجيش المصرى المرعب قادم من وراء جبال تلك البرية. وعندما أقبل الليل تأكدوا

أن كل جيش المصريين قد حل بجوارهم، منتظرا فقط ضوء الصباح، فيهجم عليهم، إما ليذبحهم جميعا، أو ليُعيدَهم الى العبودية، وهذه الحالة أشنع من ذبحهم.

كانت هذه نكبة مروعة. لا شك أنهم اذ أدركوا نبأ تتبع المصريين اياهم انخلعت قلوبهم الضعيفة. وفى الحال التفتوا الى موسى وأفرغوا فى قلبه كل مخاوفهم وكل مرارتهم. «هل لأنه ليست قبور فى مصر أخذتنا لنموت فى البرية؟ ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر؟ كان خيرا أن نموت هناك من أن نموت هنا. لماذا لم تتركنا وشأننا؟ أين هو الهك؟». وعندئذ نهضت تلك الروح النبيلة فى قوة ايمانها ونطقت بكلمات تنم عن حالته الداخلية. لم يخف ولم ينزعج، لم يضطرب قلبه. بل وقف صامتا لينظر خلاص الله. كان واثقا ثقة كاملة بأن يوم الخلاص آتٍ عن قريب. وكان متأكداً بأن الرب سيُحارِب عنهم، وينقذهم، ويؤيد كلامه. هذا ما سوف نراه فى الفصل التالى.



الباب الثاني عشر

ترنيمة الظفر

«رنموا للرب فانه قد تعظم.
الفرس وراكبه طرحهما فى
البحر» (خر١٥:٢١)

عندما يقود عمود الله أى واحد من أولاده الى مركز حرج جدا تكتنفه صعوبة ليس لها مثيل فإنه يحق له دوما أن يعتمد عليه لينقذه. إن أبانا القدير- مثل النسر الذى تغنى عنه موسى فيما بعد- يسر بأن يأتى بفراخِه الصغار الى حافة الهاوية، ويدفع بهم فى الجو لكى يدركوا أنهم يمتلكون القدرة على الطيران، التى لم يتحققوها من قبل، فينعموا بها فيما بعد الى الأبد. وان حدث فى التجربة أن يتعرضوا لخطر غير عادى، فانه مستعد أن يرفرف من تحتهم ويحملهم على الأذرع الأبدية.

هنا نرى مثلا بارزا لهذه الحقيقة. فإن القدير تطلّع من مركبته فى السحاب الى جماعة الهاربين الخائرى القوى وهم يصرخون اليه فى فزعهم الشديد. «فى كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته خلصهم. بمحبته ورأفته هو فكهم ورفعهم وحملهم»(أش٦٣:٩). حملهم كل تلك الليلة المرعبة، وذلك اليوم الخالد. وكما تنبأ لهم موسى لقد قاتل الرب عنهم بينما كانوا هم صامتين(خر١٤:١٤).

ويبدو من عبارة سفر المزامير أن تذمر بنى اسرائيل كان أشد مما وصفه موسى فى سفر الخروج. فقد قيل فى سفر المزامير صراحة أنهم «تمردوا عند بحر سوف» لأنهم«لم يذكروا كثرة مراحمه»، ولكن الله خلصهم، بالرغم من تمرداتهم، من أجل اسمه، وأيضا لكى «يعرف بجبروته»(مز١٠٦:٧و٨). وهذا يوحى الينا الفكرة التالية: ان نجاتنا لا تتوقف على استحقاقنا، بل على المقاصد الإلهية. وحتى إن توهمّنا بأن تصرفاتنا فى وقت الخطر تحرمنا من المعونة الالهية، لكن هذا لن يكون. فإنه بالرغم من كل شىء، سوف يجرى معجزات لمن لا حق لهم فى مطالبته بأى شىء إلا بما تعطيه لهم محبته.

كان الشخص الوحيد الذى لم يتزعزع وسط الفزع الذى تملّك الشعب هو قائدهم البطل العظيم، الذى كان ايمانه هو العنصر الأساسى فى خلاصهم. ولذلك ففى كل الاشارات التالية لهذه الحادثة العظيمة نرى أن يد موسى يُشار اليها بأنها كانت هى الآلة التى استخدمتها قدرة القدير لكى تعمل..يقول المرنم«هديت شعبك كالغنم بيد موسى وهرون» (مز٧٧:٢٠). ويقول إشعياء «الذى سير ليمين موسى ذراع مجده»[1](أش٦٣:١٢). لذلك كان للشعب الحق بأن يذكروا أيام موسى القديمة، لأنهم اشتهروا بايمان موسى العظيم. بايمانه «اجتازوا فى البحر الأحمر كما فى اليابسة» (عب١١:٢٩).

العصا. للصلاة حدها المحدود. فى الوقت الذى وقف موسى أمام الشعب لا تلين قناته كالصخر انحنى أمام الله كقصبة مرضوضة صارخا اليه. وعلى أية حال، فإن ذلك الوقت لم يكن هو وقت التضرعات الحارة، بل كان وقت العمل. كان يجب أن يعطى للشعب الأمر للتقدم الى الأمام. كان يجب أن يمد عصاه على البحر الذى كانت ظلال الليل قد بدأت تغطيه، وبايمانه كان يجب أن يقدم لقوة الله آنية لتعمل بها فوق مياه البحر المتلاطمة الأمواج.

لقد سبق ان لعبت العصا أدواراً هامة فى مناسبات كثيرة. لقد نبتت أولا فى غابة بشبه جزيرة سيناء وهى لا تدرى ما سيؤول اليه مصيرها حين قطعها موسى الراعى لقيادة غنمه، أو لطرد الوحوش المفترسة. كانت فى يده عندما التقى به الله لأول مرة، واذ طرحها على الأرض تحولت الى حية، رمز كبرياء المصريين. ولقد سبق أن استخدمت فى كثير من ضربات مصر. فهى التى ضربت النهر فتحولت مياهه الى دم، ورُفِعَت الى السماء لاستدعاء العاصفة، وضربت تراب الأرض فصار بعوضا. وهى التى استخدمت فيما بعد لكسب الحرب ضد عماليق ولتفجير ينابيع مياه من الصخر. وفى كل مناسبة كانت تُعرَف بأنها هى «عصا الله». لكنها فى كل تاريخها السابق واللاحق لم تصنع معجزة كالتى كانت تنتظرها فى تلك الليلة، عندما امتدت على مياه البحر الأحمر كأمر الله.

---

(١) أو«الذى سَّير عن يمين موسى ذراع فخره» حسب ترجمة اليسوعيين، أو«الذى سَّير ذراعه المجيد عن يمين موسى» حسب الترجمة الانجليزية.

وكما كانت العصا فى يد موسى كان موسى فى يد الله. وهكذا نكون نحن أيضا، ان سلَّمنا أنفسنا له بثقة كاملة ليستخدمنا فى خدمته. قد تكون مادة تكويننا خشنة جدا بالطبيعة، لسنا عصا من شجر الصنوبر أو شجر البلوط أو شجر الأرز. وبالتهذيب قد نظل غير مصقولين، قد تظل فينا عقد تفسد تناسقنا وجمالنا. لكن هذه كلها ليست لها أهمية. فالأمر الجوهرى الوحيد هو أن نعرف بأنه تُمسِك بنا تلك اليد التى صورت العالمين، وبنت قبة السماء. ان صانع الزجاج يضع بجانبه أخشن الأدوات الحديدية لتساعده على اخراج أسمى الأوانى الزجاجية، لكن رشاقة يده تعوض عن عدم كفاية هذه الأدوات. ان كنت قطعة من الحديد، أو عصا من شجرة الغاب، فهذا ليس أمرا جوهريا، كن واثقا فقط أنك فى يمين الصانع الأعظم.

عمود السحاب. الى ذلك الوقت كان عمود السحاب مرتقيا السماء فى مجدٍ عظيم. لكنه فى هذه الفرصة استقر على الارض كسور عظيم من البخار، كسياج منيع بين جيش مصر وجيش اسرائيل. كان لجيش مصر قاتما مهددا، يعوقهم عن التقدم، ويحجب تحركات الجماعة الهاربة، وكان لجيش اسرائيل منيرا، يعكس لمعانا على الرمال ومياه البحر ومبينا- بدقة لا تخطئ - الطريق الذى ظهر سريعا. طول الليل كانت نجوم السماء تضئ. وفى الأيام التالية كانت ذكريات نتيجة اختلاط أنوارها بأسوار المياه الزجاجية هى التى أوحت للرائى تشبيه هذا المنظر بانتصار المفديين الواقفين على شاطئ«البحر الزجاجى ومعهم قيثارات الله»(رؤ ١٥ :٢). كأن الوحى لم يجد تشبيها يُصّوِر به انتصار المفديين أنسب من انتصار جماعة اسرائيل عندما أضاء مجد الرب على أمواج البحر المتلاطمة التى وقفت كسور على كلا الجانبين، كأنه مدخل لمعبد تكتنفه الأعمدة على كلا الجانبين.

عبور البحر الأحمر:

واضح مما ورد فى سفر المزامير أنه فى هذه اللحظة هبت عاصفة مروعة. فالأرض تزلزلت، وأساسات الجبال اهتزت. ومن قلب الظلمة الحالكة الجاثمة فوقهم، التى هى سجف خيمة الله، أومضت البروق مرارا، يتبعها قصف الرعود. لقد تكلم العلى، وعقب ذلك سقط برَدَ ونار من السماء. هبت ريح شرقية بعنف فاكتسحت أمامها المياه التى هربت بنفخة أنفه، ثم كومتها معا، موجة فوق موجة، الى أن وقفت المياه كسور، غاضبة، مزبدة، مدخنة، حانقة، بسبب كبح جماحها غير المنتظر، ومتعجبة من هذا الوضع الشاذ. لكنها

وقفت ثابتة بسبب ضغط تلك العاصفة المستمرة التى لم تعطِها راحة، بل كبحت جماحها كأنها قد تجمدت. وكل المياه التى من خلف تظاهرها وتدعمها اذ تتكىء على ذلك السد المنيع، الذى بنى بكيفية عجيبة، واستمر بكيفية أعجب.

وفى الجانب الآخر رجعت المياه الى ينابيع الغمر العظيم الذى خلفها. وكأن كل موجة كانت تحس بالجذب، بل كأن هوة قد انفتحت فى عمق البحر، فأسرعت المياه لتملأها، تاركة قاع البحر مكشوفا فى سرعة هجومها. وهكذا انكشفت الصخور التى فى قاع البحر، والتى سبق أن أُودِعَت فيه منذ الخليقة.

عندئذ بدا كأنه قد حصل توقف فى سرعة المياه المتراجعة، فبدأت تعود ببطء الى وضعها الاول. ولكنها اذ فعلت هكذا صدتها يد الله التى شقت طريقا. بعد السور الأول الذى شيدته بدأت تشيد سورا ثانيا. وهكذا «انتصبت المياه كرابية. تجمدت اللجج فى قلب البحر» (خر١٥:٨).

انشق طريق متسع بين هذين السورين، شبَّهه النبى بتلك الممرات الواطية من الجبل، تنزل اليها البهائم من المرتفعات التى ترعى فيها لتستريح فى الأودية(أش٦٣:١٤). وهل هنالك تشبيه أجمل وأعجب؟ ومع ذلك فقد بدا فى لحظة أن الأمر طبيعى. وفى تلك اللحظة جرت الكلمة التى نطق بها موسى، وسمعها الذين حوله، جرت كنار فى هشيم، جرت من فم الى فم اذ كان كل واحد يهمس بها فى أذن أخيه«قل لبنى اسرائيل أن يرحلوا»(خر١٤:١٥). وفى الحال، بدون تعجل، بل بطاعة مفرحة، نزلت جماعة الرب المباركة المفدية، صف يتلوه صف، واجتازت بين سورى الزجاج والنار، وسط قصف الزوبعة التى جعلت مسيرهم غير مسموع من أعدائهم.

تخيل أيها المؤمن- ان استطعت- موكب النصر هذا. الأولاد منذهلون يريدون أن يتهللوا فرحا واندهاشا، الآباء يسكتونهم بصفة مستمرة. والنساء منذهلات جدا اذ وجدن أنفسهن قد نجَّون من مصير أسوأ من الموت. أما الرجال فقد تبعوا الجميع، أو رافقوهم، وهم خجلون من أنفسهم لانهم لم يثقوا فى الله، وتذمروا على موسى. واذ تتطلع الى هذين السورين العظيمين من المياه، قائمين بيد القدير استجابة لايمان رجل واحد، تأمل فيما

يفعله الله من أجل خاصته. لا تشُك مطلقا فى نتيجة الطاعة الكاملة لأوامره. لا تخف من المياه المضطربة التى تعطل تقدمك بكبريائها ووقاحها. لا تخف من الجموع الهائجة التى ترغى وتزبد بصفة مستمرة كالمياه الهائجة، والتى ترفع زئيرها عاليا كالأمواج المضطربة. لا تخش أى شئ من هذا القبيل. الرب يجلس على الطوفان كملك الى الابد، الرب فوق المياه الكثيرة، صوت الرب بالجلال(مز٢٩:٣و٤و١٠).

ليست الزوبعة سوى هدب ثوبه، علامة على مجيئه، الهالة التى تحيط به. فى البحر طريقه وسبله فى المياه الكثيرة، وآثاره محتجبة عن العين البشرية(مز٧٧:١٩). ثق فيه، اتبعه، انزل الى البحر الطينى تجده صخرا. انزل الى الأعماق العميقة جدا تجد أن نفس القُوَى التى كانت تعطل تقدمك وتهدد حياتك قد أمرها الله فصارت أداة تعمل لتشق لك طريقا للحرية.

العدو يتبع:

حالما أدرك المصريون أن الاسرائيليين هربوا تبعوهم وساروا وراءهم وسط البحر. كان فى هذا التصرف كثير من الكبرياء والعناد، الأمر الذى اضطر الله أن يأتى بأسوأ ما عنده. ولذلك فإنه عندما كان جيشهم بين سورى المياه بدا كأن كل قوة العاصفة انصرفت نحوهم. «وكان فى هزيع الصبح أن الرب أشرف على عسكر المصريين فى عمود السحاب والنار، وأزعج عسكر المصريين» فتملكهم الخوف فجأة «وخلع(الرب)بكر مركباتهم حتى ساقوها بثقلة» فى طين قاع البحر، ولم تستطع أن تتحرك«فقال المصريون نهرب من اسرائيل، لأن الرب يقاتل المصريين عنهم» اذ شعروا بأن قوة أعظم من اسرائيل تحاربهم (خر١٤:٢٤و٢٥).

وفى وقت الشدة هذه بدأ نور الصباح يشرق. فأمر الله موسى أن يمد يده على البحر من الشاطئ الآخر الذى وصله هو وجماعة اسرائيل، فعاد البحر الى حالته الأولى. وعبثا حاول المصريون أن يهربوا، لأن المياه غطتهم، اذ هجمت عليهم فجأة من الجانبين«غاصوا كالرصاص فى مياه غامرة»،«هبطوا فى الأعماق كحجر» (ص١٥:١و١٠). وفى وقت وجيز جدا لم يبق أثر لكبريائهم.

تسبحة موسى:

«حينئذ رنم موسى وبنو اسرائيل هذه التسبحة للرب». لقد كشف نور الفجر عن منظر من أعظم مناظر التاريخ. فإن أمة من العبيد اذ هربت من سادتها صارت فجأة أمة من الأحرار، ووقفوا متحررين على شاطئ قارة جديدة. أما الشعب المتكبر المتغطرس، الذى أذاقهم ألوانا من التعذيب العنيف عدة أجيال، فقد أُذِلّ إذلالاً لا يفيق منه إلا بعد عدة أجيال.

..ابتلع رجال الحرب المصريون هم وخيلهم فى وسط البحر، ولم يبق منهم واحد. وامتلأ الشاطئ بجثث الموتى الذين لفظهم البحر من أعماقه..لقد خلد هذا اليوم تلك الفاجعة الأليمة التى حلت بجيش المصريين. وأعطت لاسرائيل فى كل الأجيال التالية علامة على أمانة الله. ولقد اضطرتهم تلك العلامة على أن يؤمنوا، ليس فقط بالله مخلصهم، بل أيضا بعبده موسى (خر١٤:٣١).

..ونحن أيضا، ان كنا نصمت ونستودع أمرنا له، فانه يُنَجّينا من طعنات أعدائنا، ويظهر مثل النور برنا. أما الذين كانوا يملأون قلوبنا رعبا، فاننا إذ نعود لنتطلع اليهم نجدهم جثثا على شاطئ البحر، عاجزين عن إيذائنا أو اقتفاء أثرنا فيما بعد.

احتشدت الجماعة المفدية، واجتمعوا معا، ورنموا تسبحة رائعة تليق بالمناسبة، صارت أنموذجاً لأغنيات الظفر فى كل الأجيال التالية.

لا توجد هنالك فكرة عن أية شخصية أخرى غير الرب فى كل التسبحة. لقد رنمت منه وله. هو الذى انتصر انتصارا مجيدا، وطرح الفرس وراكبه فى البحر. ويمينه هى التى حطمت العدو. ان كان العدو قد غاص كالرصاص فى مياه غامرة، فذلك لأنه هو نفخ بريح أنفه. وان كان مقاوموه قد هُزِموا فقد كان ذلك بكثرة عظمته. لقد وضعت كل أمجاد الظفر عند قدميه، ولم يذكر اسم موسى مرة واحدة.

لقد أكدت التسبحة أن الظفر تم بمنتهى السهولة«بريح أنفك تراكمت المياه. نفخت بريحك فغطاهم البحر. هبطوا فى الأعماق كحجر»لم يكن عليه الا أن يمد يمينه فيبتلع البحر زهرة أعظم جيش فى ذلك الوقت.

ثم لاحظ الألقاب التى أعطيت لله. «الرب قوتى ونشيدى وخلاصى». «من مثلك معتزا فى القداسة مخوفا بالتسابيح صانعا عجائب». اذ عظمه الرجال قائلين عنه «الرب رجل الحرب»وتأملوا فى الرعب الذى لابُد أن يكون قد ملأ قلوب سكان كنعان عندما سمعوا أنباء هذا الظفر العظيم، رددت عليهم النساء- بقيادة مريم- بهذه الترنيمة «رنموا للرب فانه قد تعظم. الفرس وراكبه طرحهما فى البحر».

ونحن لا نستطيع أن نقرر ان كانت هذه التسبحة قد ألفت مقدما استعدادا لتلك اللحظة. لكن هذا هو الأرجح، والا فكيف أمكن أن ترنمها هذه الألوف المحتشدة؟ وهذه فى حد ذاتها علامة بارزة على الايمان القوى الذى امتلأ به قلب موسى. لقد كانت التسبحة تسبحته بصفة خاصة. وفى ختامها نستطيع أن نرى شعاعة من نبوة عن المستقبل ويقينية ايمانه به «تجئ بهم وتغرسهم فى جبل ميراثك».

هكذا يحول لله مخاوفنا وانزعاجاتنا الى فرص للتسبيح والترنم. أن البكاء لا يدوم الا ليلة، وفى الصباح يحل الفرح والترنم[1] انه يجعل سرورا فى قلوبهم(مز٤:٧)ويضع ترنيمة جديدة فى أفواههم(مز٤٠:٣). طالما كان الله هو الله فان سنوات الانتظار الطويلة والاستعداد والطاعة لابد أن تكافأ أخيرا. لابد أن نشترك فى هتاف الظفر ان لم يكن قبل أن يحل صباح الأبدية فعندما يحل، هذا الهتاف الذى سوف نردده اذ نرنم تسبحة موسى عبد الله وترنيمة الحَمَل.



---

(١) «عند المساء يبيت البكاء وفى الصباح ترنم»(مز٣٠:٥). أو «يدوم البكاء ليلة لكن الفرح يأتى فى الصباح» حسب الترجمة الانجليزية. أو«بالعشاء يحل البكاء وبالغداة السرور» حسب الترجمة القبطية.

الباب الثالث عشر

مارة وإيليم

«فهذه الأمور جميعا أصابتهم مثالاً» (١كو١٠:١١).

ان شبه جزيرة سينا، التى وقف على شاطئها الشعب المفدى، والتى كانت عتيدة أن تصبح مدرسة لهم مدة أربعين سنة، هى من أكثر أرجاء العالم اتساعا وقحلا وجفافا. قيل بأنها مجموعة جبال متشابكة بكيفية معقدة مضطربة، تتصاعد تدريجيا نحو قمة جبل أم شومر المرتفع، الواقع فى جنوب سينا، وبين البحر الأحمر وأقل هذه الجبال ارتفاعا يوجد سهل ملئ بالحصى. ثم يتصاعد الطريق تدريجيا فى طرق وممرات طويلة محفوفة بحجر الجرانيت الارجوانى والحجر الجيرى اللامع، وهذا يجعل المنظر بهيجا، الأمر الذى لا يتوفر فى جبال بلاد الانكليز الكئيبة المنظر.

لا نريد الآن التأمل فى الأماكن المقدسة بشبه الجزيرة، بل فى السهل الرملى الذى وصلت اليه الجماعة فى الأسابيع الاولى من التيه، وهو المجاور لشواطئ البحر الأحمر التى ربما يكونون قد رأوا فيها بعضا من جثث أعدائهم، فكان المنظر كريها.

ولابُد أن تكون جماعة اسرائيل قد قسمت نفسها- ولو لم يذكر هذا صراحة فى الكتاب المقدس- منذ اللحظة الأولى التى حطوا فيها رحالهم فى هذه الأرض الجديدة، أرض الحرية. لقد سرحت الغنم والبهائم- كعادة العرب فى وقتنا الحاضر- هنا وهنالك لكى ترعى«مراعى البرية» الفقيرة التى يتحدث عنها المرنم(مز٦٥:١٢). قال أحد الرحالة(دين ستانلى) عن شبه جزيرة سينا: «هنالك مراع فى كل مكان تقريبا وان كانت هزيلة. وفى بعض أماكن قليلة تكون هذه المراعى غنية عندما يتوفر أحد الينابيع». هنالك كانت الجماعة ترعى مواشيها بينما كان خاصة الشعب يسيرون برفقة موسى.

ياله من تغيُّر عجيب. لم يعد الشعب يشهد حركة الانتقال الكثيفة الدائمة التى كانوا يشهدونها فى مصر، وحفلاتهم وأعيادهم وأغانيهم وولائمهم ورجال القصر ورجال الجيش. لم يعد يشهد وادى النيل الدائم الخضرة حيث تستمر المياه فيه بصفة دائمة،

فتكثر الخضروات والبطيخ والكرات والثوم. لم يعد يشهد عظمة ومجد أبى الهول والأهرام والمعابد. وبدلا من هذا كله هدوء رهيب، وصمت عجيب، لا يُسمّع صوت مطلقا، حتى أن العرب يقولون انهم يستطيعون أن يجعلوا صوتهم يُسَمع عبر خليج العقبة. كان المكان مقفرا جدا وبلاء ماء. فإن وجدوا عين ماء بعد مسيرة يوم كامل فرحوا فرحا عظيما. كانوا محاطين بصخور جامدة من كل ناحية.

وسط هذه الاختبارات الغريبة قادهم عمود السحاب، ليتقدموا الى الأمام. واذ تتلاحق المناظر أمام أنظارنا نستطيع أن نجد فيها رمزا للحياة البشرية، فنعترف بالحقيقة التى دونها الرسول«فهذه الأمور جميعها أصابتهم مثالاً»(١كو١٠:١١).

(١) ايمان موسى القوى:

لقد كان يعرف تلك البرية معرفة جيدة. كان يعرف طبيعتها القاحلة الجافة، عوزها لكل ما يقوم بأوُد الحياة البشرية. كان يعرف أيضا أنهم ان اتخذوا طريق الشمال لما استغرقوا وقتا طويلا للوصول الى أرض الفلسطينيين لأنها كانت قريبة(خر١٣:١٧)، ولوجدوا كل احتياجاتهم الضرورية، إما بالإكراه أو بالشراء.

وبالرغم من هذا يخبرنا الكتاب صراحة بأن الله تعمد بأن يقودهم الى الجنوب، فدخلوا البرية. «ثم ارتحل موسى باسرائيل من بحر سوف وخرجوا الى برية شور». لم يكن ممكنا أن يتخذ طريقا آخر، لأن عمود السحاب سار بهم فى ذلك الاتجاه. لكن حتى وهو يرى أمام عينيه هذه العلامة التى تبين له ارادة الله، فقد كان الأمر يتطلب ايمانا قويا جدا لكى يقود مليونين من الشعب الى البرية(خر١٥:٢٢).

اننا جميعا فى حاجة لمن يقودنا فى طريق البرية. فى مناظرها الرهيبة تتحول عقولنا (التى يعوقها عن النمو التطلع الى أعمال البشر المألوفة) الى تفكير أسمى، وتتعلم كيف تعجب من حقارة الأباطيل التى تشغل بل تجرف الكثيرين. هنالك نتعلم كيف نتصل بالله، لا بطريقة غير مباشرة- كما هو الحاصل بازاء المدنية البشرية- بل بطريقة مباشرة اذ نراه ينشر بيده المن طعاما لنا، واذ نلتقى من صخرة الصوان أنهارا حية لارواء ظمئنا (تث٨:١٥) واذ نُحرَم من مُفاخِر الحياة ورغدها ورفايتها، تلك التى كانت تمتص وتوهن

من طبيعتنا الأدبية، نجد أنفسنا قد تشددنا وتقوينا فى كل نواحى الحياة عن طريق الحرمان والصعوبات. الصبر والحرية والايمان وروح الغُربة- هذه كلها أثمار التيه فى البرية، وهى كلها تنتعش فى جوها الممتاز.

اذن فقد كان هنالك مبرر لكى يتبع القائد العظيم عمود السحاب. وهو اذ أعطى ظهره لأرض فلسطين، واتخذ طريقه بثبات نحو قلب الصحراء، التى لا يرى فيها سوى الصخور الشامخة، كان هذا علامة على الايمان القوى الذى كان يقدر أن يتكل على الله الاتكال الكامل.

(٢) امتحان ايمانه:

«فساروا ثلاثة أيام فى البرية ولم يجدوا ماء» (خر١٥:٢٢). لاشك فى أن اليوم الأول كان متعبا وكئيبا. فقد قابلتهم العواصف الرملية التى تعمى البصر، ووهج الشمس المنعكس من السهول ذات الأحجار الجيرية، ثم لم يجدوا ظلا ولا أشجار ولا ماء. والماء الذى حملوه فى قربهم لابُد أن يكون قد أصبح ساخنا وغير منعش.

ولم يكن اليوم الثانى أقل تعبا. فقد بعدوا عن البحر، ولم يكن هنالك شىء يقطع عنهم الملل والضجر والسآمة المنبعثة من هذه المنطقة عديمة الشجر، عديمة الحياة، عديمة الماء. ويقينا انهم اذ أقاموا خيامهم الداكنة فى الليل كان يعسر عليهم أن يكبتوا تذمرهم أو على الأقل همهم وقلقهم من جهة ما سيحمله لهم الغد، لاسيما وقد تورمت أقدامهم وجفت شفاههم. ثم أن المياه التى حملوها أصبحت شحيحة جدا، ان لم تكن قد فرغت تماما.

وحل اليوم الثالث. ولعل موسى قد حثهم على الصبر والمثابرة، عالما أن هنالك بعض برك مياه على مسافة لا تبعد كثيرا. وكانت كل عين تشخص بحدة لتُلقِى النظرة الأولى على أشجار النخيل والخضرة الحية.

كانت لهفة العيون الى رؤية تلك العلامات الموعودة لا تقل عن لهفة الأم الى عودة علامات الحياة الى وجنتى ابنها، ولهفة الحامية المُحاصرة وتطلعها الى الأفق لترى أول علامة لفرقة الانقاذ.

وأخيرا، اذ رأوا تلك البرك عن بُعد قُرب انتهاء النهار، تهللوا فرحين، وانتعشت قلوبهم، وعبروا عن ثقتهم فى موسى. لقد نسوا تعبهم وشكواهم وحرمانهم، وأسرعوا فى مسيرهم الى حافة الآبار. لكن يالخيبة آمالهم الشديدة وحزنهم اذ امتلأت أفواههم مرارة لدى تذوقهم الماء، وأدركوا أنه غير صالح للشرب.

لكن طالما كان لا يوجد هنالك ماء آخر، فقد اضطروا الى الاحتمال، وكان هذا الحزن أعظم من أن يُحتَمل فالتفتوا الى موسى وقالوا بتذمر: «ماذا نشرب؟» لقد «أسرعوا فنسوا أعماله» (مز١٠٦:١٣). **لقد تحولوا الى عصاة متمردين بعد أن كانوا مترنمين هاتفين.**

ألا نعرف كلنا بعض الشئ عن المسير فى البرية؟ قد يأتى بعد انقاذ عظيم. لكن ياله من فرق شاسع بين هتافات الفرح والنصر عند اختبار الانقاذ العظيم وبين متاعب المسير فى البرية. ان بدء المسير جميل ولذيذ ومبهج، لكن الكد فى المسير يوما بعد يوم عسير ومُتعِب وسط غبار الصحراء، وشدة وطأة التجربة، وضغط الفقر الطاحن، ومزاولة العمل الراحد الممل المتعب. ليست البرية ألعوبة طفل. بل المقصود بها أن تكون مدرسة لتعليمنا وتدريبنا، وميدان سابق، ومجالا لتدريبنا وإعدادنا لمستقبلنا العظيم. عندئذ تأتى مارة: فشل مرير، حزن يحطم القلب، أحلامنا تتبدد، وخططنا تفسد. لقد كان خيرا لهم أن يسيروا يوما فيوما دون توقع البركة القادمة من أن يستيقظوا فيجدوا أنها كانت مجرد سراب **عندما يسمح لنا الله بمارة فذلك لاختبارنا**، أو بتعبير آخر، لاظهار ما فينا. فى رحلتنا الى أورشليم الجديدة لابُد أن نمر على تلك الينابيع، وتختلط الدموع المُرَّة بالمياه المُرَّة.

(٣) التجاء موسى الى الله:

«فصرخ الى الرب». كان ذلك أفضل جدا من توبيخه للشعب، أو تهديده أياهم بالتنحى عن مهمته، أو الجلوس فى فشل ويأس كسير القلب. بعد أن انتهى تلاميذ يوحنا المعمدان من دفن معلمهم المحبوب ذهبوا وأخبروا يسوع. فى كل الأجيال رأينا خدام الله يسرون بأن يرجعوا عن فشلهم، وخيبة آمالهم، وجحود من كانوا مستعدين أن يبذلوا حياتهم من

أجلهم بفرح- يرجعوا الى ذاك الذى ينفتح قلبه لكل أنة، والذى تسمو محبته على الكل وهى فى كل وبالكل.

وبجانب كل مارة تنمو شجرة اذا ما أُلقَيت فى المياه جعلتها حلوة المذاق. هذا هو الحال دائما. بجوار السُم يوجد الترياق، بجوار العدوى يوجد الشفاء. بجوار الألم يوجد العلاج. هذا ما نجده بصفة مستمرة. الكلمة التى تخلص قريبة من الفم ومن القلب. اننا لا نرى دواما النعمة الكافية«تكفيك نعمتى». لكنها موجودة. ونحن ننشغل عن البحث عنها بسبب كثرة تفكيرنا فى الفشل الذى منينا به. ولكننا ان صرخنا رأتها عيوننا المتعبة المتلهفة.

وماذا ترمز اليه تلك الشجرة؟ انها لا ترمز الا لصليب يسوع الذى تم عليه فداؤنا. على الصليب ظهرت طاعته لأبيه بأجلى وضوح. عليه «أطاع حتى الموت موت الصليب» (فى٢:٨). وليس شئ يستطيع أن يزيل مرارة الفشل، ويجعله حلو المذاق، بل واهب الحياة، الا تطلعنا منه الى الصليب، ومناجاتنا لله قائلين «لتكن لا إرادتى بل إرادتك. ان إرادتك هى بهجتى، وفى إرادتك بركتى».

ياللدروس المتواصلة التى كانت يتعلمها موسى يوما فيوما. لا شك فى أن الله قد أصبح حقيقة حية له. لقد تعلم طرق الله. فالكتاب يقول صراحة إن الله «عرَّف موسى طرقه»(مز١٠٣:٧). ولابُد أنه قد أحس تدريجيا أن كل مسئولية الرحلة ملقاة على عاتق صديقه الأزلى القدير. آه أيها الزملاء الخدام، يجب أن لا نحمل حمل المسئوليات الناشئة عن خدمته. فاهتمامنا الوحيد هو أننا يجب أن نحرص بأن نكون فى طريقه، وأن نكون فى صلة حية به،أما الباقى فلنلقه عليه!.

(٤) إيليم:

«ثم جاءوا الى إيليم وهناك اثنتا عشرة عين ماء وسبعون نخلة. فنزلوا هناك عند الماء» (خر١٥:٢٧). فى الحياة توجد ايليم أكثر من مارة. ونحن نقيم بجوارها. لا يصدر لنا الأمر بالبقاء عند الواحدة، بل قد نصرف أياما طويلة مباركة عند الأخرى. كيف كانت ظلال السبعين نخلة منعشة جدا، وكيف كانت وعذبة مياه تلك الاثنى عشرة عين ماء. كيف

كانت مبهجة تلك الأيام الطويلة التى استراحوا فيها هناك. أتقول بأنها لن تأتيك؟ كلا انها سوف تأتى. سوف تأتى لكل النفوس المتعبة المجربة. ليست هنالك مسير فى البرية دون أن نجد ايليم أخيرا. لا يمكن الا أن يقودك الحمل الى ينابيع مياه حية، ويمسح كل دمعة من عينيك قبل أن تجتاز الباب المصنوع من لؤلؤة واحدة. سوف تأتى فترة الهدوء بعد العاصفة. وفوق جبل الصعوبات سوف نجد مظلة مريحة. وفى المسير المتعب سوف نجد فترة للاستراحة. وفى مراعٍ خضر يُربِض خرَافه، والى مياه الراحة يوردها. «عظموا الرب معى. ولنُعلِ اسمه معاً»(مز٣٤:٣).

يجب أن نسير فى البرية والا فلن نجد ايليم. على أن البرية تغدق على ايليم الكثير من بركاتها. إن المرض الطويل يجعل الهواء بديعا عندما يسمح لنا لأول مرة أن نتمشى أو نترَّيض. وثلوج الشتاء الطويل تطبع أزهى الألوان على زهور الربيع. فلا تلبث عند مارة متذمرا. بل تقدّم الى الأمام، فان ايليم فى انتظارك، وعلى مقربة منك. «يا نفسى...ترجى الله لأنى بعد أحمده» (مز٤٢:٥و١١).

فى مارة تلقى موسى من الله اعلانا مبهجا جديدا بأنه سوف يكون شافى شعبه أثناء مسيرهم فى البرية، منقذا اياهم من أمراض مصر. عجيب أن ترسل رسالة كهذه فى وقت كهذا. لكن نعمة الله لا تعطلها خطية الانسان، ولا تعوقها عن أن تعطى اعلاناتها السارة. وكانت ايليم هى التى أيدت الوعد. أى اله مثل الهنا؟ انه يطرح أعداءنا فى البحر، ويؤدب شعبه فى البرية. انه يقودنا فى الرمال المحرقة، ويريحنا فى الظلال البهيجة؟ انه يسمح بمرارة الفشل وخيبة الأمل فى مارة، ويُبَّهجنا فى إيليم. إنه يقودنا بعمود السحاب، ولكنه يتحدث الينا فى صوت بشرى. وهو يحصى عدد الكواكب، لكنه «كراع يرعى قطيعه ويقود المرضعات» (أش٤٠:١١). انه يختار سحابة محملة بالرعد القاصف، ليرسم عليها- كلوحة- مواعيده فى ألوان قوس قزح. هو يمتحن فى مارة، ويجدد القوة فى ايليم.

✝ ✝ ✝



الباب الرابع عشر

هبة المن

«ولما ارتفع سقيط الندى اذا على وجه البرية شيء دقيق مثل قشور. رقيق كالجليد على الأرض. فلما رأى بنو اسرائيل قالوا بعضهم لبعض منْ هو؟ لأنهم لم يعرفوا ما هو. فقال لهم موسى هو الخبز الذى أعطاكم الرب لتأكلوا».
(خر١٦:١٤و١٥)

قد نحط رحالنا فى ايليم، ونقضى فى رحابها الخضراء الوارفة الظلال أياما طويلة سعيدة، لكننا قد لا نعيش فيها الى نهاية الحياة. هذا هو حال الأغلبية على الأقل. فإن الاقامة الدائمة بها، وسط حياتها الناعمة وجوها الخانق، يصبح الاحتفاظ بالتقوى، والغيرة، والأحقاء المنطقة، وروح الجهاد أمرا عسيرا، ويحتاج الى نعمة أعظم مما لو أقمنا فى البرية الجرداء القاحلة وسط جوها المنعش. قليلون هم الذين يستطيعون أن يبلغوا أسمى درجات الحياة الروحية النبيلة وسط مباهج الحياة التى قد يسمح بها لكل شخص فى بعض الفترات. لهذا فان ظل عمود السحاب (أى الارشاد الالهى) فوق ايليم وقتا طويلا فانه سرعان ما يتحرك ويتقدم الى الأمام نحو صحارى البرية القاحلة، فلا يكون أمامنا الا أن نحل خيامنا ونتبعه. لهذا قيل «ثم ارتحلوا من ايليم، وأتى كل جماعة بنى اسرائيل الى برية سين التى بين ايليم وسيناء»(ص١٦:١).

لهذا قالت الجماعة الوداع أيتها السبعون نخلة، والاثنتا عشرة عين ماء، الوداع أيتها الساعات القصيرة، ساعات الراحة من وهج الصحراء ووعثائها. لكن ذاك الذى انكشفت طبيعته فى ذلك الجمال الخلاب، القادر أن يقدم أى عدد من ايليم ان أراد، لم يكن ممكنا الا أن يرافق شعبه دائما.

ليس أمر ذا بال ان كان الله يضعنا وسط الأرض الخضراء، أو وسط الصحراء. فهو المسئول أن يعوضنا- من مصادر- عما ينقصنا حسب ظروفنا الخارجية. ماذا يضيرنا إن لم تتوفر أشجار النخيل؟ فظل القدير يخبئنا من الحرارة اللافحة.

هنالك أشياء كثيرة عن الله وعن قدرته على سد كل أعواز النفس البشرية، لا نستطيع أن نتعلمها فى أى ايليم مع كل جمالها، ولا يمكن أن ندركها الا حيث بدلت ظلالها الوارفة بتلك الطرق الصخرية المؤدية الى سفح جبل سينا، كما تؤدى طرق المسلات الى معبد الكرنك. ان أجنحة النسور التى يحمل الله عليها شعبه(خر١٩:٤) لا تبسط تحتهم الا اذا تحطم العش. وسمو الله على كل النواميس الطبيعية لا يُدركَ الا حينما تبدو هذه النواميس ماثلة أمام الله مثل «ملائكة المقتدرين قوة الفاعلين أمره عند سماع صوت كلامه» (مز١٠٣:٢٠). وأن رقة الله ومحبته وعنايته الساهرة نحو أولاده لا تتبين الا حينما تأتى الشدة بأخطارها. واحتفاظ الله بمواعيده يدرك بسهولة عندما يبسط مائدة فى البرية، أكثر مما يدرك فى توالى فصول السنة أو سير الحياة العادية. اذن فمن الخير أن نترك ايليم، لأن خلفها يوجد جبل سينا، وجبل الفسجة، وأرض كنعان.

(١) تذمرات البرية:

كان مما يزيد المسئوليات، التى سبق أن وُضِعَت على كاهل موسى أن يواجه التذمرات المستمرة من الشعب الذى أحبه جدا. كان كل ما يفعله دواما هو أن يلجأ الى صديقه ومعينه الأبدى القدير، لكى يروى كل قصة آلامه لأذنيه الرقيقتين الشفوقتين. لكن هذه التذمرات المستمرة فى كل طريق البرية انما تُظِهر بأجلى وضوح جمال وداعته، ومجد ايمانه الذى استخدمته قدرة الله كوسيلة لخلاص شعبه وبركتهم.

أن سلسلة التذمرات لا تنقطع مع الأسف الشديد. فالشفاة التى تشترك فى ترنيم تسابيح التكريس، قد تشكو فى بعض الأحيان. وليس أحد فينا يحرص كما ينبغى على أن لا ينطبق بكلمات تنم عن عدم القناعة. كم مرة اختلطت التذمرات بالطعام الذى نأكله لأننا غير راضين رضاءً تاما بنوعه أو بطريقة إعداده، واختلطت بالطقس لأنه لا يتفق مع الخطط التى رسمناها، واختلطت بأعمالنا اليومية لأنها متعبة وغير مشوقة، وبوجود أو عدم وجود أشخاص معينين معنا.

المتذمرون كثيرو النسيان:

لم يكن قد مضى على خروج الشعب من مصر سوى شهر واحد، شهر اكتظ بالأعمال العجيبة التى صنعتها يمين الرب. يروى الكتاب أنه «فى اليوم الخامس عشر من الشهر الثانى بعد خروجهم من أرض مصر...تذمر كل جماعة بنى اسرائيل على موسى وهرون فى البرية. وقال لهما بنو اسرائيل: «ليتنا مُتنا بيد الرب فى أرض مصر اذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع. فإنكما أخرجتمانا الى هذا القفر لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع» (خر١٦:١-٣).

استطاعوا أن يتذكروا جيدا شهوات مصر الجسدية، لكنهم نسوا ضرب مسخريهم لهم بالسياط، وأنات قلوبهم التى تتصاعد عندما كانوا يعجنون الطين. لقد نسوا كيف شفق الرب عليهم، وقدم اليهم أعوازهم منذ أن وقفوا حول مائدتهم لأكل لحم خروف الفصح. لقد نسوا تسبحة الظفر التى سجلت ايمانهم القوى بأن الله سوف يأتى بهم الى أرض ميراثهم ويغرسهم فيها. لم يكن من كل هذا كافيا بأن يصد سيل تذمراتهم الدافق.

خليق بنا **عندما تهددنا موجة التذمر أن نتأمل فى الماضى، ونذكر معاملات الرب معنا السنين الغابرة.** إن كان قد أنقذنا من ست شدائد هل يليق به أن يتركنا فى السابعة (أى٥:١٩)؟ ان قد نجى أنفسنا من يد الهاوية أفلا يهتم أيضا بأجسادنا التى يشملها الثمن الذى اشترانا به؟ (هو١٣:١٤)عندما اشتكى المرنم، وتصاعد أنينه، وغشى على روحه، يقول لنا انه تفكر فى أيام القِدَم، فى السنين الدهرية، وتذكر ترنمه فى الليل، والسنين التى عمِلَت فيها يمين العلى. «أذكر أعمال الرب إذ أتذكر عجائبك منذ القِدَم»(مز٧٧:٣-١١). ونحن اذ نرجع الى ذاكرتنا يسلم بحر الماضى أمواته، اذ تبعث الى الحياة ذكريات صلاح الله وجودته، تكف التذمرات، وينتعش الايمان المذبذب.

والمتذمرون قصيرو النظر:

انهم لا يستطيعون أن يروا بأنه وراء كل المظاهر تختبئ حضرة الله وعنايته. لقد لفت موسى أنظار الشعب الى هذه الحقيقة، الأمر الذى زاد إثمهم شناعةً. لقد ظنوا بأنهم انما يتذمرون على انسان عادى مثلهم. فإنهم إذ كانوا غاضبين ومنزعجين رأوا أن ينفسوا عن

أنفسهم بأن يفجروا بركان غضبهم على الشخص الذى كانوا مدينين له بكل شىء. آه، انه من العبث الثقة بعامة الشعب الذين يصرخون اليوم قائلين «أوصنا». غدا، يصرخون قائلين «اصلبه».

لكن قائدهم الأمين بيَّن لهم بأن اساءاتهم ليست موجهة الى شخصه، بل الى من يخدمه، والى من يأتمر بأمره فى كل ما يعمل. «لاستماع الرب تذمركم الذى تتذمرون عليه. وأما نحن فماذا؟ ليس علينا تذمركم بل على الرب» (ع٨).

خليق بنا أن نتأمل مليا فى هذه الكلمات. يميل بعض أولاد الله الى الاعتقاد فى عناية عامة تشمل كل البشر، أكثر من اعتقادهم فى عناية خاصة. لكن العناية العامة تتضمن الخاصة. إن كل تعليم الرب يسوع يحتم علينا الاعتقاد فى عنايته التى تحصى شعور رؤوسنا. والمبادئ الأولية فى تهذيبنا تقرر بأن هنالك إشرافا على الأمور التافهة فى حياتنا، وأمور الحياة اليومية العادية. لابُد أن يتدّخل الله فى كل الأشياء، ويسمح بها. اذن فمن المسحيل أن نتذمر دون أن تكون كل كلمة تذمر كسيف يمزق ما نرى. ويطعن قلب ذاك الذى لا تخفى عليه أمورنا. إن التذمر والأنين والشكوى موجهة ضد ارادة الله، وتدبيره، وخططه.

وعلاجها هو أن نقبَّل كل شىء من يده، ونرتضى بما يُرتّبه لنا بحكمته، ونعتقد بأنه يستطيع أن يستخرج منه أفضل النتائج.

والمتذمرون قليلو الايمان:

مع أن ضغط الحاجة كان خفيفا- ويكاد يكون معدوما إلا أن الجماعة بدأوا يحسون به. ولم تكن الصعوبة التى كانوا يكابدونها تستحق أن تسمى صعوبة، لكنهم هكذا توهموها شديدة. كانت مؤونتهم تتناقص، وبدأوا يحسون ان ما احتفظوا به من طعام سوف لا يكفيهم الا لفترة وجيزة، من أجل هذا أتوا الى موسى وتذمروا.

كثيرا ما أخَّر الله إمداداته. هو يتأنى قبل أن يأتى، يتأنى الى أن نصبح عديمى الثقة فى أنفسنا، يتأنى لكى يُبّين لنا سخافة انتظار المعونة من البشر. فى مثل هذه الأوقات نحن

كثيرا ما نُفَوِّت على أنفسنا الدرس الذى يريد الله أن يعلمنا اياه، وننذب سوء حظنا، رغم أن قلوبنا الخائرة الخائفة هى التى تتوهم أنه سوء حظ. من فساد حياتنا الداخلية تتصاعد عفونة الشك وعدم الايمان، وعندئذ نبدأ بأن نتوهم لأنفسنا مناظر مخيفة، ونظن بأن لها وجودا حقيقيا، فننطرح على الأرض خائفين جدا، كما فعل شاول أمام شبح صموئيل.

تخور جدا عزائم الكثيرين من أولاد الله الى درجة اليأس، بسبب ما يخافون منه، ويتذمرون لئلا يهلكوا. مع أنهم لم **تأملوا لحظة واحدة لرأوا بأن الله ملتزم بالعناية بهم.** لماذا تتذمر؟ لأنك تشك. ولماذا تشك؟ لأنك تتطلع الى المستقبل بعيدا عن الله، أو تفكر فى ظروفك بمَعزِل عن الله؟ أما اذا كانت العين بسيطة فى تطلعها الى الله، الى محبته وحكمته ومصادر بركاته، فإن الايمان يشتد، ويقرأ محبته فى عينيه، ويعتمد على أمانته، ويتأكد بأن الذى لم يُشفِق على ابنه، بل بذله لأجلنا، يهبنا معه أيضا كل شئ بِغنَى وبسخاء (رو٨:٣٢).

ياللهوة السحيقة بين حياة التذمر هذه وبين موقف ربنا المبارك. فإنه هو أيضا اقتيد الى البرية، وكان بدون طعام أربعين يوما. لكنه لم يشْكِ، ولم تخرج من فمه كلمة تذَّمر.

وعندما جاع وحاول الشيطان أن يُدخِل فى رَوعِه بأن الجوع لا يتفق مع بنويته لله، قال بكل هدوء انه يكفيه أن يكون فى إرادة أبيه، وأنه «ليس بالخبز وحده يحيا الانسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله».

(٢) طعام البرية:

لا داعى لسرد كل راوية المن هنا، واشارتها الروحية الغنية للخبز الحقيقى الذى هو المسيح. ويكفى أن نتذكر ما يلى:

يجب أن نتطلع اليه لسد أعوازنا: «أعطاهم خبزا من السماء ليأكلوا» (يو٦:٣١). هناك خمسة مصادر تأتى منها المعونة للمؤمن، لأنه يتطلع الى السماء علاوة على أربعة أطراف الرياح. ومن السماء صار صوت كما من هبوب ريح عاصفة (أع٢:٢). **أيها المؤمن، تطلع الى فوق، الى قلب الآب والى يده.**

يجب أن نتغذَّى بخبز السماء- كل يوم- فى الصباح الباكر: «كانوا يلتقطونه صباحا فصباحا. واذا حميت الشمس كان يذوب» (ع٢١). لا يوجد هنالك وقت أفضل من ساعة الصباح المبكر لنتغذَّى بخبز السماء، وذلك **بالصلاة والتأمل فى كلمته**. ان أهملنا هذه الساعة طغت علينا مشاغل الحياة الكثيرة، ولو كانت كلها نافعة وضرورية، وفوتت علينا الفرصة دون رجعة. ان اليوم الذى يكرس صاحبه الباكر فى الشركة مع المسيح يختلف عن سائر الأيام. ونحن لا يمكننا أن نعيش اليوم على فضلات الأمس. وكل امرئ يحتاج الى كل ما يمكن أن يقدمه اليه النهار الجديد من نعمة الله وتعزياته. يجب أن ننال خبزنا يوما بيوم.

- **والتغذية بالمسيح هى السر الوحيد للقوة والبركة:** إن أدرك المؤمنون وهضموا الدرس الذى تُعلِمّه لنا هذه الآيات، وحديث الرب العجيب المؤَسس عليه(يو٦:٢٢-٥٨)لاختبروا تغييرا عجيبا. وهذا التغيير العجيب الذى يتم نتيجة دراسة ما سجله الكتاب المقدس عن المسيح يكاد لا يُصدَّق. عندما نجلس لنتلذذ بالكتاب المقدس، عندما نقرأ اصحاحين أو ثلاثة، أو رسالة أو سفراً فى جلسة واحدة، عندما ندع القلب والعقل يتعمقان فى دراسته، عندما نعمل هذا أن ينشغل القلب بالمشاغل العالمية الكثيرة، عندئذ نختبر تغييراً عظيماً.

ونختم حديثنا فى هذا الفصل، بلفت النظر الى تلك العبارة الجميلة التى نطق بها الرب عندما قال: «**ليس موسى أعطاهم الخبز من السماء**» (يو٦:٣٢) مشيرا بذلك الى أنه ان كان موسى لم يعط الخبز الأبدى الذى كان يتكلم عنه، الا أنه أعطى نوعا آخر من الخبز، أى المن، فان عبده الأمين كا ن يحصل كل يوم على الطعام ويقدمه الى شعبه ليتغذى به.

نحن لا نجهل فى هذه الأيام كيف أن ايمان شخص واحد ينجح فى الحصول على الطعام اليومى لمئات الأيتام أو غيرهم. فالله يعطيهم لكى يعطوا لمن أؤتمنوا هم عليهم. لكن هذه كلها تافهة جدا بجانب معجزة **الايمان العجيبة التى استطاعت أن تغطى البرية بالطعام أربعين سنة.**

خليق بكل من يقرأ هذه الكلمات أن لا يتردد لحظة واحدة فى الدخول فى شركة مع الله بصدد أية خدمة قد يدعوه اليها. والشيء الوحيد الضرورى هو الإسراع فى تبيُّنِ إرادته، وفى

إطاعته، مع المثابرة. عندما تتم هذه الشروط تسير النفس مع الله فى شركة مباركة، وتتلذذ بالصعوبات والضيقات والمجاعات والأخطار، لأن كلا من هذه تكشف المصادر الالهية، فان الله يجعل حتى الجبال طريقا. شخص كهذا لا يُبالِى بالتذمرات أو بالمديح، لا يبالى بالانتقاد أو بالثناء، طالما كانت النفس متمتعة بالشركة العميقة التى هى بركة كاملة، وطالما كانت فى حالة رضا كامل.

اذن فلنفتخر دواما بالرب فى كل مرة نتقدم الى عمل نجهله، ولم نختبره من قبل. ومن ذا الذى يتحسر على جمال إيليم، أو قدور اللحم فى مصر، أو طعام خيمة يثرون التافه، ان كل يتلقن دروسا كهذه فى عشرة صديقنا الأزلى الأبدى، الذى لن يخيب من اتكل عليه، والذى يعطى ويُجزِل العطاء حسب إيماننا، لكى نستطيع نحن أيضا بدورنا أن نسد أعواز اخوتنا الفقراء الذين يقرعون أبوابنا طالبين المعونة والطعام (لو١١:٥-٩).

✝ ✝ ✝

الباب الخامس عشر

رفيديم

«ولم يكن ماء ليشرب الشعب. فقال الرب لموسى... نضرب الصخرة فيخرج منها ماء. ففعل موسى هكذا».

«وأتى عماليق وحارب إسرائيل فى رفيديم. فكانت يداه (يدا موسى) ثابتتين إلى غروب الشمس. فبنى موسى مذبحا ودعا اسمه يهوه نسى (أى الرب رايتى» (خر ١٧: ١ - ١٥)

إن حاولت قيادة البشر فأنت مقبل إلى رفيديم إن عاجلاً أو آجلاً. فالكتاب يخبرنا صراحة أن بنى اسرائيل ارتحلوا «من برية سين بحسب مراحلهم (أى بحسب محطات ارتحالهم) بناءً على أمر الرب، ونزلوا فى رفيديم» (ص ١٧: ١).

٠٠ أن صفات العامل عزيزة فى عينَّى الرب، كالعمل الذى يقوم به. ولن يدخر الصانع الأعظم أى وسع فى سبيل إتمام العمل الذى وضع هو يده عليه. فلا تدهش إذن ياخادم المسيح إن وجدت نفسك قد وُضِعّتَ فى رفيديم. هنالك دروس ثمينة جدا يمكن أن نتعلمها هناك.

لم يستطع الجغرافيون والمؤرخون أن يحددوا تماما موقع رفيديم، لكن هذه ناحية ليست جوهرية. لاشك فى أنها تقع بجوار الشاطىء، فى أحد الأدوية المؤدية إلى قلب جبال تلك المنطقة. على أن الاختبارات التى حفلها ذلك المكان يمكن أن يختبرها كل الأفراد، وكل الأجيال، وكل الأراضى.

(١) هنالك نتعلم أن مقدرتنا محدودة:

قليلون منا هم الذين يستطيعون أن يثبتوا أمام النجاح العظيم، أو الطويل الأمد. من اليسير أن نسير فى وادى الاتضاع، حيث يكون طريقنا مختفيا، وأوجه البشر متحولة عنا. إما أن نقف فوق قمة الجبل، حيث لا تبقى قمة أخرى تتحدانا، وحيث تتطلع الينا الجماهير بين التعجب والحسد، آه، هذه مهمة يصاب العقل فيها بالدوار، وتتعثر الخطِىَ، وينتفخ القلب. انه أيسر لنا أن نعرف بأن نتضع من أن نعرف بأن نستفضل، أن نعرف بأن نجوع من أن نعرف بأن نشبع (فى ٤: ١٢). اننا نميل بأن نكرر حماقة حزقيا اذ نكشف عن كنوزنا ليراها سفراء بابل (٢مل ٢٠: ١٢ - ١٨)، وأن نردد تفاخر نبوخذ ناصر الجنونى «أليست هذه بابل العظيمة التى بنيَّتها (أنا) لبيت الملك بقوة إقتدارى ولجلال مجدى» (دا ٤: ٣٠).؟!

وعندما يحصل هذا، فان القلب ينتفخ فى الحال، ويتشامخ فى الثقة بالنفس، ولا يعود المرء بعد صالحا للخدمة. الله لا يعطى مجده لآخر (أش ٤٢: ٨). ولا يسمح بأن تستخدم قوته لإثارة الكبرياء فى البشر، أو لرفعة الجسد. لقد أعلنها هو صراحة أنه لا يليق أن يفتخر كل ذى جسد أمامه (١كو ١: ٢٩). «هل تفتخر الناس على القاطع بها، أو يتكبر المنشار على مردده. كأن القضيب يحرك رافعه» (اش ١٠: ١٥).

هذا هو السبب الذى لأجله ينحى جانبا الكثيرون من خُدَّام الله، إذا أُوتمنوا على خدمة جليلة. لقد أعانهم الله جدا حتى صاروا أقوياء، ولكن عندما أصبحوا أقوياء ارتفع قلبهم لهلاكهم. انهم لا يزالون يلقون نفس العظات القديمة التى كانت تجلجل المنابر وتهز القلوب، ولكنها ليس لها الآن أقل تأثير. لا يزالون يأمرون الأرواح الشريرة بالخروج كما كانوا يفعلون فى القديم، لكنها تهزأ بهم وتأبىَّ الخروج. وأخيراً يعلمون أن الرب قد فارقهم، وأن الحال قد تغير عما كانوا عليه قديما. اذ ما تأمل هؤلاء قليلا، وفحموا قلوبهم، وجدوا أنهم قد بدأوا يتكلون على قوة دفع نجاحهم الماضى، ظانين أن صيد السمك الكثير يعزى الى اختبارهم كصيادين، وليس هو هبة مباشرة من ذاك الذى كثيرا ما يتحدى قوانين المهنة بمعرفته الإلهية وقدرته السرمدية.

لا نكون مخطئين اذا ما تصورنا أن موسى كان فى خطر سقوط مماثل. لقد كانت حياته فى الشهور الأخيرة القليلة سلسلة متواصلة من النجاح. لقد ألزم أعظم ملك فى عصره الى أن يخر على ركبتيه مقدما إليه توسله. لقد صار عظيماً جداً فى أعين كهنة مصر وحاشية الملك. لقد قاد أعظم خروج شهده العالم أو سيشهده. كان انشقاق البحر، وغرق جيش المصريـين، وتسبحة الظفر، وسقوط المن، ودلائل حنكته وحكمتـه كرجلٍ، وُلِد ليكون قائداً ـ هذه كلها تعاونت على أن تضعه فى مركز عظيم جدا من السُلطان والمجد. لقد «كان فى بشورون ملكاً حين اجتمع رؤساء الشعب أسباط اسرائيل معا» كما تقرر أنشودة الظفر (تث ٣٣: ٥).

الم تكن هنالك تجربة فى كل هذا؟ يحذر الناس أشخاصا آخرون من التجارب التى يكادون هم أنفسهم ينجرفون فيها. ألا يجوز أن موسى كان يتحدث عن اختباره هو شخصياً حين حذر الشعب قائلا: «متى أكلت وشبعت **احذر من أن تنسى الرب الهك**... لئلا إذا أكلت وشبعت... وكثر كل مالك يرتفع قلبك وتنسى الرب الهك... ولئلا تقول فى قلبك قوتى وقدرة يدى اصطنعت لى هذه الثروة» (تث ٨: ١١ - ١٧).

ليس الرجال العظماء الصالحون محصنين ضد هذه الهجمات، هجمات الكبرياء والمجد الباطل. ليس أحد فينا خالياً من الميل لتضحية المبدأ من أجل تقدم المصلحة الشخصية. من أجل هذا افتخر بولس بضعفاته، واجداً فيها مُذكِرا دائما له بضعفه، الأمر الذى اذله، فاختارة الله إناءً لإظهار قدرته واستخدامها لخير الآخرين.

إذن. فلعل الله قد أتى بموسى إلى رفيديم لكى يصد كل ميل فيه للثقة بالنفس، لكى يذله إلى التراب فيشعر بأنه لا حول له له ولا قوة، ولكى يعلمه حدود قدرته الضيقة. كل هذا يعمله الله «ليحول الانسان عن عمله [١] ليكتم [٢] الكبرياء عن الرجل» (أى ٣٣: ١٧).

ومهما كان تفكير موسى فى بداية الأمر، فإن كل ثقة بالنفس لابُد أن تكون قد تلاشت تماما عندما وجد نفسه يواجه ذلك الشعب الساخط الثائر، الذى تخطى كل حدود الشكر، والعرفان بالجميل، والوطنية، واحترام النفس، وذكريات خلاص الله فى المرات السابقة،

---

(١) أو «مقاصده» حسب الترجمة الانكليزية.

(٢) أو «يمحو» حسب ترجمة اليسوعيين، أو «يُبعِد» حسب الترجمة الانكليزية.

وبعنف طالب بماء ليشرب. «فخاصم الشعب موسى وقالوا أعطونا ماء لنشرب... وتذمر الشعب على موسى وقالوا لماذا أصعَّدتنا من مصر لتُميتَنا وأولادنا ومواشينا بالعطش» (خر ١٧: ٢و٣). وكانت ثورتهم عنيفة جدا حتى كادوا يرجمونه (ع ٤).

أكانت هذه هى الطريقة اللائقة التى يكافئونه بها عن خدماته لهم غير المحدودة؟ ألم تكن هنالك طريقة غير هذه يظهرون بها عنايتهم به؟ آه، انه لم يكن يحتل كل قلوبهم كما توهم، وكما كان يرجو. وأما من جهة الماء فمن أين يأتى به؟ لم تكن لديه حكمة أو قوة تسعفه فى ضيقة كهذه. ولا كان يستطيع أن يقترح أى حل. لقد أحس بعجزهِ المطلق. «فصرخ موسى إلى الرب قائلا ماذا أفعل» (ع٤)؟!.

انه لموقف مبارك تضعنا فيه العناية الإلهية، عندما نجد أنفسنا نواجه مشكلة محيرة ميئسة. لو أن امامنا جدولا صغيرا لخضناه، لكن الذى امامنا نهر متسع. لو أن الذى عطش طفل صغير لأمكن أن نروى ظمأة، لكن هنا مليونان من الأنفس العطشانة. ولو أنهم عطشوا إلى ماء العالم لأمكن أتخاذ أى تدبير لتوفير الماء، لكن الذى أمامنا هو تعطش من أجل الماء الحى النابع من عرش الله والحَمَل. عندئذ نتعلم أن امكانياتنا محدودة. ونصرخ إلى الله قائلين: «من هو كُفء لهذه الأمور؟» ونعترف بأننا لسنا كفاة من أنفسنا، حتى ننسب أى شىء لأنفسنا، بل كفايتنا من الله. (٢ كو ٢: ١٦، ٣: ٥). نحن لا نستطيع أن نثير انتعاشا فى الكنيسة، أو نخلص نفسا، أو نقنع قلبا بالخطية أو نذله بالتوبة. ولا نستطيع أن نعزى نفسا حزينة، أو نقدم المشورة الحكيمة، أو نروى العطشان. وعندما نجد أنفسنا عاجزين عجزا تاما نكون قد اقتربنا من الله. عندما نصل إلى أقصى درجات الذُل والتواضع يبدأ طريق السمو والرِفعَة، الطريق إلى السماء.

(٢) هنالك نتعلم الكثير عن الله:

هذا الدرس يتبع دائما الدرس السابق. عندما نعرف أنفسنا نكون مستعدين لنعرف الله. يسأل السيد دائماً «من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء؟ كم عندكم من الخبز»؟ (يو ٦: ٥، مت ١٥: ١٤)، لا لأنه يريد أن يعرف، بل لأنه يريد أن يضع خدامه أمام عجزهم المطلق، وأن يعدهم لتقدير عظمة قدرته. لكن هذا السؤال الذى يدفع إلى الاعتراف بضآلة عدد الأرغفة يتبعه حتما هذا الطلب «ايتونى بها إلى هناك» (مت ١٤: ١٨)، وتتبعه أكداس

الطعام الذى باركه، والتى تَنِم عن وفرة إمداداته. وهكذا نجد الحال فى رفيديم، فإن الحاجة التى تذلنا وتدفعنا إلى الله، هى التى تعلن لنا الله.

اننا نتعلم صبره:

لم تسمع كلمة تعبير أو توبيخ تقطع صمت الصحراء. لو أن الشعب أظهروا ثقة مثالية لما أمكنهم أن يجدوا رقة أعظم، واستعدادا أوفر، لسد أعوازهم. لقد جربه الشعب ـ ولاسيما لاوى ـ فى مسة، وخاصموه عند ماء مريبة (تث ٣٣: ٨)، متسائلين عما إذا كان الرب فى وسطهم أم لا؟ (خر ٧)، بالرغم من أن عمود السحاب كان لا يزال يظللهم، والمن كان لا يزال يسقط كل صباح حول المحلة. **ومع هذا لم تسمع كلمة توبيخ، بل مجرد ارشاد عما يجب أن يعمل لسد حاجتهم.** فى رفيديم فقط نتعلم صبر الله نحونا ونحو الآخرين، لأنه يذكر عهده دواما، «لأن إلى الأبد رحمته».

ونتعلم يقينية حضوره معنا:

«ها أنا أقف أمامك على الصخرة فى حوريب» (ع٦). كان قد تهدد موسى بالرجم قبل ذلك مباشرة، لكن الله أمره بأن لا يخاف. وكأنه قد قال له: «لا تخف، أنا معك. لا ترهب، أنا الهك. لا يقع بك أحد ليؤذيك، لأنى أنا معك لأنقذك. مر قدام الشعب، لن يؤذيك أحد، وهذه لك العلامة بأننى أنا فعلا على الصخرة: انها ستفيض ماء». لم يكن الله من قبل يقينيا لعبده كما كان فى ذلك اليوم، عندما قام كحصن، ليحميه من الشعب الثائر الذى هدده بالرجم. عندما تشتد ثورة الشعب ضدنا يقف الرب بجانبنا ـ كما فعل مع بولس (٢تى ٤: ١٧) ـ ويقول «لا تخف».

ونتعلم كيف نجد مخازن الله السرية:

«نضرب الصخرة فيخرج منها ماء» هذا عجيب. ان الصخرة هى آخر مكان يُختّار لتخزين الماء. لكن مخازن الله توجد فى الأمكنة التى لا تخطر بالبال. ان الغربان تأتى بالطعام. ورئيس وزراء مصر يعطى قمحا. وكورش يطلق شعب اسرائيل من بابل. والأردن يُشفِى الأبرص. والدقيق يبرىء السليقة السامة. وعود الخشب يجعل الحديد يطفو. والسامرى يعصب جراحات المسافر الذى سطا عليه اللصوص، وينجى حياته.

ويوسف الرامى يدفن الجسد المقدس فى قبره الجديد.. خليق بنا للذهاب الى رفيديم لنتطلع الى غِنَى مخازن الله. ان الذين يتقونه لن يعوزهم شيء، والذين عرفوا مخازنه السرية لا يخافون من أن يعوزهم شيء. «ما لم ترَ عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال انسان ما أعده الله للذين يحبونه، أعلنه الله لنا نحن بروحه» (١كو ٢: ٩و ١٠).

كانت تلك الصخرة التى ضربت **رمزاً للمسيح**. صخرة؟ نعم.. هو راسخ وسط الأمواج، وثابت وسط التغيرات. صخرةٌ ضِربَت؟ نعم. فإن العار قد كسر قلبه (مز ٦٩: ٢٠)، وحربة العسكرى طعنت جنبه، فخرج دم وماء لشفاء الأمم وإرواء عطشهم. «كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم. والصخرة كانت المسيح» (١كو ١٠: ٤). ولا توجد مياه تروى العطش مثل هذه المياه البلورية الخارجة من هذه الصخرة. هنالك ترنيمة تقول: «يا صخر الدهور الأزلى، لقد ضُرِبّتَ من أجلى».

(٣) وهنالك نتعلم قوة الصلاة:

الأرجح أن قبيلة عماليق كانت من نسل عيسو، فكانت وحشية فظة محبة للحرب مثله. أكان معقولا أن يخنعوا أمام شعب جديد، يتطفل على مراعيهم ويهدد حصونهم التى ثبتت أمام غارات مصر؟ هذا مستحيل. لهذا فإن تلك القبيلة القوية ـ كما يخبرنا يوسيفوس ـ جمعت فى ذلك المكان كل قوات الصحراء من بترا إلى البحر الأبيض المتوسط، «وضربوا مُؤخرة الاسرائيليين، أى كل المستضعفين فيهم، عندما أعيُّوا من التعب».

ان كانت مصر تمثل قوة الظلمة، فإن عماليق يرمز للجسد، الذى مهما غُلِب وتحَّطِم فإنه يميل دواما إلى أن ينهض ويهجم فى ساعات الضعف وعدم السهر. فى تاريخ اسرائيل القديم كاد هامان ـ العماليقى ـ يفنى كل الشعب. وتمشيا مع هذا الرمز صدر الأمر إلى شاول الملك ليُفِنِى شعب عماليق. وتمشيا مع هذا الرمز أيضا، أعلن الرب هذا التصريح: «للرب حرب مع عماليق من دور إلى دور» (ع١٦).

انقبضت نفس موسى من شدة وطأة الحرب، وكان عمره وقتئذ ٨١ سنة. فأوكل قيادة الجيش إلى يشوع، الذى نراه يبرز هنا لأول مرة، أما هو فقد صعد إلى رأس التلة والعصا المقدسة فى يدة. وإذ تطلع إلى ساحة الحرب بسط يديه للصلاة، حارب ذلك

النهار بالجيوش غير المنظورة وانتصر على العدو بالصلاة، التى كانت ترمز إليها اليدان المبسوطتان. يا لها من صورة جميلة جداً، صورة ثلاثة رجال متقدمين فى العمر يصلون، اثنان منهم يدعمان يدى الثالث.

فى رفيديم نتعلم هذا الدرس أن الصلاة تفعل المستحيل. كان فى أيامه الأولى لا يفكر فى كسب معركة ألا بالحرب، أما الآن فقد تعلم أنه يستطيع أن يكسبها بالصلاة. ولعل بولس تعلم هذا الدرس أيضاً فى سجونه الطويلة الأمد المتعبة. لابُد أنها فى بداية الأمر قد أتعبت روحه الوثابة، إذ كان قد تعود أن يُمنِّطق ذاته ويسير أينما أراد. بل ربما يكون قد جرَّب بأن يشعر أن كل قوته لتحديد مصير الكنيسة قد تلاشت. لكنه فجأة اكتشف قوة ترفعه، استطاع بها أن يحصل على نتائج أعظم مما حصل عليه من قبل. ومن ذلك الوقت نجد بكل رسالة إشارة لصلواته. ولا شك أنك تذكر عبارته المتكررة: «بلا انقطاع أذكركم متضرعا دائما فى صلواتى».

نحن لا يمكننا أن نقارن أنفسنا بأحد هذين الخادمين المباركين. لكننا على الأقل نستطيع أن نقتدى بهما فى صلواتهما. إن نجاح أية كنيسة يتوقف على صلواتها. إن أُقيمت بانتظام رفرف عليها علم النصر، وأن تراخت فى الصلاة وأهملتها، هجم عليها العدو وانتصر عليها. اذن فلنتعلم الصلاة، ولنملأ رفيديم بالصراخ الشديد والدموع، فنحصل بالإيمان على النُصرَة من أجل أنفسنا ومن أجل الآخرين، الأمر الذى لا يمكن أن نحصل عليه بقوتنا الشخصية. هذا أقوى ما يُشجِّعنا ويملأ قلوبنا فرحا وشفاهنا ترنما وأيدينا بغنائم العدو. إن تعودنا الصعود فوق الجبل، باسطين أيدينا ثابتة فى الصلاة، حصلنا على بركات عظيمة، وخلاص عجيب من أجل أحبائنا وكل من انغمسوا فى ملذات الجسد. فاسمح اذن للمسيح الذى فيك أن يطلب من أجل أحبائك ـ عن طريقك ـ لكى لا يفنى إيمانهم، كما طلب من أجل بطرس، بل لكى يخلصوا كعصفور من فخ الصياد.

✝ ✝ ✝

الباب السادس عشر

موسى يقف أمام الله نيابة عن الشعب

«كن أنت للشعب أمام الله.

قدم أنت الدعوى إلى الله»

(خر ١٨: ١٩)

عندما غادر جماعة اسرائيل رفيديم بدأوا يصعدون من شاطيء البحر إلى قلب سلسلة جبال سينا. وكان طريقهم يشبه سُلماً صخرياً. كان عمود السحاب يسير أمامهم، يقودهم إلى حيث لا يعلمون. لقد عرفوا فقط أنهم ليس أمامهم الا أن يتبعوه، طالما كان المن والماء يتوقفان على الطاعة المطلقة لتحركاته. ارتفعت الصخور على كلا الجانبين كأسوار، لهيكل عظيم، اذ كانوا يسيرون الى قُدس الأقداس الذى كان قريبا منهم. فى هذا الطريق تمت الحادثة المدُوَّنة فى هذا الأصحاح. لأن هذه العبارة: «عند جبل الله» (ص ١٨: ٥) تشير على الأرجح الى كل المنطقة.

تسير الأنباء فى الصحراء بسرعة البرق. ولقد كانت كل الأنباء بتفاصيلها تصل الى الكاهن الشيخ الرابض فى مديان، فعلم بسلسلة الحوادث العجيبة جدا التى كان بطلها صهره. لهذا فإنه عندما وصلته الأنباء بوصول كل الجماعة الى قرب سينا أخذ صفورة امرأة موسى وابنيها الذين كانوا قد أودعوا عنده للعناية بهم، وأحضرهم إلى موسى. وبعد التحية الشرقية المعتادة تحادَثا طويلا عن الطريقة العجيبة التى قاد بها الرب شعبه. وختم النهار بوليمة عظيمة «وذبائح لله». ويبدو أن اليوم التالى كان يوم راحة. فعمود السحاب ظل ثابتا لا يتحرك. وفى هذا اليوم تمت حادثة كانت تنتظرها نتائج جوهرية فى تاريخ ذلك القائد العظيم، وفى تاريخ الشعب الذى كان يقوده. «وحدث فى الغد أن موسى جلس ليقضى للشعب. فوقف الشعب عند موسى من الصباح إلى المساء» (ع ١٣).

تصرفات موسى التى تعودها:

هنا نجد فجأة لمحة عن نوع الحياة التى كان يحياها موسى وقتئذ. عندما كانت الجماعة تحط رحالها، ويأتى يوم يسترحون فيه من تعب المسير، يبدو أنه كان يجلس على كرسى

القضاء، فيلجأ إليه كل الشعب، كل المتنازعين والمتخاصمين، وكل من لديهم أمور يطلبون من أجلها استشارة إلهية. وبالرغم من كل تذمراتهم، فإنهم كانوا يتطلعون إليه كمن ينطق بصوت الله، وكانوا يطلبون من فمه إعلان عن إرادة الله. عندما كان الشعب يستجد لديه أى أمر كان يأتى إليه «ليسأل الله» ـ حسب تعبيره هو ـ وأما هو فكان يُعرّفهم: «فرائض الله وشرائعه« (ع ١٥و ١٦).

كان هذا عملا الهيا، كافيا لاستخدام أسمى مواهبه والانتفاع بمميزاته التى ظلت مكبوتة فى داخله سنوات طويلة، لأنه أى شىء أسمى فى هذا العالم من أن يخدم المرء مثل **«وسيط واحد من ألف ليعلن للانسان استقامته»** [١] حسب تعبير أيوب (أى ٣٣: ٢٣)، وأن يستمع إلى صعوبات ومشاكل وارتباكات المتألمين والمتعبين، ويسأل الله من أجلهم، ويأتى بقضاياهم الى عرشه ليعلم حكمه، وأن يلجأ إلى رحمته طالبا منه العون، ويعود إليهم ليعلمهم، ويبين لهم الطريق الذى يسلكونه والعمل الذى يعملونه. هذه خدمة تليق بالملائكة الممتلئين محبة وعطفا ورقة، وهى من بعض النواحى تشبه خدمة الفادى.

لم يقم موسى بخدمة الوساطة (الشفاعة) المباركة هذه ككاهن، لأن وظيفة الكهنوت لم تكن قد تأسست بعد، بل كشخص نبيل متسع القلب، أفرغ من نفسه، له أُذُن الله، يقوم «للشعب أمام الله». وهذا يفتح مجالا عظيما للخدمة أمامنا أجمعين، لاسيما أمام من لهم دالة أمام ملك الملوك، وتعودوا الوقوف أمام عرشه. لماذا لا تكون لنا فرصة أعظم للاشتراك مع موسى فى هذه الخدمة الجليلة المفتوحة أمام ذى اللسان الألكن؟ مثل ما هى مفتوحة أمام ذهبى الفم، أن الفرصة مهيأة أمام المواهب التى لا تميل الى الاعلان عن نفسها، بل تنفر من أن يراها الناس.

اننا لنتخيلَّه ذاهباً إلى الله كل يوم بقائمة طويلة من الأسئلة المقدمة إليه من أفراد الجماعة المختلفين. كان يضع هذه القضية أو تلك أمام الله طالبا المشورة، كما كان يقدم أسماء أصحابها وظروفهم، والحجج والمبررات لكل حالة، وينتظر الرسالة التى يعود بها ليقدمها اليهم، بالتنوع القضايا، يا لاستقامة الأجابة، يا للثقة المطلقة التى سادت صلواته. لابُد أنه قد تحققَّ بوضوح تام أنه شريك للعلى، وعامل معه، ومشترك معه فى

---

(١) أو «ما هو مستقيم ليسلكه» حسب الترجمة الإنكليزية.

حمل النير، وأنه هو والله تعنيهما مصلحة الشعب الذى أحبَّاه. ولماذا لا نبدأ نحن أيضا نحيا هذه الحياة؟ إن الصوت الذى كلم موسى يكلمنا نحن أيضا ويقول: «كن أنت للشعب أمام الله. وقدم أنت الدعاوى الى الله» (ع ١٩). والأبواب التى اجتازها مراراً وتكراراً لا تزال مفتوحة أمامنا نهاراً وليلا.

كثيراً ما نعجب بذلك الخادم الذى كان يصرف ثلاث ساعات كل يوم فى الصلاة والتأملات، والخادم الآخر الذى كان يقضى خمس ساعات فى شركة مع الله، أو الخادم الثالث الذى انقضى اليوم ولم يصرف فيه ثمان أو عشر ساعات فى شركة عميقة مع الله يعتبر بأنه قد انقضى عبثا.

قد يبدو لنا بأن الصلوات الطويلة تستدعى حتما الملل والسأم بسبب التكرار الباطل. ونحن ننسى أن المرء اذا ذهب الى السوق محملا بطلبات كثيرة من أجل جيرانه وأصدقائه يصرف وقتا أطول مما لو ذهب من أجل حاجياته الشخصية فقط. فجميل جدا إذن كانت حاجيات الآخرين تؤخرنا طويلا أمام الرب ولقد صار وقوف موسى هذا أمام الله من أجل الشعب مميزا لحياته أكثر فأكثر. فكلما صرخ الشعب إليه صلى هو إلى الرب. وعندما كانت روح الثورة تنتشر فى المحلة كان هو يسقط على وجهه. وعندما كان يبدو أن الشعب كله مهدد بالهلاك من أجل خطيتهم كان يقف هو فى الثغرة، ويتوسل إلى الرب، فيُحوِّل عنهم الهلاك الذى كان مسلطا فوق رقابهم. وفى مرتين متواليتين تأخر فى الجبل المقدس أربعين يوما من أجلهم. وبعد وفاته بسنوات طويلة ذُكِر اسمه **مع صموئيل، كشخص واقف أمام الله يتشفع من أجل شعبه.**

أليس هذا رمزا جميلا للرب يسوع المسيح، مع الفارق العظيم والهوة السحيقة بين الاثنين؟ «لأن موسى كان أمينا فى كل بيته كخادم، وأما المسيح فكابن على بيته. وبيته نحن» (عب ٢: ٦،٥). وكل ما فعله موسى يفعله الرب يسوع وأكثر منه. **عندما تكون لنا قضية يجب أن نلجأ إليه. هو يتراءى ويشفع فينا أمام الآب.** باسمه يجب أن نقدم طلباتنا لله. وهو يعلمنا فرائض الله وشرائعه، ويعلمنا الطريق الذى نسلكه والعمل الذى نعمله.

إجهاد قوة موسى:

لا يمكن أن يتم عمل كهذا دون اتفاق عنيف من كل ما هو حيوى للإنسان، انه يجهد العواطف، والعقل، وبتعب القلب اذ يحمل بالانزعاجات والأحزان، ويثقل كاهل المرء بأثقال واحتياجات وهموم النفوس المتعبة الحائرة. لا تستطيع أن تربح الآخرين وتريح ذاتك فى نفس الوقت. والقوة لا يمكن أن تخرج لكى تشفى دون أن تحس بالاجهاد. وأنت لا تستطيع أن تعزى الآخرين إلا بعد أن تعرفهم جيدا، ولا يمكنك أن تعرفهم إلا بعد أن تنفق من أجلهم. والمجهود اللازم لإتمام هذا يكلفك كثيرا. من أجل هذا رأى يثرون، بحكمته وثاقب نظره وعطفه ومحبته، أن موسى والشعب يكلون ويعيون فى محاولته إجابة كل طلباتهم.

ويبدو أن موسى أحس فيما بعد بثقل العبء «فقال موسى للرب لماذا اسأت الى عبدك؟ ولماذا لم أجد نعمة فى عينيك حتى أنك وضعت علىَّ ثقل جميع هذا الشعب؟ العلىِ حبلت بجميع هذا الشعب؟ أو لعلى ولدَّته حتى تقول لى احمله فى حضنك، كما يحمل المربى الرضيع، الى الأرض التى حلفت لآبائه؟» (عد ١١: ١١و١٢). لم يكن موسى يحس بثقل الحمل وقتئذ عندما كلّمه يثرون، لأن المهمة كانت جديدة بالنسبة له، لكنها مع ذلك كانت تمتص قوته. وهذا ما لاحظة يثرون.

نحن لا نستطيع أن نرى دواما النفقة التى نتكبدها فى اتمام عملنا والذى يعضدنا ويشجعنا فيه هو اهتمامنا به، ولذتنا بأدائه. إن الحركة والهجوم، وصراخ المحاربين، وفـرص الموقعـة الحربية، واغراءات النُصَرة، والأمل فى كسب المعركة بمجهود واحد إضافى ـ كل هذه تخفى عنا مقدار ما نُنفقة من مجهود، الأمر الذى لا يراه إلا الآخرون. بعض الأشخاص يتعبهم الصبر، لأنهم لا يستطيعون أن يعيشوا ببطء. انهم يجب أن ينفقوا أنفسهم ويسكبوا ذواتهم سكيباً.

وانه لعمل خيرى مبرور، وخدمة نبيلة، أن يُسرِع شخص مثل يثرون، ويتدَّخل لينصح بتخفيف السرعة. على أن أمثال هؤلاء يندر أن ينجحوا معنا. وقلما ينالون شكرا من أجل تعبهم معنا. ونحن لا نتعلم إلا إذا نُكبّنا بصدمة عنيفة، لكنهم ـ على أية حال ـ قد أدوا لنا خدمة جليلة.

والآن لنتحوَّل من إنسان يحمل اثقال شعبه، ويمرض قلبه بهمومهم ـ لنتحول منه إلى الكاهن الحقيقى صديق الإنسان الأوحد، الذى تصغى أذنه إلى تيار لا ينقطع من الشكوى، والأحزان، والهموم، والاحتياجات، والخطايا. كان كل صناديق البريد فى كل العالم تتقبل خطابات موجهة لشخص واحد يجب أن يفتحها بنفسه، ويجيب عليها كلها. وحتى هذا التشبيه لا يكفى لاعطائنا فكرة عما يتحمله ربنا يسوع المسيح الفاتح قلبه ليتقبل كل آلام وهموم واحزان كل البشرية.

دام صبر موسى شهوراً قليلة فقط، أما صبر الرب يسوع ذاته باقٍ إلى أن يتم العمل (تث ١: ٣١، أش ٦٣: ٩، أع ١٣: ١٨). انه «لا يكل ولا يعيا» (أش ٤٠: ٢٨) لأن كل صبر وقوة اللاهوت يمتزج بهما العطف والرقة وبعد النظر. لكن هل نحن ندرك ادراكا كاملا مقدار النفقة التى يتكبدها فى كل الأجيال من اجلنا؟ ألا ترى بأن موكب النصر قد توقف فى الطريق كما حصل فى القديم عندما كان يسوع المجد فى طريقه إلى أورشليم، وكانت هتافات النصر تدوى قائلة: «أوصنا يا ابن داود» فتوقف الموكب على جبل الزيتون لأن الملك كان يبكى؟ إنه «قادر أن يرثى لضعفاتنا» ويحس بآلامنا.

قبول موسى لاقتراح يثرون:

لا يمكن أن يرتضى الله بأن تفنى قوة أى واحد من خدامه بسبب كثرة الاجهاد. «انه يعرف جبلتنا (تكويننا) تماما» (مز ١٠٣: ١٤) بحيث لا يرتضى أن يحمل كياننا الضعيف فوق طاقته. ليس هو مسخرا عنيفا يسوق أمامه عبيده فوق حدود الطاقة البشرية. قد يكون عبء المسئولية الذى يضعه على أكتافهم ثقيلاً، لكنه ليس ثقيلا الى الحد الذى لا يُحتمل. قد تكون المشاغل التى يحددها لكل يوم كثيرة، لكنها ليست أكثر من ساعات العمل. قد تكون النفوس التى اوكلت اليهم عدة آلاف، لكنها ليست أكثر مما يمكن رعايتها والاهتمام بها. لا يمكن أن يدعى الخادم لآية مهمة لا يستطيع أن يقول له الله فيها: «تكفيك نعمتى»، «كما يكون يومك هكذا تكون قوتك»[1] (تث ٣٣: ٢٥).

---

(١) هذه هى الترجمة الانكليزية، أما ترجمة بيروت فهى هكذا: «كأيامك راحتك».

فى بعض الأحيان يُخطِىء خُدَّام الله إذ يحملَّون أنفسهم أحمالاً يستطيع أن يقوم بها غيرهم، وربما أفضل. كانت هذه هى الحال مع موسى. فيبدو أنه ظن بأنه هو وحده الذى يستطيع أن يقضى ويدبر ويرتب شئون اسرائيل. ولقد كان لهذا الاحتكار للادارة نتيجة عكسية. فلقد كان منهكا لقواه، وكان مملا للشعب، وكان يعطل اجراء العدل، وكان قبرا لمواهب كثيرة فى الشعب كان يمكن الانتفاع بها. لذلك كانت نصيحة يثرون فى وقتها المناسب، وهى أن يختار من الشعب أشخاصا ذوى قدرة تتوفر فيهم هذه الشروط الثلاثة، وهى أن **يكونوا خائفين الله، مُحبّين للحق، مُبغضين للكسْب الحرام**. هؤلاء يتصرفون فى القضايا الصغيرة، أما الكبيرة فتُقدم إليه.

ولقد قيل إن موسى كان ملوما إذ رضخ لهذا الاقتراح. فلو أنه وثق فى الله لتركزت فيه تلك القوة التى وزعت على أشخاص كثيرين، ولاستمر هو فى حمل مسئولية وشرف القضاء وحده بين شعبه، ولاستطاع الله أن يُعينه لاتمام كل العمل الذى وُزّع بين هؤلاء الأشخاص الكثيرين.

ولكن يقينا أنه لو يتم هذا ـ وليس لدينا أقل شك فى أنه كان ممكنا أن يتم ـ لكان من الأفضل أن توزع الخدمة بين عدة أشخاص كما حصل فعلا. كان الأفضل جدا أن يقام كل أولئك لاتمام الخدمة من أن يقام شخص واحد لاتمام كل خدمتهم. كان فى ذلك حافز لمواهبهم، وتشريف لهم بتقديمهم على غيرهم فى هذه المراكز الهامة، ودفع لهم للاتصال بالله مباشرة، وإشعار لهم بأنهم قد أصبحوا شُركاء فى الخدمة مع موسى، وتحويلهم من منتقدين إلى شركاء يعطفون. كان هذا أيضا تدريبا لهم واعدادا لمراكز قد يُطلبُوُن اليها فى المستقبل. جميل جدا أن يكون المرء عاملا صالحا لا يخزى (٢تى ٢: ١٥)، والأجمل أن يَدّعىَ عمال آخرون ليشتركوا معه فى العمل.

كانت هذه السياسة هى التى اتبعها الرسل عندما تكاثرت خدمة الكنيسة على أيديهم، واستنفدت الكثير من وقتهم ومن مجهودهم. لم يعودوا بعد يستطيعون أن يجمعوا بين خدمة الموائد وخدمة الكلمة. وإذ لم يترددوا لحظة فى تحديد الناحية التى يتركونها دعوا استفانوس وزملاءه لخدمة الموائد، وأما هم فيواظبون على الصلاة وخدمة الكلمة.

ألا يجد هنا الكثيرون من خُدأم الله ممنْ يقرأون هذه الكلمات درسا لأنفسهم؟ ألسنا نوزع جهودنا فى دائرة متسعة جداً أكثر مما نتحملها؟ ألسنا نحاول أن نحتكر لأنفسنا أشياءً كثيرة يمكن أن يقوم بها غيرنا مثلنا؟ أليس خليقا بمن تميزوا بموهبة قوة الصلاة والبصيرة الروحية أن يتخصصوا فى هذه الناحية التى برزوا فيها تاركين الناحية الإدارية والناحية المالية لغيرهم؟ يجب أن ننشغل بالجزء الآهم الذى تميزت به طبيعتنا، وفى نفس الوقت يجب أن لا نهمل النواحى الصغيرة إن لم يوجد من يقوم بها، على أن نكون مستعدين لتسليمها لأشخاص «مقتدرين»، حتى وإن كانوا سوف يتمرنون فيها ـ فى بدء الأمر. بشيء من التضحية بسبب بعض الأخطاء أو التقصير.

كلما ازددنا اتصالا بالله ازداد تأثيرنا على البشر. وإن كنت موهوبا فى هذه النواحى الروحية الممتازة، [١]تعمق فيها إلى اقصى حد، فهى نادرة، تاركا النواحى البسيطة لغيرك ليتمرن عليها.



(١) وهى إشارة إلى اهمية اللامركزية فى الإدارة، ورفض الدكتاتورية، أو تركيز السلطة فى يد شخص واحد، مما يعوق الخدمة أو العمل، ويُعطل مصالح الشعب، وهو درس هام للخادم، الذى يُركّز كل أوجُه النشاط الروحى والتعليمى والإدارى والمالى فى يده وحده.

الباب السابع عشر

عند سفح جبل سينا

«وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار، وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل».

(خر ١٩: ١٨)

ومن رفيديم ارتحل بنو اسرائيل ببطء مجتازين طريق البرية العام العظيم الذى يعرف اليوم باسم وادى الشيخ، وهو اطول وأوسع أودية تلك البرية. ولاشك أن تلك البرية كانت تختلف اختلافاً كبيراً عن أرض مصر الخصبة المسطحة التى يندر وجود جبال فيها. فعلى جانبيَّ منْ يجتازه كانت جبال شامخة لا أثر فيها للخُضرَة أو المياه أو أية مخلوقات حية. وكانت تبدو كأنها مداخل لهيكل عظيم يظللها عمود السحاب.

منذ مدة طويلة كانوا قد تركوا البحر الأحمر الذى ألفوه. ولم تكن هنالك فرصة لتتبع أثرهم إن فكروا فى العودة. ولم يكن هنالك شئ يغريهم أو يعطل خطاهم وسط تلك الجبال القفرة الشامخة. كانوا فى بعض الأحيان تأخذهم رهبة بسبب جذب الصحراء وعمقها والصمت الرهيب الذى يسودها. لكنهم كانوا يجدون أنفسهم سائرين دواما إلى الأمام، كما كانوا يشعرون بمهابة متزايدة كتلك التى تليق بمن يقتربون من الهيكل غير المصنوع بالأيدى، الهيكل المتناهى فى العظمة، الذى كانت تلك الطرق خير ما تليق له.

وأخيراً وصلوه، بعد أن ساروا ثمانية عشر ميلا بعيدا عن البحر، وصلوا إلى سهل رملى مسطح طوله ميلان و عرضه نصف ميل، تكثر فيه شجيرات صغيرة من نوع أشجار الاثل. أما الجبال المحيطة بهذا السهل فإن جوانبها منحدرة كأنها مدرج طبيعى. لكن فى الجنوب يوجد صف من الصخور الشاهقة المسننة الشديدة الانحدار، وخلفها يوجد جبل موسى الحافل بشقوق كثيرة، كأنه قد صارَع طويلاً مع الزلازل والعواصف والنار. ويدعى صف الصخور هذا (رأس صفصافة)، ولعله هو الجبل الملموس المضطرم بالنار

(عب ١٢: ١٨). انه يرتفع كمذبح عظيم قائم على السهل الذى فى أسفله، وكل ما يَمُثل على قمته يمكن رؤيته بسهولة من أقصى حدود المحلة التى يقيم بها مليونان من الأنفس.

هذا هو منظر إعطاء الشريعة. هنالك لبث جماعة اسرائيل اسابيع طويلة لا يتحركون. وهنالك، اذ كان السحاب يحجب أعالى الجبل، وتنلقت النار من قمة إلى قمة واحدثت الأصوات الغريبة دويا فى قلب الجبال كأنها تمثل بوق الهتاف، هنالك التقى الله بشعبه وأعطاهم شريعته، مدونا اسمه لا على الواح حجرية بل على مجرى التاريخ البشرى.

(١) قصد الله عند جبل سيناء:

لا يسمح لنا المجال إلا بالتأمل باختصار فى هذه الناحية، طالما كان بحثنا يكاد يكون كله محصورا فى التأمل فى صفات ذلك القائد العظيم، موسى. لكن فى هذه الدراسة، الخاصة بموسى، خليق بنا أن نقف لحظة لنتأمل فى مناظر جبل سيناء العجيبة، ومقدار تأثيرها على الشعب وعلى موسى.

فى وقت الخروج كان العالم كله تقريباً غارقا فى العبادة الوثنية، ولعل العبادة الوثنية كانت فى بداية الأمر المحصورة فى عبادة الشمس والقمر والأجرام السمائية، أو ما عداها من صنع القدرة البشرية والحكمة العالمية. وبعد ذلك ظن البشر أن اللاهوت حل فى بعض الناس بل فى الحيوانات. فعملت لها التماثيل لعبادتها. وكانت هذه التماثيل تغطى فى بدء الأمر بقماش، وبعد ذلك جردت من كل لباس وأصبحت فى حالة عُرى تام، ونشأت عنها أقبح الرذائل. «وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء. وأبدلوا مجد الله الذى لا يفنى بشبه صورة الإنسان الذى يفنى والطيور والدواب والزحافات. لذلك أسلمهم الله فى شهوات قلوبهم إلى النجاسة» (رو ١: ٢٢ - ٢٤).

ولمعالجة طوفان هذه العبادة الوثنية تصرف الله كما حدث وقت طوفان الماء الذى أغرق العالم القديم. لقد بدأ بعائلة واحدة، وأعطاها دروساً سامية عن نفسه. وعندما تشبعت بهذه الدروس استطاعت أن تنقلها إلى كل العالم.

ولنتأمل الآن فى الخطوات المتتابعة:

الخطوة الأولى:

اختار الله من بين العالم الوثنى رجلا واحداً، «دعاه وهو واحد» (أش ٥١: ٢)، وقاده ليتبعه إلى أرض غريبة. واذ أغلق عليه هناك، وأبعده عن الشعوب المحيطة، بدأ يعلمه عن نفسه. وكما يفعل البستانى إذ يختار نبتة واحدة ويصل بها إلى الكمال، ويجعلها واسطة لتحسين كل الفصيلة، هكذا لم يدخر الله وسعاً مع ذلك العبرانى الأول العظيم، حتى إذا ما تبارك يصير بركة لكل الجنس البشرى.

الخطوة الثانية:

جعل الله العبرانيين شعباً واحداً متماسكا، لكى يستطيع أن يتقبَّل تلك الحقائق العظمى التى سوف يؤتمن عليها، ولكى يحتفظ بها كجزء من حياته الوطنية. ولقد تم هذا التماسك برباط انتسابهم الى أبوة واحدة كانوا يفخرون دواما بها بعدل، وبرباط مهنة واحدة حفظتهم لأنفسهم كرعاة، بمعزل عن مشاغل حركة النقل فى المدن ومشاغل التجارة، وأخيراً برباط ضغط محنة واحدة ظلت ذكرياتها وذكريات الخلاص العجيب منها ثابتة لا تتغير فى كل الأجيال التالية، كما ظلت الوان آثار بيت عبوديتهم ـ مصر ـ ثابتة لا تتغير ثلاثين قرنا. لقد أتم الله هذا العمل كاملا، فبينما نرى الأمم الأخرى قامت وحكمت وسقطت، وكان خرابها تاما كاملا، ظل نسل ابراهيم كصخرة دائمة لا يبليها عنف الأمواج ولا فعل الأجيال.

الخطوة الثالثة:

اعلن الله وجوده. فى وسط عبوديتهم، أتت الأنباء بأن إله آبائهم إله حى، وأنه التقى بواحد منهم فى البرية، ودعاه باسمه، ووعده بأن يتدخل لخيرهم. ولعل هذه الأنباء لم تسترعِ الا انتباها ضيئلا. لقد كان يكفيهم أن يعرفوا انهم ـ كالأمم الأخرى ـ لهم إلههم الحارس، وهذا كل ما أرادوه. وهم لم يعرفوا عنه شيئاً.

الخطوة الرابعة:

اظهر الله بالضربات أنه أقوى من آلهة مصر. ألا نتخَّيل بنى اسرائيل إذ قالوا. «إن الهنا عظيم، لقد حول الماء إلى دم، لكنه لعله لا يبلغ قوة ايزيس أو أوزوريس أو سيرابيس أو العجل أبيس؟». لكن الآيات التى تمت فى آلهة مصر غيرت اعتقادهم نهائيا.

الخطوة الخامسة:

أثار الله فيهم محبتهم واعترافهم بالجميل. إنك تستطيع أن تفعل كل ما تريد بمن تحب. لكن لكى تأخذ يجب أن تُعطِى. ولكى تثير المحبة يجب أن تُعلنها. ومن أجل هذا ذكرَّهم الله بما فعله معهم. «أنتم رأيتم ما صنعت بالمصريين، وأنا حملتكم على أجنحة النسور وجئت بكم إلىَّ» (ص ١٩: ٤).

الخطوة السادسة:

وحرص الله على أن يُعلّمهم بعض تلك الصفات العظيمة، التى تؤدى معرفتها إلى تؤدى معرفتها إلى تحسُّن العلاقات بينه وبين الشعب. ولكى يُتِمِ قصده هذا استخدم بعض علامات ظاهرية بارزة أتت بنتائج أعظم من أفصح حديث نحو تعليم هذا الشعب الجاهل الشهوانى الذى اختاره شعبا خاصا لنفسه.

الخطوة السابعة:

وخصص الله موسى ليكون أداة اتصاله بالبشر. «فقال الرب لموسى ها أنا آتٍ إليك فى ظلام السحاب، لكى يسمع الشعب حينما أتكلم معك، فيؤمنوا بك أيضاً إلى الأبد» (ع٩) كان مستحيلا التنبؤ عن الطريق الذى كان سيسلكه الله لإتمام قصده. لكننا إذ نتطلع إلى الخلف لنُلقِى نظرة على الرواية نستطيع أن نتبَّين الخطوات التى بها تمم قصده، كما سيحصل عندما نقف فوق قمة الآكام الدهرية التى منها سوف نرى الطريق التى كان يقودنا فيها كل أيام غربتنا.

(٢) دروس جبل سينا:

١ـ **عظمة الله:** كان المنظر الطبيعى عظيما جداً. لكنه ازداد عظمة عندما انكشف عن حوادث اليوم الثالث. ألم تكن هنالك عظمة فى الرعود والبروق، فى السحابة القاتمة الجاثمة، لأن السحب تكاد تكون غير معروفة فى البرية، فى البرق الخاطف الذى يخترق أستار الظلام، فى صوت بوق يدوى وسط الجبال، وكان هذا الصوت ينخفض أحيانا ويرتفع أحيانا أخرى؟ وفى نفس الوقت كانت السحب تمطر وسط هذه المناظر تكلم الله. أكان ممكنا أن تتحد أية مجموعة أخرى من المناظر الطبيعية لتعطى فكرة أسمى عن عظمة الطبيعة الإلهية؟

٢ـ روحانية الله:

ماذا كان يشبه الههم؟ أكان ممكنا أن يتخذ شكل أى شىء فى السماء من فوق، أو فى الأرض من تحت، أو فى الماء من تحت الأرض؟ أكان ممكنا أن يروا من أخرجهم من مصر فى أى شىء من هذه أو فى مجموعها كلها؟ ولكنهم فى هذه المناسبة الخالدة عندما «أخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله» (ع١٧) لم ينظروا شبها لأى شىء. كان الله هنالك، لأنه تكلم. لكن لم يكن هنالك شكل ظاهرى تراه العين. كان هذا أمراً صعب الفهم. إن الصعوبة التى يعانيها القلب البشرى، فى عبادة من لا تستطيع العين أن تراه، أو يتصوره العقل، تشهد لها عودة البشر إلى العبادة الوثنية من وقت لآخر منذ أيام العجل الذهبى إلى صلب المسيح. لم يكن أمراً يسيراً أن تتعلّم البشرية هذا الدرس، بأن الله روح، كما تعلمته من جبل سينا بوضوح.

٣ـ قداسة الله:

وتعلم بنو اسرائيل أيضاً هذا الدرس الأوّلِى بكيفية واضحة بعلامات منظورة محسوسة. لقد أقيمت حدود لإبعاد البهائم من أن ترعى بقرب سفح الجبل «وكل من يمس الجبل يُقتل قتلاً» (ع ١٦). كان يجب غسل كل الملابس استعداداً لذلك اليوم الثالث. يجب مراعاة طهارة القلب والحياة طهارة مطلقة. لم يدع سوى موسى وحده إلى قمة الجبل، حيث اختلط الدخان والنار ووميض البرق معا، وحيث كان صوت الرعد يغطى صوت البوق. وعندما صعد إلى قمة الجبل أُرسِل ثانيةً إلى سفحهِ لكى يوصى الشعب وصية صريحة ـ

حتى الكهنة ـ بأن لا يقتحموا الجبل أو يمسوا طرفه لئلا يهلكهم الله. كل هذه الاجراءات أعطت فكرة واضحة محسوسة عن قداسة الله.

٤ـ مُلْك الله:

فى تسبحة الهتاف التى رنمت عند شاطىء البحر الأحمر اعتـرف الشعب بأن «الرب يملك إلى الدهر والأبد» (ص ١٥: ١٨). لكنهم كانوا لا يزالون فى حاجة إلى أن يتعلموا بأن مُلكِه مُطَلق. كانت دولة اليهود مملكة ملكها الله. ولقد تبينت حقيقة ملكه فى الطريقة التى بها أطاع موسى أوامره. كان منظراً لا يُنسى قط أن يروا كيف كان موسى قائدهم العظيم يُطيع طاعة عمياء كل الاوامر التى تصدر من خيمة الله. ولعل أسمى ما يُقال عنه أنه كان منفذ إرادة الله. لقد نطق الله نفسه بالوصايا العشر «من وسط النار والسحاب والضباب وصوت عظيم» (تث ٥: ٢٢). كل فريضة فى الناموس، كل عادة أو وصية تتعلق بالحياة المنزلية والحياة المدنية، كل التفاصيل الخاصة بإقامة القدس وتكريس الكهنة. كانت هذه كلها تخضع لإرادة الله الصريحة المعلنة من فمه مباشرة. كان الله ـ لا موسى ـ هو الذى صدر عنه كل بند فى الناموس. **كان هو المشرع الحقيقى، كان هو معطى الشريعة الحقيقى، كان هو الملك الحقيقى. وكان موسى هو الناطق بلسانه، كان هو الوسيط فى توصيل أوامر الله لشعبه. كيف كانت واضحة هذه الشهادة لعظمة العلى.**

كانت هذه بعض الدروس التى تعلمها بنو اسرائيل عند جبل سيناء.

(٣) موسى على جبل سينا:

كان يبدو هناك أنه فى بيته. وبالرغم من أنه مراعاة لتكوينه الجسمى لم يكن ممكنا الا يخاف ويرتعد من مظاهر مجد الله التى لم يتعودها، إلا أن خوفه لم يكن خوف العبيد الذى يجعله يتباعد كما فعل الشعب. لاحظ المراحل المتتابعة لتلك الدالة بينة وبين الله: «وأما موسى فصعد إلى الله» (ع٣). وبعد أن نقل إلى الشعب كلام الله عاد لينقل إلى الرب كلام الشعب. لأن الكتاب يذكر بانه «انحدر من الجبل إلى الشعب» (ع ١٤). وعندما نزل الرب فى رعد ودخان صعد موسى إلى قمة الجبل للمرة الثالثة (ع٢٠). وعندما نطق الله بوصايا الناموس العشر، اقترب موسى إلى الضباب حيث كان الله (ص ٢٠: ٢١). وبعد

ذلك صدر إليه الأمر بأن يصعد إلى الجبل للمرة الخامسة، ورافقه شيوخ الشعب إلى نقطة معينة، ورافقه يشوع إلى نقطة ابعد.

أما هو فدخل وحده السحاب الذى كان مثل نار آكلة على قمة الجبل. وبقى هناك أربعين يوما واربعين ليلة ليتسلم تعليمات الله الخاصة بإقامة خيمة الاجتماع (ص ٢٤: ١٨). وعاد إلى الله للمرة السادسة يعرض عليه أن يمسح اسمه من كتابه إن كان بذلك يصفح عن ذنب الشعب ويغفر خطيتهم (ص ٣٢: ٣٢) لعبادتهم العجل!!.

ثم دُعَى للمرة السابعة للصعود إلى الجبل فى الصباح حاملا معه لوحَّى حجر. واذ وقف «فى نقرة من الصخرة» اجتاز الله أمامه، وأعلن اسم الله (ص ٣٣: ١٨ - ٢٣). ولبث هناك فترة أخرى أربعين يوما وأربعين ليلة، نزل من بعدها الى الشعب بوجهٍ لامع، دلالة واضحة على أنه **كان فى شركة عميقة مع الله.** وكان «الرب يكلم موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه» (ص ٣٣: ١١).

كان لهذه الشركة تأثير نبيل على صفاته. فلم يكن وجهه فقط هو الذى يلمع، بل كانت حياته أيضا تلمع وتُضىء. كانت فى صفاته وتصرفاته منذ ذلك الوقت نعمة غير عادية ميزته «كرجل الله» **فإن وداعته، وهدوءه ورقته وقت الغضب، وغيرته من أجل اسم الله ومجده، اضطرمت نيرانها فى قلبه بكيفية أشد من قبل.**

ان حياة الشركة مع الله لا تُبنّى فى يوم وليلة: انها تبدأ بتسليم كل شىء إليه، ساعة بعد ساعة، كما فعل موسى فى مصر. لكنها تتدرج إلى إن تصل الى فترات أطول فى شركة عميقة. وهى تجد كمالها وبركتها فى الأيام والليالى التى تقضى فى التضرعات والانتظار والمناجاة. يا لهذا المَثَلَ الرائع الذى نراه على الجبل، يا لهذه الصرخات التى ارتفعت هناك. يا لهذه الرؤى التى أُعلِنتَ هناك. وكم من الوصايا أُعطِيتَ هناك. أسفا علينا لأننا بعيدون عن هذا المثَلَ الرائع، أو، على أحسن وضع، نحن نقف مع الشيوخ فى نقطة معينة من سفح الجبل. ليت الله يمنحنا بأن نزداد اقترابا منه، ونرى رُؤىً أعمق، ونتبادل الحديث معه فما لفم، الأمر الذى لا يزال فى مقدور أحبَّاء الله.



الباب الثامن عشر

رؤية الله وتأثيرها

«وكان لما نزل موسى من جبل سيناء أن موسى لم يعلم أن جلد وجهه صار يلمع».

(خر ٣٤: ٢٩)

ان لنا كل الحق فى أن نستمد دروسا روحية من هذه الحادثة فى حياة ذلك المشرع العظيم، التى يشير إليها الرسول بولس عندما يقول أننا جميعا بوجه مكشوف نستطيع أن نرى مجد الرب، ونتغير إلى تلك الصورة عينها (٢كو ٣: ١٣- ١٨). إن تلك الرؤيا المباركة، التى سمح بها فى القديم لقائد اسرائيل وحده، هى فى متناول كل واحد من المؤمنين. فالانجيل لا يقيم حواجز، لإبعاد الجماهير عن جبل الرؤية، لأن أحقر واحد من أبنائه، وأضعف واحد، يستطيع الصعود حيث يرى المجد اللامع. ونحن لا نعيش فى الصباح حيث تشرق أشعة الشمس على الأرواح السامية فقط المرتفعة عن الباقين، لكننا نعيش فى الظُهر حيث يستطيع أن يعاين الشمس ليس كل واحد فقط، بل أصغر نبتة أو زهرة. «نحن جميعا... نتغَّير» (٢كو ٣: ١٨، ١كو ١٥: ٥١).

(١) أن الرغبة فى رؤية الله تحمل معها الضمان لاتمامها:

كانت الرغبة تتزايد فى قلب موسى لرؤية وجه الله سنوات طويلة. «علمنى طريقك حتى أعرفك»، «أرنى مجدك» (ص ٣٣: ١٣و ١٨) . كانت هذه وأمثالها هى صلواته بصفة مستمرة. وفى بعض الأحيان كان الحنين فى قلبه يتزايد بدرجة لا تحتمل، كما حصل للقديسين الذين أتوا بعده. ليس هنالك مريض فى أيام الشتاء الشديدة البرودة لا يحن إلى الصيف، وليس هنالك قلب مخلص لا يحن إلى رفيق، وليست هنالك عروس شابة ترملت حديثا لا تحن إلى الانتقال من هذا العالم لتكون فى رفقة عريسها مرة أخرى، كما يحن القديسون إلى الله «منْ يعطينى أن أجده»؟ (أى ٢٣: ٣)، «تشتاق بل تتوق نفسى إلى ديار الرب. قلبى ولحمى يهتفان بالآله الحى» (مز ٨٤: ٢)، «عطشت اليك نفسى» (مز ٦٢: ١).

على أن هذه الأشواق لابُد أن تتم، لأن الله أمين. ليس هنالك برهان على الخلود أقوى من هذا. ويجب أن يكون هنالك خلود، لأن كل البشر يتوقعونه. ليس هنالك برهان على أنه لابُد أن يكون هنالك وقت للمجازاة أقوى من القول بأن ضمائر البشر تتطلبها. ليس هنالك برهان على أن الله موجود، أقوى من القول بأنه لابُد أن يكون موجوداً، لأن قلوب البشر تتوق إلى المحبة اللانهائية، وعقل الإنسان يتوق إلى الحق اللانهائى، وروح الانسان تتوق إلى الشركة اللانهائية مع الروح.

وبنفس هذه الطريقة يجب أن نستنتج بأن هذه الأشواق الحارة نحو الله، نحو الشركة معه، والتحدث معه وجها لوجه، هى الظاهرة الأكيدة والعلامات الراسخة بأنه فى مقدورنا أن نتصل بالله! الأمر الذى لم نصل إليه إلى الآن.

ونحن إن كنا ننتهز كل فُرصة، وننَّمِى كل موهبة، ونرفع قلوبنا بصفة مستمرة إلى جبال الشركة، نجد يقينا أن القلب الذى يحن إلى الرؤية لا يمكن أن يُترَك دون أن يجد الرؤية التى يحِن إليها، وأن الحنين هو يقظة النفس، لتُدرِك أن الرؤية واقفة على الباب ضمن أسمَّى الامتيازات التى فى متناول الانسان. هكذا يحن كل طفل الى حنان أمه، وهكذا تحن الفتاة الى شريك حياتها العتيد. «فقال الرب لموسى **هذا الأمر أيضاً الذى تكلمت عنه أفعله. لأنك وجدّتَ نعمة فى عينيَّ**. كن مستعداً للصباح واصعد فى الصباح الى جبل سيناء» (ص ٣٣: ١٧، ٣٤: ١).

(٢) يتوقف إتمام رغباتنا على إتمام شروط مُعيَّنة:

١ـ يجب أن نتعلّم الطاعة. كانت هذه هى أبرز مميزات موسى. فقد «كان أمينا فى كل بيته كخادم» (عب ٣: ٥) وأفخر لقب يُعَرف به ـ حتى فى السماء ـ هو «خادم الله» أو «عبد الله». «وهم يرتلون ترنيمة موسى عبد الله» (رؤ ١٥: ٣). إن العبارة التى طالما تكررت فى أسفار موسى الخمسة هى «وفعل موسى كما أمَرَه الرب». لقد كان رجلاً حسب قلب الله يصنع كل مشيئته. وله أعلن الله نفسه، لا الى ذلك الشعب المتُمرِّد.

هذا يتفق مع كلمات الرب الذى قال «الذى عنده وصاياى ويحفظها فهو الذى يحبنى وأنا أحبه وأُظْهِر (أعلن) له ذاتى» (يو ١٤: ٢١). واضح جدا أن الطاعة هى التى تُمَّهِد

للرؤية. يجب أن نكون عبيداً قبل أن نكون أحبَّاء (أصدقاء). وطريق الطاعة الحرفية ـ رغم أنه خشن وشديد الانحدار ـ هو الطريق الوحيد لقمة الجبل التى فيها نرى الرؤى العجيبة. أليس هذا هو ما يحصل دوما؟ يجب على المكتشف أن يُطيع الطبيعة، قبل أن يصل الى السمو الذى منه يكتشف سر قوانينها العظيمة وعملها الخفى.

لا تُعانِد الرؤيا السماوية، لا تتحول إلى الطريق الذى تُفضُّله أنت، لتتجنب الطريق الضيق، طريق الطاعة الكاملة لصوت الله الذى يكلمك فى كلمته وفى قلبك، وفى الظروف المحيطة بك. كن شُجاعاً، وافعل ما هو مستقيم، حتى ولو وقفت وحيداً وسط جماعة شريرة. وبهذا نتمم شرطا أوليا لرؤية الله.

٢ـ يجب أن نكون مستعدين لاجتياز السحاب الكثيف:

«وفى اليوم السابع دُعِىَ موسى من وسط السحاب... ودخل موسى فى وسط السحاب» (خر ٢٤: ١٦ - ١٨). كان السحاب كثيفا قاتما جدا لمن يتطلع إليه من الأرض، ولكنه كان منيرا جداً من الداخل. لقد حجب نور الشمس ومنظر الأرض، ولكنه أغلق عليه الله، ولم تكن الرؤية ممكنة لو لم يكن مستعداً لاجتياز السحابة، ويقف خلف ظل يد الله.

يجب على السائح الذى يريد أن يجتاز من منحدرات سويسرا الشديدة البرودة الى جمال سهول إيطاليا الدافئة أن يكون مستعداً لحفر نفق يجتاز منه جبال الالب. والطريق الوحيد الى صباح القيامة هو طريق جثسيمانى، طريق الصليب، طريق القبر. والجدار الذى يُرَاد رسم صور رائعة عليه يجب أن يُلوَّن أولاً بلُون خفيف. ويبدو أنه من المحتم أن نجتاز ظروف الحرمان والتجربة والضيق، أن اردنا أن نعاين نور الله العجيب وندرك لمعانه:

ليـــس النـــور أولا ثـم الظلام

بـــل الظـــلام أولا ثـــم النـــور

السحاب القاتم أولا ثم قوس قزح

القبــر المظلم أولا ثم نور القيامة

٣ـ يجب أن نكون مستعدين لنبقى وحيدين:

عندما نقرأ الكلمات الرائعة الواردة فى (خر ٣٤: ٢، ٣) «كن مُستعداً للصباح، واصعد فى الصباح الى جبل سيناء، وقِفْ عندى هناك على راس الجبل. ولا يصعد أحد معك. وأيضا لا يُرَى أحد فى كل الجيل، الغنم أيضا والبقر لا ترَّع الى جهة ذلك الجبل». تبدو أنها تُردّد صدى تلك الكلمات،لكن بتعبير آخر «متى صليت فأدخل إلى مخدعك وأغِلق بابك وصلِ إلى ابيك الذى فى الخفاء» (مت ٦: ٦). يجب أن يُتَرك يعقوب وحده لكى يهمس ملاك الله فى أذنيه اسم شيلون العجيب. ويجب أن يُتَرك دانيال وحده إن اراد أن يرى الرؤيا السماوية. ويجب أن يُنَّفى يوحنا إلى بطمس، لكى يستلم السِفْر السماوى ويحتفظ به. والسحابة المعزولة هى وحدها التى تخفِى فى باطنها كمية هائلة من الكهرباء، أما تلك الجاثمة على سفح الجبل فإنها سُرّعان ما تفقد شُحنتها الكهربائية.

ومهما كانت فرص التهذيب والخدمة المحيطة بنا ثمينة جداً، فإنها تُصبح خطرة جدا إن كانت تسلّبنا الوقت الذى يجب أن نقضيّه مع الله، أو تنفرّنا من حياة العُزلة. فلنحرص على **أن نعطِى الله الفترة الأولى من النهار، حيث يكون القلب نشيطاً. لا تسمح أن ترى وجه إنسان قبل أن ترى وجه الله.** واجتهد بأن تُكِثر من أوقات العزلة (الوحدة = الخلوة) على الجبل.

(٣) إذا تمت الشروط تأكدت الرؤية:

لعل موسى توقَّع ـ إذ دخل السحابة ـ بأن يجتاز القدير أمامه راكبا على كَرُوب، طائراً على أجنحة الريح، متمنطقا بقوس قزح وزوبعة، والرعد يتبعه أثناء مسيره. لكن ها هو (موسى) واقف فى وادٍ على صخرة، تُظلّله يد، واذ بالركب الإلهى يسير وصوت هادىء حلو يردد بأن الله محبة:

لاحظ تدرج الرؤية لهذه النفس المحبوبة. فى حوريب وقف موسى فى الدار الخارجية ليتعلم بأن الله غير قابل للتغيُّر. وعند إعطاء الشريعة وقف فى مجد القدس الأسنى ليتعلّم بأن الله بار. والآن يسمح له بقدس الأقداس، ليتعلّم بأن «الرب إله رحيم ورؤوف بطىء الغضب وكثير الإحسان والوفاء» (ص ٣٤: ٦).

عندما نصلى من أجل الرؤيا الروحية، فإن اجابتنا لا تأتى دواماً كما ننتظر. لكنها لابُد آتية بهذا الشكل أو ذاك. «أيضا كل منتظريك لا يخزوا» (مز ٢٥: ٣). والرغبات التى وضعها هو لابُد أن يُشّبعها. سوف يحرص الملك على أن يدخل ليحيى الضيوف الذين أتموا شروطه. وكما حصل للقديسين فى القديم لابُد أن يحصل لك أنت أيضا إذ تأتى الرؤية البهيجة - حث لا تتوقعها - وربما إلى أن تصرخ كما صرخ أحدهم «كفى يارب، وإلا تحطمت السفينة الضعيفة تحت ثِقَل المجد».

(٤) ومثل هذه الرؤى تترك آثاراً أكيدة:

لقد لمع وجه موسى. ألم يلمع قلبه وحياته أيضا؟ أكان ممكنا أن يحصل غير هذا؟ إن الملابس أو الفَراش التى عطرّتها سيدة البيت لا يمكن الا أن تفيح رائحتها العطرية. والحديد العادى إن وضع بجوار مغناطيس لابُد أن يكتسب نفس الخاصية. والذين يقيمون فى دار الملك يكتسبون هيئة جميلة. ورفيق الحُكماء يكتسب حكمة. وأعضاء الأسرة المتحدة اتحادا متيناً لا يشعرون بالوحدة، ولا يدب اليهم دبيب الانقسام. وقيل فى الأمثال أن الزوجين اذا تقدما فى السن بدت على وجهيهما مشابهة قوية، فيعكس الواحد شكل الآخر على وجهه. ومن المستحيل أن نكثر معاشرتنا لله دون أن نتغَّير إلى تلك الصورة عينها.

تُحدثنا سِيرَ القديسين بأن الذين أطالوا التأمل فى صليب الرب، انطبعت على أجسادهم آثار جروحه. ويقينا أن النفس أن أطالت التطُّلع إلى الله، انطبع على حياتها الجمال الإلهى، واستنارت بعذوبة ليست على الأرض.

(٥) ومثل هذه الآثار لا يُدَّركها حاملوها:

«موسى لم يعلم أن جلد وجهه صار يلمع» (ص ٣٤: ٢٩) لقد كان مجيداً فى كل الأعين إلا عينيه.

هنالك قانون يعرفه رجال الطب يسمى قانون هولاندا. يؤكد هذا القانون أنه إذا ما وُجِهَ الالتفات لأى عضو فى الجسم اضطربت حركة ذلك العضو. فمثلا إذا بدأنا نفكر فى القلب، ونُعِّد ضرباته، ونصغِى إلى نبضاته، اضطربت حركته المنتظمة. قليلون هم الذين

يتركون الطبيب لكى يجس نبضهم بدقة، ومن أجل هذا، فإنه يدخل فى حسابه تأثير تفكير المريض فى حالته.

وهكذا الحال فى وظائف الهضم والتنفس والتفكير. وأن وظائف الجسم الحيوية العظيمة هذه تسير بكيفية صحية مرضية أكثر مما إذا التفتنا إليها. وعلى هذا القياس يمكن القول أن هنالك تشابهاً بين حياة الإنسان الجسمَّية وحياته الروحية. أن هنالك فى الحياة الروحية ما يماثل قانون هولاندا. فإذا ما تجاهلناه تقدَّمنا إلى الأمام، بكيفية أفضل وأسرع.

إن الذى وصل إلى السمو الروحى الحقيقى، لا يُدرِك جمال حياته، كما كان الحال مع موسى. وإذا ما التفت إلى ذاته فَقَد جماله. فاحذر ممِنْ يتحدث عن جمال صفاته الروحية. هنالك من يفتخر بوضاعته، ويُعظِمّ فى نفسِه وهو لا شىء. ومن يفتخر بلمعان وجهه هو كاذب ومخادع ومُنافِق. وأن من يحمل بضاعة حقيقة لا يتحدث عنها قط، ولا يفكر فيها قط، ويزعجه جداً أن ينسب الناس أى شىء إلى شخصه. وجمال الطفل الصغير أنه لا يفكر فى نفسه قط. وهذا هو جمال التمثَّل الحقيقى بالله. إنه يشبه جمال الزهرة التى تفتحت حديثا، أو جمال قطرات الندى على العُشب الأخضر، أو جمال هدوء وجه الماء فى بحيرة على جبل.

† † †

الباب التاسع عشر

العبارة المبتورة

«والآن إن غفرتَ خطيتهم.
وإلا فامحُنى من كتابك الذى
كتبت» (خر ٣٢: ٣٢)

هذه الآية من أرَّق آيات الكتاب المقدس. وهى تحمل فى مظهرها دلائل يقينيتها. لا يمكن أن تكون قد صدرت من عقل أو قلم أى كاتب، فى عصر متأخر، لأنها كانت غير متوقعة، وكانت غريبة جداً. لذلك فمن المحتمل صدورها من شخصٍ كموسى. هذه تُذكّرنا ببدن عمود جميل كُسِر من وسطه. أو بنغمة موسيقية جميلة صمتت فجأة بسبب قطع الوتر. إنها جزء من عبارة كنا نَّود أن ندفع ثمناً غاليا لنسمع ختامها. ولكن من ذا الذى يجرؤ على أن يُكمِّل تلك العبارة التى خُنِقَت فى تلك الساعة الرهيبة، بسبب نوبة شديدة من الحزن، أو شنهقة بسبب التأثر الشديد.

(١) المشكلة التى كانت أمامه ليعالجها:

١ـ **عبادتهم الوثنية:** بعد النطق بكلمات جبل سينا العشر العظيمة طلب الشعب من موسى أن يكون هو الناطق بلسانهم وأن يكون وسيطا بينهم وبين الله، ذلك لأنهم تملكهم الذُعر والخوف بسبب الرعود والبروق وصوت البوق والدخان. «وقالوا لموسى تكلم أنت معنا فنسمع. ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت» (خر ٢٠: ١٩). فسمع ذلك القائد العظيم لتوسلهم، وانسحب من وسطهم، وصعد إلى صخرة الله، فتغيب عنهم أربعين يوما.

وبعد رجوع السبعين شخصا الذين رافقوا موسى إلى نقطة معينة من سفح الجبل، لكنهم رجعوا بدونه، كان الشعب قد هدأ خاطرهم واستراحوا بلا ريب. فخير لهم أن يُحرَمُوا وقتياً من قائدهم من أن يُعرَضُوا لخطر تلك الرعود القاصفة. لكنهم بعد فترة وجيزة قلقوا واضطربوا، وصار كل واحدٍ يُكلم صاحبه قائلا: أين هو؟ إنه لم يأخذ معه طعاما يكفيه كل هذه المدة الطويلة. هل ألمت به كارثة فى تلك الصخور الشديدة الانحدار؟ أو لعل تلك النيران المضطرمة قد إلتهّمته؟ أو لعله انتقل إلى العالم غير المنظور؟ «لأن هذا

موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه» (خر ٣٢: ١). وبعدئذ التفتوا إلى هرون، الفصيح فى الكلام، وهم واثقون أنه لا هرون ولا عشرون مثله قادرون أن يسدوا الثغرة التى حدثت بتغيُّب موسى. وصرخوا إليه قائلين: «قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا».

واننا لنلاحظ هنا ملاحظة عابرة، عن طبيعة العبادة الوثنية. لأننا فى هذا الأصحاح الرائع نجد كل تاريخ العبادة الوثنية منذ أول صرخة للنفس تكشف عن الحنين إلى صنم، إلى شرب آخر قطرة من شرابه الممزوج بمرارة، إذ يضطر عابد الوثن إلى شربه حتى الثُمَالة عندما يسمعه يتحدث الناس أحيانا عن عابدى الوثن، ويقولون عنهم أنهم يجثون أمام تماثيل مصنوعة من الذهب أو الحجر أو الخشب، متوهمين أنها آلهة ولها صفات إلهية، وهذه هى حالة أحّط الناس. لكن الحال لم يكن هكذا فى بادىء الأمر. فإننا، لدى درس الموضوع من كل نواحيه، نجد أن عابد الوثن ـ على الأقل فى أول وهلة ـ لا ينظر إلى تمثاله كإله، بل كممثل له، أو مظهر من مظاهره. هو مجهود تبذله النفس البشرية التى لا تجسر على المثول فى حضرة الله غير المنظور، الذى هو روح، فتتصل به عن طريق التماثيل الملموسة، وبذلك تكون لديها علامة منظورة دائمة لوجود الله ولرحمته ومحبته.

كانت هذه هى حالة اسرائيل. لم يكن قد مر على وقوفهم عند شاطىء البحر الأحمر أكثر من ثلاثة شهور، حينما رأوا مياه البحر تطبق على جيش فرعون. وفى كل يوم منذ ذلك الوقت كانت محبة الله تتبعهم. من أجلهم كانت السماء تُعطِى خبزاً، والصخرة تتبعهم وهى تفيض ماءً. من أجلهم كانت سحابته تسير فى السماء بعظمة، تظللهم فى النهار، وتتقد بالنار لتضىء لهم فى الليل. وحتى فى الوقت، موضوع تأملنا الآن، كانت قمة الجبل كلها يغطيها السحاب الذى كان علامة على حضور الله فى وسطهم. لكنهم بالرغم من كل هذا، جرّفتهم تلك الشهوة الجاثمة فى القلب البشرى، التى تحّن الى تمثال مادى منظور ليعبدوه.

إذن فلم تكن عبادتهم الوثنية كسراً للوصية الأولى، بل الثانية. فإنهم لم يفكروا فى ترك الله أو إنكاره، فهذا أمر لم يظهر إلا فى أيام آخآب، لكنهم أرادوا أن يعبدوا الله فى شكل عجل، الأمر الذى كان كسراً صريحا للوصية المشددة: «لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا

صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن». كانت هذه أيضا هى خطية يربعام.

٢ـ انحطاطهم أخلاقياً:

لا شك فى أن عبادة العجل اقترنت بالقبائح التى كانت جزءا من العبادة الوثنية المصرية. وهذا ما يُفهَم من هذه العبارة «جلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب» (ص ٣٢: ٦). وفى (ع ٢٥) نجد هذه العبارة «رأى موسى الشعب أنه مُعرًّى[١] لأن هرون كان قد عراه[٢] بين مقاوميه». ومن هذا نستنتج أن قيود الحشمة والعفة التى قيدتهم وكبحت جماحهم منذ الخروج تراخت فجأة، وكانت النتيجة أنهم قطعوا كل القيود وانحّطت أخلاقهم.

٣ـ مطاليب الله:

كان هنالك كل مُبرر للإعتقاد بأن الله أراد أن يوقع عليهم القصاص كاملاً، لا لأنه يحب الانتقام. بل كان يبدو أن الاحتفاظ بسلطانه يتطلب هذا. إن كمال صفاته، ويقينّية قَسمِه الذى لا يُنقض، وسلطان الوصايا العشر، التى كانت قد أعطيت حديثاً ـ هذه كلها تعاونت معا لكى تُحتِم بأن يفعل الله كما قال.

لكن، من الناحية الأخرى، كان يخشى أنه، اذا اتقد غضب الله وأفناهم، يقول المصريون: «أخَرجَهم بخبثٍ ليقتلهم فى الجبال، ويفنيهم عن وجه الأرض» (ص ٣٢: ١٢). وبهذا تسوء سُمعة الرب بين الأمم التى حولهم.

فكيف يحتفظ الرب بسُمعته بين شعبه، دون أن يُعرّضها لإساءة المصريين إليها؟ ان عفا عن الشعب بدأوا يفكرون أنه لا تهديداته ولا وعوده تستحق منهم أن يصغوا إليها. وإن أفناهم تعرَّض مجده للهُزء والسخرية. وبدا كأنه لا يُبالِى بالقَسَم الذى أقسَم به

---

(١) أو «سائب» حسب هامش الكتاب

(٢) أو «سيبه» حسب هامش الكتاب. وقد وردت هذه الآية فى ترجمة اليسوعيين هكذا: «رأى موسى الشعب انهم عُراة لأن هرون كان قد عرأهم أمام أعدائهم **لأجل ما هو عار نجاسة**».

بنفسه لعبيده ابراهيم واسحق واسرائيل، أن يُكثِر نسلَهم، ويُعطيهم أرض كنعان ميراثاً إلى الأبد. مَثلُت كل هذه الاعتبارات أمام موسى بقوة، حتى انه رفض العرض الذى عرضه عليه الله وهو أن يُبقّيه هو وحده، ويخلق منه أمة عظيمة.

ويبدو، كان هذا العرض يماثل الاقتراح الذى قدمه الله لإبراهيم بأن يقدم ابنه الوحيد اسحق مُحَّرقة. فى كلٍ من الحالتين امتحن الله عبَده. لكن هنالك فرقا شاسعا بين تجربة إبليس وتجربة أو إمتحان الله. فتجربة ابليس تهدف إلى إبراز كل الشر، وجعله دائما كخروج الحِمَم من قلب البركان. أما تجربة الله فتهدف إلى ابراز كل الخير، وجعله من نصيبنا، لأن الصفات الأدبية لن تصبح ملكاً لنا إلا إذا وضعناها موضع الاختبار العملى.

(٢) المؤثرات التى أثرَّت فى نفسه:

لقد تصرف كشفيع وهو على الجبل: عندما أخبره الله عن كل ما كان يجرى فى السهل أسفل الجبل، وأراه سيف العدل مُسلطاً فوق الأمة الأثيمة، ومُعلَّقاً على خيطٍ رفيع، تشفع عن الشعب الذى أحبه «فتضرع موسى أمام الرب إلهه وقال... ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر لشعبك». «فندِم الرب على الذى قال إنه يفعله بشعبه»!!.

وعند نزوله من الجبل، وإذ اقترب ليرى العِجْل والرقص، وهو واقف على احدى الصخور، احتدمت فيه بشدة نيران الغيرة القديمة، التى سبق أن ميزت حياته الأولى، والتى كانت قد نامت سنوات. لم يحتدم غضبه على الشعب، بل على خطيتهم. «فحمى غضب موسى، وطرح اللوحين من يديه، وكسرهما فى أسفل الجبل». وتلك الأجزاء المتناثرة من اللوحين، التى تناثرت هنا وهنالك، رمز على عجز الإنسان ـ حتى أقدس البشر ـ عن حفظ ناموس الله المقدس كاملاً.

وعندما وصل المحلة يبدو أنه تقدَّم إلى الجمعِ المنذهل، وأوقف مجونهم وعبثهم. وأطاح بعجلهم، وأمر بإبادته، وطحنه حتى صار ناعما، وذّراه على وجه الماء الذى يشربون منه. وإذ لم يفلح هذا الاجراء فى استئصال شأفة الشر المتأصل، اضطر لاتخاذ اجراءات أشد، واستأصلة بسيف اللاويين الذى قتل ثلاثة آلاف منهم.

وعندما أقبل اليوم التالى، إذ امتلأت المحلة بالحزن الشديد، والبكاء فوق هذه المقابر الجديدة، وحل رد الفعل بشدة على الشعب وعلى موسى، يبدو أن التيار تحول. لقد أعقب غضبه حزن مرير وعطف وإشفاق. وتحوّلت العاصفة الى فيضان من الدموع. **وتلك الحالة الأليمة التى أوصلتهم إليها خطيتهم** حرّكت فيه أعمق عوامل العطف، وقال للشعب: «أنتم قد أخطأتم خطية عظيمة، فاصعد الآن إلى الرب لعلى أكثر خطيتكم» (ع ٣٠). لكنه لم يخبرهم عن القصد الذى كان فى قلبه، ولا عن الثمن الذى كان يُفكِّر فى دفعه.

(٣) العرض الذى قدمَّه:

لقد سار بهدوء فى تفكير عميق، ليعود إلى حضرة الله، وكان الشعب يتطلعون إليه. لقد سبق أن قال «لعلى»، لأنه لم يكن واثقاً، وكان يحس **أن الخطية شنيعة جدا**. ولم يكن يُدرك كيف يمكن لله أن يرجع عن تهديداته الشديدة. كان مُقتنعا بأن القصاص الذى يستحقونه لا يمكن العدول عنه **إلا بكفارة**. وأية كفارة كان يمكن تقديمها؟ فالحيوانات لا تكفى، بالرغم من أنها كانت تقدم بالمئات. كان هنالك أمر واحد يمكن أن يقترحه، كان يمكن أن يُقدِّم نفسه. على أنه بطبيعة الحال لم يكن واثقا من أن هذه تكفى أو تقبل، ومع ذلك فانه على الأقل كان يقدر أن يقدمها. كان هذا هو السر الذى يخفيه فى قلبه وهو صاعد على الجبل. وهذا هو الذى جعله يقول «لعلى». لم يكن واثقا أن هذا الثمن يكفى.

وقد يسأل: كيف أتيح له أن يفكر فى كفارة. لكن يجب أن نذكر أنه كان هنالك على الأرجح حديث طويل بينه وبين الله عن الذبائح التى كان يجب أن يقدمها الشعب. لقد استخدمت كلمة «كفارة» مراراً وتكراراً. لقد تعلَّم أن المرء يستطيع أن يفدى غيره بالآلام. لقد رأى الامكانيات العميقة فى ناموس إنابة الواحد عن غيره. لهذا كان يبدو أمراً طبيعيا أن يضع نفسه ـ وهو الخادم المختار قائد الشعب ورئيسهم ـ فى كفة الميزان أمام الشعب، وأن الله يقبل دمه فديةً عن حياتهم.

واعترف موسى بخطية شعبه أمام الله، ثم أضاف قائلا: «والآن إن غفرت خطيَّتهم ـ» ولم يرد أن يكمل العبارة. لم يستطع أن يثق فى نفسه لرسم النتائج المباركة التى تنجم عن غفران الله لخطيتهم. إن غفَّرَت مجاناً، وبدون ثمن كفارى، **عندئذ** تتضح صفاتك

النبيلة، **عندئذ** يهتف لسانى بصلاحك، **عندئذ** ألتزم بخدمتك بغيرة جديدة، **عندئذ** يمتلىء قلب الشعب يقيناً بعاطفة المحبة والإعتراف بالجميل.

لكن الخوف المزعج ضغط عليه لئلا يكون الغفران المجانى أكثر ما ينتظر. آه، إنه لم يُدرك محبة الله فى المسيح يسوع ربنا، ولذلك أضاف هذه العبارة: «وإلا فامحُنِى من كتابك الذى كتبت». لعل هذا الكتاب **هو سِفْر الحياة**. أو لعله هو سجل شعب الله، سواء فى هذه الحياة أو فى الحياة الأخرى. لهذا كان معنى الاقتراح: إما أن يموت هناك وقتئذ، ولا يرى الأرض الجيدة خلف الأردن، أو أن لا يُحسَب ضمن شعب الله، ويُحرَم إلى الأبد من الرؤية الجميلة، ويجد نصيبه بين المرفوضين فى الجحيم.

لقد قدم هذا الاقتراح بعد إمعان وترو. لقد كان لديه الوقت الكافى للتفكير فيه أثناء صعوده على الجبل من أسفله إلى قمته. وكان مُستعداً كل الاستعداد فى حالة قبول الله له. وكان يعتبره شرفا عظيما إن سمح له بأن يكون ذبيحة خطية على قمة الجبل. آه، **لابُد أن يكون قلب الله قد تأثَّر جداً نحو هذا الخادم الأمين، الذى كان اقتراحه بمثابة منظر آخر لابن الله، الذى تعهد بفداء البشرية بسفك دمه كفارةً عنها (موسى رمز للمسيح).**

وطبيعى أن العرض لم يُقبّل. فلا يستطيع أى انسان أن يكفّر عن خطيته، وبالأحرى عن خطايا غيره. ومع ذلك عفا الله عن الشعب. وأمكن الصفح عن خطاياهم بالكفارة التى كانت سوف تُقّدم فى ملء الزمن على الصليب (رو ٣: ٢٥). ومع تهديدهم بالحرمان من رفقة الله لهم فى أسمَّى مظاهرها إلا أن ملاك الرب أُرسَل أمامهم ليقودهم إلى أرض الموعد!!. فما أعظم مراحم الله.



الباب العشرون

رفقة الله لنا راحتنا

«وجهى[1] يسير[2] فأريحك»
(خر ٣٣: ١٤)

ينطبق هذا التأكيد بالراحة على عصرنا الحاضر، كما على عصر الخروج. بل لعل فيه رسالة خاصة لأيامنا الحاضرة المضطربة المليئة بالانزعاج والخصام والفوضى. ونفس الكلمات تجد هوىً فى القلب البشرى، لأن فى داخلنا أجمعين اقتناعا كاملا بأننا نحن الذين نعيش فى قلق واضطراب لا يمكن أن نستمر فى هذه الحالة بصفة دائمة.

كل ثورة، كل مؤامرة ضد نظام الحكومات، كل أحلام الباحث الاجتماعى، كل الجهود النبيلة القصد التى تهدف إلى نشر ملكوت السموات بنظم اجتماعية ـ كل هذه أدلة على أن الإنسان يسعى فى طلب الراحة. لكن هذه الراحة يجب أن تُطلَب فى دائرة أعمق من الظروف. يجب أن تبدأ فى مركز كياننا، وفى خضوعنا لمشيئة الله. يجب أن نرحب برفقته لنا، يجب أن نَثِق بأنه معنا، وإلا صارت الراحة أضغاث أحلام.

(١) الظروف التى أُعطِى فيها هذا التوكيد:

١ـ كان موسى وحيدا يشعر شعورا قويا بالوحدة: لعله شعر بالوحدة والوحشة وسط المليونين من البشر الذين كان يقودهم كقطيع من الغنم أكثر مما كان يشعر بهما وسط عزلة الصحراء، إذ كان يرعى غنم يثرون. إن الفارق العظيم بين تمتعه الجزيل بالعشرة الإلهية وبين علاقته بالشعب المنغمس دواما فى ملذات الجسد، لابد أن يكون قد زاد فى شعوره بالوحدة والعُزلة، فقد سمت روحه عن أشواقهم الجسدية سموا عظيما

---

(١) أو «حضرتى» (أى حضورى معك) حسب هامش الكتاب المقدس.

(٢) أو «يسير أمامك» حسب الترجمة الانكليزية وترجمة اليسوعيين.

كسمو قمة جبل سيناء عن أوديته. «وقال موسى للرب انظر. أنت قائل لى أَصعِد هذا الشعب. وأنت لم تُعرّفِنى منْ ترسل معى»؟ (خر ٣٣: ١٢). يالها من أنة عميقة ورغبة مُلِحّةَ فى طلب الرفيق.

يقينا أن هذه الكلمات سوف يقرأها الكثيرون ممن يحسون بالوحدة بحسب الظاهر. فالبعض قد تركوا ساعات طويلة ليحملوا أعباء البيت، أو أثقال الألم، أو عبء الخدمة، مثل حارس الليل المتروك وحده فى مكان مقفر. والبعض الآخر لا يقل شعورهم بالوحدة وإن كانوا وسط الجماهير. قد يكون هنالك عدد وفير من الجنود لا يوجد قائد واحد بمثابة أخ، قد تكون هنالك أصوات كثيرة لكن الصوت الرئيسى غير موجود، قد يكون هنالك رُفَقاء كثيرون، لكن لا يوجد صديق واحد. يقولون فى عالم المادة إن أكثر الأجسام صلابة لا تمس الذرات فيها بعضها بعضا[1]. وفى أحيان كثيرة تزحمنا الجموع لكننا نحس أن أحدا يلمسنا، كما حدث مع المسيح (لو ٨: ٤٥). فى حالة كهذه أعطى هذا التأكيد الذى نراه فى آية موضوعنا.

٢- يضاف إلى هذا أن الجماعة كانت ستغادر قريبا منطقة جبل سيناء، التى كان موسى خبيرا بها منذ أن كان يرعى غنم يثرون، لكى يتقدم للأمام إلى قفار لا يعلم من أمرها شيئا ويكون مُهدداً بأعداء أقوياء. ومع أن عمود السحاب سار أمامهم ببطء ليقودهم فى طرق تلك البرية الموحشة، وكان يضئ لهم بنوره الوهاج فى الليل، ألا أن نفس فكرة المسير فى تلك البرية المترامية الأطراف المخيفة كانت كافية لإدخال الرُعب والفزع فى أقوى القلوب.

أن مثل هذه الدعوة «قم وارتحل» طالما رنت فى آذاننا كدعوة البوق أو النفير. لم يكن ارتحالهم عن طريق السكك الحديدية المنظمة التى تعودتها البشرية اليوم، بل كان كحملة جُرِدِّت لاكتشاف أرجاء مجهولة لا يعلم حتى قائدها أين ومتى يحط رحاله فى المساء. ثم انهم لم يقضوا وقتهم كله فى مكان واحد، بل كانوا دائمى التنقل إلى أمكنة جديدة لم يروها من قبل.

---

(١) غير معروف تاريخ كتابة هذا الكتاب. لكنه طبع بلغته الأصلية (الانكليزية) سنة ١٩٠٩ أى قبل اختراع القنبلة الذرية بفترة طويلة جدا.

٣ - **ثم كانت هناك صعوبات أخرى** قامت أخيرا تتصل بتعدى الشعب وخطيتهم. فإنه لدى دراسة هذا الاصحاح دراسة دقيقة يتضح أنه قد حصل تغيير فى موقف الرب بإزائهم. لقد كان إلى ذلك الوقت يسير فى وسطهم. أما الآن فقد اعتزم على أن يحل محله ملاك لئلا يفنيهم فجأة فى الطريق لأنهم «شعب صلب الرقبة» (ع٣). لقد أمر الشعب بأن ينزعوا عنهم زينتهم (ع ٥، ٦).

ثم أن الخيمة التى كانت تعتبر مقدسا مؤقتا لله كان يجب أن تقام «خارج المحلة بعيدا عن المحلة» فكان كل من يطلب الرب يخرج إلى خيمة الاجتماع التى خارج المحلة، ويسير إليها مسافات طويلة (ع٧). لكن يبدو أنه قد أوشك أن يحصل تغيير محسوس فى أدلة حضور الله وسطهم، وهذا، ملأ قلب ذلك القائد العظيم خوفاً. لذلك لم يشأ أن يطلق الله - كما فعل يعقوب فى مخاضة يبوق - بل قال له: «إن لم يسر وجهك (حضرتك) فلا تصعدنا من هنا» (ع ١٥). خير لنا أن تعدل عن مشروعك الرئيسى، وتقتلنا فى لحظة، وتدفننا فى الرمال، من أن تسمح لنا بأن نخطو خطوة واحدة بغير رفقتك لنا.

ألا تمر أوقات على الكثيرين منا حينما نرى أن هنالك مُبرراً لكى نخاف، لئلا يضطر الرب أن ينزع منا الشعور بمحبته نتيجة خطأ أو خطية ارتكبناها؟ فى مثل هذه الأوقات يتملك القلب خوف شديد ويكاد يتجمَّد، فيصمُت «ماذا تكون النتيجة لو أنه اضطر بأن يتركنى لنفسى، ويحرمنى من مراحمه، ويغلق عنى أحشاؤه؟ ماذا لو صرت كمركبة الجلد المجهورة فوق تلوج المنطقة القطبية، أو كسفينة هجرها بحارتها وسط المحيط؟ ماذا لو صار نصيبى كنصيب شاول وقال عنى الله «ندمت إذ أقمتُ شاول ملكاً؟» إن أفكارا كهذه تتنازع النفس أحيانا وهى تسير لتمثل أمام الله.

(٢) المكان الذى أعطى فيه هذا التأكيد:

أن الحديث الأول بين هذا الخادم «الأمين فى كل بيته»، وبين ذاك الذى أقامه يبدو أنه تم فوق قمة الجبل.لكن بعد أن ارتكب الشعب خطيتهم الشنيعة، حدث تغيير كان يستلزم أن لا يتغيَّب عنهم قائدهم فترات طويلة فى أماكن بعيدة، كما حدث فى الماضى. والواقع أنه لم يتغيَّب عنهم إلى يوم وفاته سوى فترة واحدة أخرى مدتها أربعين يوما أيضا (ص ٣٤: ٢٨)، أى أنه ظل بعد ذلك ملازما لهم مدة ٣٨ سنة دون أن يُفارقهم.

وفى الفترة الطويلة التى قضاها مع الله تحدث إليه كثيرا عن خيمة الاجتماع التى كان ينتظر اقامتها عن قريب. ولقد رأى فى الحال بركة قرب إقامة قُدس للعبادة والشركة، ويبدو أن روحه الوثابة لم تحتمل التأخير فاختار خيمة، ولعلها خيمته هو، أو لعلها خيمة أُعدِّت خصيصا، وأقامها «خارج المحلة بعيدا عن المحلة» ودعاها خيمة الاجتماع «فكان كل من يطلب الرب يخرج إلى خيمة الاجتماع التى خارج المحلة» (ع٧).

لكن فائدتها الخاصة كانت واضحة فى حالة موسى نفسه، فإنه لم يُعد مضطراً فيما بعد للصعود إلى قمة الجبل، حاملا رسائل من الشعب، أو متلهفا لطلب المشورة فى الأمور الغامضة. فقد أصبح فى إمكانه القيام بكل خدمة ضرورية، وذلك بمجرد الخروج إلى الخيمة. وعندما كانت الإشاعة تملأ المحلة بأنه على وشك القيام بهذه المهمة «كان جميع الشعب يقومون ويقفون كل واحد فى باب خيمته، وينظرون وراء موسى حتى يدخل الخيمة» (ع٨)، لأنها حالما كان يدخل الخيمة «كان عمود السحاب ينزل (من مكانه فى كبد السماء) ويقف عند باب الخيمة» علامة على حضور الله (ع٩)، وهكذا «يكلم الرب موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه». كان موسى يكلم أباه الذى فى الخفاء بدالة البنين. وعندما كان الشعب يرون هذا المنظر العجيب بأن الله يتنازل لكى يكلم انسانا بشريا كانوا «يسجدون كل واحد فى باب خيمته» (ع ١٠).

هناك تم هذا الحديث العجيب. لقد تحدَّث موسى عن وحدته، وسأل عمن يرافقه فى هذه المهمة العظيمة، وقارن بين هذا الصمت من جانب الله (الذى كان ينتظر منه بصفة خاصة عزاءه وقدرته) وبين كل معاملاته الأخرى معه. «وأنت قد قلت عرفتك باسمك. ووجدت أيضا نعمة فى عينيَّ» (ع ١٢).

ويبدو أن هذا الخادم الأمين تطلع فرأى فجأة بَركَة تفوق فى المجد أية بَركَة أخرى سبق أن تجاسر بأن يطلبها. لقد قدم طلبته فى تواضع جم، ودعمها بإشارة مزدوجة إلى النعمة التى يدين لها بكل شيء، لكنه تجاسر بأن يقترح أن الله نفسه يُريه طرقه لكى يعرفه (ع ١٣). وكأنه قد قال: أتسمَّح بأن تكون أنت نفسك صاحبى ورفيقى، ملاذى فى وقت الشدة، مستشارى فى وقت الحيرة، صديقى فى وقت الوحدة والوحشة؟ أن ملائكتك أقوياء وصالحون وطيبون، لكن **لن أجد كفايتى فى أى واحد منهم سواك**. بدونك كان

خيرا لى أن أعتزل خدمتى وأموت، لكن معك لن تعطلنى صعوبة، ولن يُزعِج قلبى خوف، ولن تؤخرنى العراقيل.

فجاءت إجابة الله إلى روحه كموسيقى شجية وبَلسَان شافٍ «وجهى يسير (معك) فأُريحك» (ع ١٤). ولم يذكر شىء عن الشعب. وظاهر بأن الوعد بالرفقة الإلهية أُعطِىَ لموسى وحده.

لكن الإيمان يزداد قوة فى نموه. وكل استجابة لطلباته يدفعه لتقديم طلبات أكثر. وإن كان إيماننا لا يجرؤ اليوم على تقديم طلبات أكثر مما قدّم منذ عام مضى، فخليق بنا أن نتساءل عما اذا كان هو الإيمان الصحيح. من أجل هذا لم يكتفِ موسى بأن ينال تأكيدا برفقة الله له شخصيا بل طلب أن تشمل هذه النعمة الشعب أيضاً. «فإنه بماذا يعلم أنى وجدت نعمة فى عينيك أنا وشعبك. أليس بمسيرك معنا. فنمتاز أنا وشعبك عن جميع الشعوب الذين على وجه الأرض» (ع ١٦).

وفى هذه الناحية أيضا نجح «فقال الرب لموسى **هذا الأمر أيضا الذى تكلمت عنه افعله. لأنك وجدت نعمة فى عينى**» (ع ١٧). هنالك لحظات مباركة فى الحديث مع الله فى حياة كل خدامِه، لحظات سعيدة ذهبية. عندما تحل هذه اللحظات، ونريد أن ننتفع بأكبر قسط من البركات فى فترتها الوجيزة السعيدة المنيرة، فلنطلب لا من أجل أنفسنا فقط، بل من أجل الآخرين أيضا، طالبين لهم بَركَة مماثلة.

(٣) البركة التى ضمنها هذا التأكيد:

لقد ضمن أولا الرِفْقة الإلهية، وثانيا الوعد بالراحة، لا راحة كنعان، فهذه لم يرها موسى قط، بل ميراث أعمق وأكثر بَركَة، يمكن أن يكون من نصيب كل المؤمنين. لكن الواقع هو أن هاتين البركتين واحدة، فالرفقة الإلهية راحة.

*** وطبيعى أن رفقة الله لنا ممكنة بثلاثة شروط:**

(الأول) يجب أن نسير فى النور كما أنه هو فى النور. لأنه لا يمكن أن تكون له شركة مع أعمال الظُلمة غير المثمرة، كما أنه لا يمكن أن يسير معنا فى أى طريق ملتوٍ نختاره نحن أنفسنا.

(الثانى) يجب أن ندرك أن دم يسوع المسيح ابنه يطهرنا بصفة مستمرة من كل خطية، ليس فقط تلك التى نراها ونعترف بها، بل أيضا تلك التى لا تراها إلا عيناه الطاهرتان النقيتان.

(الثالث) يجب أن ندرك نطلب مساعدة الروح القدس لكى يؤكد لنا يقينية هذه الرِفْقَة، فالعين البشرية لا تراها إلا إذا استنارت استنارة خاصة.

وفوق كل شىء، يجب أن نذكر أن هذه الرفقة مُركَّزة فى شخص الرب يسوع المسيح. ليس لنا شبح من الرِفقَة، بل لنا شخصه المبارك الذى يُرافقنا ويلمسنا.

وعندما تتم هذه الشروط تختبر النفس المباركة رفقة الله التى لن نجد كلمات نعبر بها عن بركاتها أسمى من كلمات المرنم عندما تحوّل من نجاح الأشرار ليتأمل فى حالته هو «ولكننى (أى بالرغم من هذا فإننى) دائما معك. أمسكتَ بيدى اليُمنى... من لى فى السماء (سواك). ومعك لا أريد شيئا فى الأرض» (مز ٧٣: ٢٣ و٢٥).

وفى الشعور بهذه الرفقة راحة. إننى أرقُب الآن ممرا فى غابة. أرى جماعة من الأولاد المجهدين المنزعجين رابضين عند جذع شجرة قديمة، يلقون إلى الأرض الزهور الذابلة التى احتفظوا بها فى أيديهم وفى جيوب ملابسهم، وذلك حالما يحسون بأن أولى قطرات المطر قد بدأت تتساقط. لقد ضلوا الطريق، وبدأوا يصرخون. لقد تجمعوا معا. وفجأة أحسوا بأقدام شخص قادم. لقد أتى أبوهم، وإذ حمل بعضا منهم على ذراعيه ليسير بهم فى أقرب طريق يؤدى إلى البيت، ركض الآخرون واقتربوا منه. لقد أدركوا أنهم فى رفقة أبيهم، فوجدوا راحة.

✝ ✝ ✝

الباب الحادى والعشرون

صُنع خيمة الإجتماع

«بحسب جميع ما أنا أُريك من مثال المسكن هكذا تصنعون.. على مثالها الذى أُظهِّر لك فى الجبل»

(خر ٢٥: ٩)

كان قلب الشعب اليهودى هو خيمة الاجتماع، التى صُفّت حولها خيامهم، والتى كانت تحركاتها تحدد رحلاتهم. ولقد علمتهم خيمة الاجتماع أيضاً بعضا من أعمق الأفكار عن الله بلغة الصور التى كانت تلائم عقولهم، التى لم تنضُج بعد. هذه مجرد تأملات عابرة، لأن هدفنا الرئيسى هو التأمل فى نصيب موسى فى إقامتها.

يجب أن نذكر أن بنى اسرائيل لم تكن لهم لغة غنية كلغتنا، أو كلمات كثيرة ومفردات غنية، قادرة على التعبير عن جميع أنواع الأفكار المعنوية، كالمحبة والحكمة والطهارة والروحانية والقداسة. نحن لا ندرك كثيراً مقدار الصعوبات الجمة فى نقل الحقائق الروحية، وهى الناشئة عن عدم توفر الكلمات اللائقة التى تستطيع التعبير عن الفِكْر. فكيف نستطيع التحدث عن المحبة لقومٍ متوحشين إن كانت الكلمة الوحيدة عنها فى لغتهم محفوفة بالأفكار الدنسة المتوحشة؟ ولهذا كان على الله أن يُعِّد لغةً لنقل أفكاره قبل أن يعلن عن نفسه. وهذا ما فعله بتوسع عند صنع خيمة الاجتماع.

١- (فكرة خيمة الاجتماع):

هوذا المثال على الجبل. وواضح أنه لابُد أن يكون قد أعطى منظراً منظوراً، صور نيرة مجيدة على السحاب، أو سطعت على الصخور القديمة. لعله قد ظهرت له الأوتاد والستائر، الكروب (الملائكة) والسُرج، الذهب والفضة، المذبح والمنائر، لكنها لم تكن تُلمس. بل كانت مجرد صور مرئية كأنها فى حُلمٍ جميل.

ولا يعقل أبدا أن الله فى نفس الوقت لم يُفسِر لموسى تلك الأفكار العجيبة عن طبيعته، وعن علاقته بالبشر، تلك التى قصد بها أن تكون ممثلة فى ذلك المبنى المادى. فى تلك الأيام المباركة التى قضاها موسى فى شركة مقدسة لابُد أن يكون المعلم القدير الأعظم قد طبع فى عقل تلميذه المبارك سلسلة من الأفكار المقدسة التى أثلجَت صدره. ولعلها ـ حتى له ـ قُدِمت إليه أولاً بصورة منظورة، وهى نفس الصور التى قدَّمها هو الى الشعب فيما بعد. وعلى أى الأوضاع أنها يقيناً قد أُعلِنَت اليه بالروح القدس، الذى يُعلِن حتى أعماق الله (١كو ٢: ١٠)، ويُعَّرفها للذين يحبونه. **وهذه هى الأفكار المقدسة:**

١- ارتضاء الله بأن يشترك فى الحياة البشرية:

لو أن الشعب قد رأوا فقط النار الآكلة على قمة جبل سيناء، وهى علامة حضوره[1]، لما خطر ببالهم بأن هنالك شركة بينه وبينهم. كان تفكيرهم أنه بصفة مستمرة بعيد عنهم لا يُدَّنى منه. لهذا قال الله «يصنعون لى مقدسا لأسكن فى وسطهم» (ع ٨). وعن هذا المقدس وعد قائلا «وأسكن فى وسط بنى اسرائيل وأكون لهم إلها» (ص ٢٩: ٤٥).

هكذا رتب أن تقام فى وسطهم هذه الخيمة الأكبر التى لا تختلف عن خيامهم سوى فى مقاييسها وموادها. لكنها كانت قائمة على نفس المستوى الرملى، تطوى وتقام مع خيامهم فى نفس الساعة، معرضة لنفس المؤثرات، مؤثرات الجو ومؤثرات النقل. ألم تتحدث هذه الخيمة بلغة واضحة أن مسكن الله مع البشر، وأنه ارتضى أن يسكن معهم ويكون لهم إلهاً؟ ألم تُلِقن هذا الدرس أن الرب قد تغرَّب مع المُتغرّبين، وأنه لم يُعد إلهاً بعيدا، بل قاسمهم نصيبهم كأمة؟ أليس هذا هو نفس الدرس الذى يُلقّنه لنا التجسد؟ ألا يحق لنا أن نتجاسر فنقول أن الكنيسة، ذلك الجسد المقدس الذى كان يُعد لابن الله، قد أعلن وقتئذ لعبده الأمين؟ وأنه قد تعلم بأن يمثل ـ فى صور مادية ـ ذلك الاتحاد العجيب بين الروح، والنفس، والجسد فى شخص الرب يسوع المسيح، تلك التى كان يُرمز إليها قُدس الأقداس، القدس، والدار الخارجية.

هكذا تهَّيأ عقل الإنسان ليتعلم أن الله يمكن أن يتجسَّد ويحل بيننا، كما حلت بيننا خيمة الاجتماع. هكذا نُحِتَت المقاطع الأولى التى كان سيبنى منها هذا الاسم العجيب

---

(١) «وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بنى اسرائيل» (خر ٢٤: ١٧).

«عمانوئيل». هكذا صور التجسُّد مقدماً، لأن جسد يسوع هو خيمة الاجتماع الحقيقية التى أقامها الرب لا إنسان، ذلك الجسد الذى وُلِد من العذراء القديسة مريم، الذى حل فيه بين البشر، والذى فيه صنع فداء.

٢- عظمة الله:

كان ينبغى أن تُعطَى صورة منظورة عن هذه أيضا. كانت خيمة الاجتماع أفخر خيمة أقامها الإنسان فى كل الأجيال. لابُد أن تكون قد كلفت على الأقل ربع مليون استرلينى، وهذا مبلغ ضخم جدا بالنسبة لأمة مُشردَّة من العبيد. كانت القواعد التى توضع على الرمال لتحمل الألواح تُصنع من الفضة. وكانت القطاعات التى تُغطِى السقف والجُدران فاخرة. وكانت الأثاثات من ذهب، ومن ضمنها المنارة ذات السبع شُعبَ، التى كانت تزن وحدها قنطاراً إنكليزيا من الذهب، لا تقل قيمته عن ٥٥٠٠ جنيها انكليزيا. كان هنالك ستون عمود نحاس، لها رؤوس وربط من فضة، ومن هذه الربط كانت تتدلى شُقَق (ستائر) من قماش رفيع جداً، لكى يستطيع الشعب أن يرى من خلالها كل ما يجرى فى الدار الخارجية. وكانت هذه كلها ثمينة جدا.

فى ذلك اليوم الجديد من السنة الجديدة، ذكرى الخروج (خر ٤٠: ١٧) اذ أُكمِلَت خيمة الاجتماع، وانتصبت فى الصحراء نور الشمس، لابُد أنها بدَت لكل من رآها جميلة كما بدت أورشليم الجديدة للرائى، عندما رآها نازلة من السماء من عند الله (رؤ ٢١: ١٠)، ولابُد أنها أوحت إليه أفكاراً جديدة عن عظمة الله، ولو أنها فى نظر موسى لابُد أنها خيَّبت آماله، لأن الخيمة الفعلية كانت أقل بهاءً ومجداً من المِثال الذى رآه.

٣- وحدة الله:

كانت كل الأمم المحيطة غارقة فى العبادة الوثنية. أما خيمة الاجتماع فقد كانت واحدة، مع تعدد أجزائها وأدواتها ولوازمها. تابوت واحد، مذبح واحد للبخور، مذبح واحد للمُحرَقة، قصد مقدس واحد فى كل طقس وخدمة للتطهير من الدنس. لذلك قامت الخيمة بين البشر احتجاجا مستديما ضد العبادة الوثنية، وشهادة أكيدة لوحدة الله. «اسمع ياإسرائيل. الرب الهنا رب واحد» (تث ٦: ٤). هكذا كانت الرسالة الدائمة التى تذيعها هذه الخيمة الواحدة فى جو الصحراء.

لكننا لابُد أن هذه الرسالة سبَّبت الرهبة والجلال فى قلب موسى، اذ وصلته لأول مرة. لقد كان يعرفها منْ قبل، لكنه إذ رآها كانت له بمثابة من يتطلع فى قلب الحق. وبمقارنة الأشياء الصغيرة بالكبيرة كانت الخيمة، كما نتطلّع إلى عين حبيبنا ونرى فيها أعماقا من الحياة والمحبة لا نستطيع أن نصّفها بأية كلمات، ثم أنها تفوق عقولنا.

٤- الله روح:

على الجبل رأى موسى ثوب الملك، لكنه لم يرَ الملك نفسه، رأى مجده لكنه لم يرَ شخصه، رأى ظهره لكنه لم يرَ وجهه. وفى هذه الصورة الرائعة نقل إلى الشعب هذه الفكرة وهى أن الله روح.

لو كنتَ قد دخلتَ القدس لرأت عينك الشقة الثقيلة الرائعة، مطرزة بكروبيم تحتل ستة أقدام من طول الشقة. ولو رفعت الشقة وجدت خلفها غرفة مكعبة طولها كعرضها كارتفاعها، وهى صورة مصغرة لأورشليم الجديدة. فى هكيل المصريين كانت الغرفة المماثلة تحتوى تمساحا أو العجل أُبيس. أما فى خيمة الاجتماع فكانت هذه الغرفة تحتوى صندوقا فوقه كروبان من ذهب باسطان أجنحتهما، وبين جناحيهما المتقابلين يشع نور ليس مستمدا من الشمس أو الكواكب. أكان ممكنا أن يوجد شىء أليَّق ينقل هذه الفكرة بأن الله روح.

وأن خلو قدس الأقداس من أية صورة منظورة أذهلت الجندى الفظ المدعو «بومبى» الذى دخل متلهفا إلى قدس الأقداس هذا، الذى كان لا يطأه إلا رئيس الكهنة مرة واحدة فى السنة خالعا نعليه. كان يتوقع أن يرى تمثالاً مجسما يمثل الرب، لكنه خرج منه هازئا إذ وجده خاليا خاويا. أما موسى فقد كان قدس الأقداس الخالى هذا يستهوى قلبه وعقله.

٥- طهارة الله:

كانت هنالك مناظر كثيرة تمثل هذه الفكرة. أولا: كانت خيمة الاجتماع قائمة على ساحة مسورة، لكى تكون بعيدة عن الشعب. وكان الجزء الخارجى لا يدخله إلا من مارسوا طقسا معينا للتطهير. أما الداخلى فكان لا يدخله إلا رئيس الكهنة بعد أن يتطهر بحرص شديدة بطقوس كثيرة، ولابسا ملابس خاصة، وكان يرش حوله دم حيوانات بلا

عيب، مختارة من بين القطعان. كل هذا تم لإعطاء فكرة للشعب بأنهم يجب أن يحرصوا كل هذا الحرص عند اقترابهم من الله. وبهذه الطريقة أخذت الأمة فكرة عن قداسة الله لم تستطِع الأجيال التالية أن تمحوها.

إزاء كل هذه الطقوس، وخاصةً ازاء الإلتجاء المتكرر إلى دم الذبائح الذى كان ينبغى أن يُسفك ويُرّش، تكونت لدى موسى فكرة عن الكفارة والفداء، لابد أن يكون قد رأى عبر الأجيال صليب المسيح، وما كان يكتنفه من محبة وتضحية وانابة عن خطايا البشر. ولابُد أن تكون قد ارتسمت أمامه مقدما رؤيا واضحة جليّة، عن تلك النواحى المتعددة بصدد موت المؤمن، وبمنْ يخطئ سهوا. ومنْ يخطئ بتعمُّد، بجميع البشر، بل بجميع مسكونة الله.

لابُد أن أفكاراً كهذه خطرت ببال موسى إذ كان ينتظر أمام الله وهو لا يحس بمرور الوقت، أو بفتور محبة شعبه وانحرافهم إلى العبادة الوثنية، أو بحاجة جسده إلى الطعام. ونحن إذ نتطلع إلى هذا المنظر العظيم، منظر تلك النفس الغارقة فى التفكير، كأنها مسحورة، تتكوَّن لدينا فكرة عن ناحية واحدة على الأقل، مما يُشغِل القديسين فى الأبدية، ونتحفز لطلب المزيد من معرفة الله.

ألا ليتنا نعرف الله. **لا نعرف عن الله بل نعرفه** «لنتتبع لنعرف الرب»[1] (هو ٦: ٣)، **نفكر أفكاره، نعطيه وقتا لكى ينقل أفكاره إلى عقولنا، تختبره نفوسنا،** فهو بلا شك يدعونا لمعرفته، ويفتح أمامنا كل أبواب طبيعته لندخل. هذا أفضل من كل شىء. ان الاختبارات التى تذهل العقل، والتخلص من الشر، والهروب من الانفعالات، هذه كلها لا تُعوِّض النفس عن معرفة الله التى متى حصلنا عليها حصلنا على كل هذه. «بل أنى أحسب كل شىء أيضا خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع الذى من أجله خسرت كل الأشياء، وأنا أحسبها نفاية لكى أربح المسيح» (فى ٣: ٨).

---

(١) «لنعرف فلنتتبع لنعرف الرب» حسب ترجمة بيروت، «ونعلم ونتبع الرب لنعرفه» حسب ترجمة اليسوعيين، «عندئذ نعرف اذا استمرينا فى طلب معرفة الرب» حسب الترجمة الانكليزية.

(٢) صنع الخيمة وفِقْ المِثَال الذى أُظهِر:

هذا أمر يهمنا أجمعين. نحن لا ندْعِى لإقامة هذه الخيمة مرة أخرى، وفق ذلك المثال القديم الذى كان لازما فى وقته، ولكنه أصبح لا داعى له بعد ظهور اعلانات الانجيل الواضحة. لكن هنالك مثيل لها، ملئ بالتعاليم فى حياة كل مؤمن حقيقى مما يستحق التفاتنا لحظة.

كما كانت خيمة الاجتماع ماثلة فى فكر الله قبل أن تقام فى البرية، هكذا الحال معنا، فان حياة كل منا ماثلة فى فكر الله اللانهائى، الذى يفكر فى تحركات الملائكة كما يهتم بسقوط عصفور على الأرض.

عندما يولد طفل فى العالم بكل مواهبه مغلقة فى داخله كزهرة فى برعمها، تكون هنالك فى فكر الله صورة كاملة عما يمكن أن تكون عليه حياة هذا الطفل، صورة كاملة عن المثل الأعلى الذى يمكنه الوصول إليه. هنالك صورة كاملة عما سيصل إليه، وبجانبها صورة كاملة عما كان ممكنا أن يصل إليه. **ولو أمكن رؤية هذا المثال وتنفيذه حرفيا، لو أمكن أن تصل هذه الحياة للمثال الإلهى، لما وُجِد هنالك مجال للندم أو الفشل. بل لأمكنها اتمام غايته الكاملة حسب فكر الله، والوصول إلى المثل الكامل والبركة الكاملة.**

هكذا الحال مع المؤمن اذ يقف على عتبة الحياة المسيحية مليئا بالأمل والرجاء. هنالك مثل كامل مُعّد له فى فِكر الله، مثال للحياة المباركة المُطوّبة، القادرة على إتمام أجل الأعمال. ان كانت تحقق هذا المثال يوما فيوما، فانها تنمو من مجد إلى مجد، ومن قوة إلى قوة، ومن نعمة إلى نعمة. لكن الكثيرين منا ـ مع الأسف الشديد ـ قد تمموا إرادتهم الشريرة واتبعوا تدابيرهم الشخصية.

ليس السؤال الجوهرى الذى يجب أن يوجهه كل واحد منا لنفسه إذ يبدأ عملا جديدا، أو حتى يوما جديدا، هو: ماذا يفعل الآخرون؟ أو ماذا أجنى من هذا العمل من ربح؟ أو ماذا سيزيد فى سُمعتى أو مصالحى المادية؟ بل: **ما هو المثل الأعلى الذى وضعه الله؟**

ما هو فكر الله؟ ما هو المثال الذى صممه الله؟ ويجب أن يكون هدفنا الوحيد هو أن نعرفه، واثقين من أن تنفيذه يُؤَّول إلى الحياة الطيَّبة.

١- كان المثال الذى وضعه الله شاملا:

لم يترك الرب أى شيء حتى تافه، لحكمة الصُنَّاع أو اختراعهم. كان المثال الذى وضعه الله يشمل كل شيء. لقد **وضع الله تصميما لكل التفاصيل**، لأنه كان هنالك قصد مخفى وراء كل جزء صغير، وكان تناسق الكل يتوقف على إكمال كل جزء. هكذا الحال فى حياة كل انسان، فإن فِكر الله يشمل كل تفاصيلها. ليس هنالك شيء ما يمكن اعتباره تافهاً فى نظرنا ولا يستحق أن نصلى من أجله. ليست هنالك حياة عظيمة ممكنة دون أن يشمل كل تفاصيلها. ليس هنالك شيء ما، يمكن اعتباره تافهاً فى نظرنا ولا يستحق أن نصلى من أجله. ليست هنالك حياة عظيمة ممكنة دون أن يشمل برنامجها الاهتمام حتى بأتفه الأمور فى الناحية الأخلاقية.

٢- ولقد كشف الستار عن خطة الله تدريجياً:

الأرجح أن وصف إعلان أجزاء خيمة الاجتماع المتتابعة هو صور طبق الأصل للخطة التى بها كشف الستار لموسى عن التصميم الذى وضعه الله. إن خطة الله دواما هى أمر على أمر، فرض على فرض، أى أمر بعد أمر ووصية بعد وصية (إش ٢٨: ١٠). هكذا كان الحال مع كل القديسين، فإن مقاصد الله لهم لن تُعلن لهم دفعة واحدة بل بالتدريج.

أننا لا نستطيع أن نرى مسافة بعيدة عن الأمام، ولا نستطيع أن نرى كل خطة الله كاملة من جهة حياتنا. لكننا اذ نكمل شيئاً واحدا يعلن لنا غيره، ثم غيره، ثم غيره. ربما يكون واجبا علينا أن نكمل أجزاء خيمة حياتنا المختلفة دون أن تكون هنالك علاقة ظاهرة بين الجزء والآخر «بأنواع وطرق مختلفة» ودون أن نفهم قصد الله. لكننا فى نهاية الحياة سوف نتبَّين أنه كان بناء واحداً كاملا رائعا لم ينقصه أى جزء صغير.

٣- وكانت خطة الله تتناسب مع ما يمتلكه الشعب:

كما كان المثال على الجبل هكذا كانت المواد اللازمة لتحقيقه فى أيدى الشعب من أسفل، الذهب والفضة والحجارة الكريمة، الأزرق والأرجوان والقرمز، الكتان وشعر المعزى والجلود، فطنة الصناع وسخاء الشعب.

أن الله لن يعطى الانسان مثالاً دون أن يتحمل (الله) مسئولية اعداد كل المواد اللازمة لاتمامه. **تقبل مثال الله ثم اتكل عليه اتكالا مطلقا ليعطيك النعمة اللازمة.** انها موجودة، وتنتظر فقط أن تطالب بها بالايمان. كل شيء يزداد لمن يطلب أولا وفقط ملكوت الله وبره. وإن لم تتوافر المواد فخليق بك أن تبحث لئلا تكون أنت قائما بالخدمة وفق خطة من تدبيرك الشخصى. ان الله لن يقدم المواد اللازمة لأتفه شيء تضيفه أنت للتصميم الذى وضعه هو.

٤- وخطة الله تتطلب الطاعة بثبات:

فى الأصحاح الأخير من سفر الخروج يحدثنا الوحى - ثمانى مرات - أن كل شيء قد أُكمِل «كما أمر الرب موسى». كان موضوع فرحه العظيم وبهجة قلبه أنه لم يُنقِص شيئاً من أمر الله، وهكذا أكمل العمل. وخليق بنا أن نُدَّرب أنفسنا على عادة الطاعة السريعة الكاملة لإرادة الله وإتمامها فى أتفه الأمور، كما فى أجلها وأخطرها.

بهذا تصبح حياتنا نحن البشر متناسقة مع الطبيعة الإلهية، وتصبح خيمة حياتنا بيتا «لساكن الأبد القدوس اسمه» (أش ٥٧: ١٥). هنالك نتمتع برفقة الله، اذ يحل عمود السحاب نهارا وعمود النار ليلا، فى كل رحلاتنا إلى أن نصل بيت أبينا (الفردوس).

٥- وخطة الله فى تقدُّم مستمر:

اذا تتبعنا الخطوات الأولى التى اتخذها الله لتعليم موسى وجدنا أنه (موسى) بدأ يهتم بصفة خاصة بتحسين فكرة الذبائح البدائية، كما كان الحال فى أمر خروف الفصح. أما الخطوة الثانية فكانت إقامة خيمة الاجتماع التى تأملنا أمرها فى هذا الفصل. لكن لم تكن هذه هى الصورة النهائية للإعلان الإلهى الذى طلب منه أن يعلنه بكيفية منظورة. ففى السنوات التالية عندما صار المرض يحصد ألوف الأرواح فى المحلة كقصاص على تذمرات الشعب طلب من موسى أن يصنع حية نحاسية ويرفعها على سارية لكى ينجو من الموت كل من نظر إليها.

فى تلك اللحظة الخالدة، رأى منظر يسوع على الصليب، وأدرك ليس فقط حقيقة موته بل كيفيته. لم يُعطِ لأى راء فى العهد القديم أن يعرف بأن الرب يسوع كان يجب أن يُرفَع

على صليب. لكن هذا ما أعطى لذاك الذى تمم بأمانة خطة الله فى خطواتها الأولى. وله أيضا أعطى هذا الامتياز أن يعلن ـ بكيفية واضحة بسيطة ـ طبيعة الإيمان الذى يُخلِّص. «وكما رفع موسى الحية فى البرية هكذا ينبغى أن يُرفع ابن الإنسان لكى لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو ٣: ١٤ و١٥).

هذا ما يحصل دواماً. فإننا كلما صعدّنا الجبل اتسع أمامنا الأُفق، وكلما أتممّنا مشيئة الله كاملة، عرفنا تعاليمه بأكثر دقة (يو ٧: ١٧)، وكلما اتبّعنا خطة الله سمح لنا بأن نتطلع إلى تلك الأعماق التى أعدها الله للذين يحبونه، وأذعناها للملأ (بالكرازة).

✝ ✝ ✝

الباب الثانى والعشرون

الارتحال من سيناء

«وقال موسى لحوباب إننا راحلون إلى المكان الذى قال الرب أعطيكم إياه. اذهب معنا فنُحسِّن إليك»
(عد ١٠: ٢٩).

أقام بنو اسرائيل تحت ظل جبل سيناء حوالى أحد عشر شهرا، وهى مدة كافية ليروا فيها تعاقب فصول السنة. لكن لم يكن فى منظر تلك الصور أى أثر لخضرة الربيع أو ذبول أوراق الخريف. وياله من تغيير حدث فى حالتهم. لقد وصلوا جبل سيناء جماعة مشردة لا يعرف النظام إليهم سبيلا، وتركوه أمة قوية فى الحروب، مزودين بنظام كهنوتى يبقى أجيالا عديدة رمزا لكهنوت المسيح، ومزودين أيضا بشرائع وتدابير صحية صارت أنموذجا لأرقى شعوب العالم مدنيةً.

وكان يدل على هذا التغيير العجيب نفس منظر المحلة. ففى الوسط قامت خيمة الاجتماع المقدسة تظللها السحابة، وحولها كانت خيام الشعب الكثيرة «كجنات على نهر كشجرات عود غرسها الرب كارزات على مياه» (عد ٢٤: ٥ و٦). كان الكهنة واللاويون يقيمون خيامهم حولها مباشرة فى الدائرة الدخلية، وحولهم الاثنا عشر سبطا، كل ثلاثة فى جهة من الجهات الأربع الأصلية، وكلهم يحرسون خيمة الاجتماع كأمانة مقدسة، وكمركز حياتهم الوطنية.

وكان هذا أيضا منظرا رائعا عندما ترتفع السحابة فيعطى الكهنة بالأبواق الفضية علامة لكى يبدأ الارتحال. الحالون فى الشرق. ثم يبدأ يهوذا أولا، يتبعه يساكر وزبولون (عدد اصحاح ٢) ثم يحمل بنو جرشوم ومرارى على عجلاتهم الستة أثقل أجزاء خيمة الاجتماع (عد ٧: ١- ٩). وبعدهم رأوبين يتبعه شمعون وجاد، ثم القهاتيون يحملون على أكتافهم أوانى الخدمة المقدسة، وأخيراً الأسباط الباقية فى قسمين رئيسيين، الأول بقيادة إفرايم، والثانى بقيادة دان.

الكل مرتبون ترتيبا جميلا. ومع أننا لا نستطيع أن ننسب النهضة العظيمة التى تمت وقتئذ إلى حكمة موسى ومقدرته، إلا أننا لا يمكن إلا أن نشعر بأنه كما أن الله فى معظم الحالات كان يودع تعاليمه فى عقول قادرة على استلامها وتسليمها، هكذا لابُد أن مواهب موسى العقلية لم تكن ضعيفة، إذ أنه استطاع أن يستلم ويحفظ ويسلم الشرائع التى جعلت اسرائيل شعبا عظيما. لكن بجانب هذه المواهب الممتازة كان لايزال هنالك قلب بشرى كشف عن ضعفه فى الاقتراح الذى قدمه إلى حوباب.

(١) اقتراح موسى:

أثناء إقامة بنى اسرائيل فى سيناء يرجح جدا أن وفودا من القبائل المجاورة زارتهم، وكان من بين هذه الوفود حوباب الذى كان رئيسا لقبيلة تتصل بموسى بصلة نسب قريبة. يقرر الكتاب أن حوباب هذا كان ابن رعوئيل المديانى حمى موسى (عدد ١٠: ٢٩). وطبيعى أنه كان يعرف تلك المنطقة معرفة جيدة، كان يعرف كل شبر فيها، كان يعرف مكان كل ينبوع فيها، وكل مراعيها، ويعرف أسهل طرقها وأقصرها وأكثرها أمنا. لهذا توسل إليه موسى أن يذهب معهم لكى ينتفعوا باختباراته. «لا تتركنا لأنها بما أنك تعرف منازلنا فى البرية تكون لنا كعيون» (عدد ١٠: ٣١).

واضح أن هذا الطلب كان أمرا طبيعيا. فقد كان موسى وحيدا كما قدمنا. وكان جميلا أن يرافقه واحد من أقربائه لكى يخفف عنه أثقاله وقت الشدة.

وفى نفس الوقت كان هذا الطلب لا يتفق مع عادة بنى اسرائيل العامة نحو عزلتهم عن جميع الشعوب لاسيما ، وقد كانت تلك العادة قد بدأت تشتد بقوة، رأى بلعام هذه الميزة الوطنية فأشار إليها بقوة فى نبوته إذ قال «هوذا شعب يسكن وحدة وبين الشعوب لا يُحسَب» (عد ٢٣: ٩). كان اليهودى يُحرْم تحريما قاطعا التزوج من الشعوب المجاورة. كان يلبس ثيابا خاصة، وكان يختلف عن كل الناس الآخرين فى كل شئ. كل ذلك لكى يحفظ الشعب من نجاسات الأرض التى كانت تقذف[١] سكانها الأصليين بسبب نجاساتهم (لا ١٨: ٢٥).

---

(١) «تتقيأ» حسب الترجمة الانكليزية.

وبالرغم من تسليمنا بأنه كان فى قلب الأمة حنين خاص نحو كل من كان يعطف عليها، حنين نحو راحاب وراعوث، نحو النَزَلاء الذين فى أبوابها (خر ٢٠: ١٠، تث ٥: ١٤)، نحو الأمم الذين قد ينجذبون فيما بعد بالنور الذى يشع من جبل صهيون، لكنه لم يكن متوقعا من ذلك القائد العظيم والمشرع العظيم أن ينحرف عن طريقه، ويوجه تلك الدعوة الكريمة لرئيس ميدانى. ولابُد أنه كان هنالك سبب قوى دعاه إلى توجيهها.

ألا نجد فيها تلك الغريزة الكامنة فى القلب البشرى، التى تنفر من كل طريق غريب مجهول. إن الذى دعا موسى لكى يطلب بتلهف من حوباب أن يرافقه هو أنه لم يكن قد سلك ذلك الطريق من قبل. عرض عليه هذا العرض كأجرة وهو: «ان ذهبت معنا فبنفس الاحسان الذى يُحسِن الرب إلينا نُحسِن نحن إليك» (عد ١٠: ٣٢).. ألا تخطر ببالنا أجمعين مثل هذه الخواطر تماما؟ إننا نجهل ما ينتظرنا فى الانحناء التالى من الطريق، أو فى نهاية الممر، ولا ندرى أى أعداء يكمنون لنا فى الطريق، أو الطوارئ التى قد تطرأ، أو العرا قيل التى قد تعرقل تقدمنا.. قد نكون سائرين لنقع فى وسط صفوف العدو، أو قد نكون سائرين لنتباعد عن وادٍ جميل غنى فى خضرته، أو سائرين فى اتجاه كمين لا مهرب منه ولا منفذ، ويتحتم علينا الرجوع، وكيف السبيل إلى فحص المكان فى الوقت المناسب، والاستعداد لملاقاة العدو؟ أليس جميلا أن يكون برفقتنا حوباب الذى يعرف المكان؟

إننا نبحث عن أمثال حوباب فى **نصيحة الحُكماء، أو المشيرين المتقدمين فى السن،** فى تكوين لجان قوية حكيمة غنية، فى التأمل بدقة فى السوابق. إن أى شىء آخر يبدو أفضل من الاعتماد ببساطة على مرشد غير منظور. نستطيع القول ـ من أحد الوجوه ـ أنه لا ضرر من هذا، فليس لنا الحق ولا المبرر لنقطع أنفسنا عن الآخرين، الذين لهم اختبارات خاصة عن أرض جديدة نفكر فى اجتيازها. أنه خطأ أن يعيش المرء بمعزل عن الناس، مفكرين وحدنا فى مشاكلنا، ومدبِّرين وحدنا كل أمورنا، على قدر ما نستطيع. إن الذين يفعلون هذا قد يصبحون مُتصلّبى الرأى، ملئين بالأوهام والغرور. فكثيراً ما يتكلم الله لنا عن طريق زملائنا. هم خدامه الينا للخير، ونحن نُحسِن صنعا إن كنا نُصغِى اليهم.

لكن هنالك أيضا خطر عظيم أن نضع الإنسان بدل الله، أن ننظر إلى الزجاج نفسه بدلا من التطلع إلى ما يعلنه لنا الزجاج، وأن نلتصق بحوباب بحيث لا ندع مجالا للتفكير فى (**الله) قائد ومُرشد نفوسنا الحقيقى**. عندما نعطيه المكان اللائق. فإنه يتمم وعده

القائل «وأعيد قضاتك كما فى الأول ومشيريك كما فى البداءة» (إش ١: ٢٦). لكن الشرط الجوهرى هو أن تكون العين بسيطة نحوه لكى يكون كل الجسد مُنيراً (مت ٦: ٢٢).

(٢) رفض حوباب والتعويض الذى دبره الله:

على أن هذا الرئيس لم يغوه قط العرض الذى عرضه عليه قريبه. لم يشأ أن يترك قبيلته، ومحلته، ويتنحَّى عن حريته، لكى يجعل نصيبه مرتبطا بذلك الشعب السيِّئ السلوك.

ولعله كانت هنالك أمامه بعض اعتبارات أخرى. لم يكن قد مضى سوى شهر واحد على تكريس هارون وبنيه للخدمة، ونزول نار الله على ذبائحهم. لقد رأى الشعب وهتفوا (لا ٩: ٢٤). لكن قبل المساء تحوَّل فرحهم فجأة إلى حزن.لقد ضرب الرب اثنين من الكهنة أبناء هارون فماتا (لا ١٠: ٢) بسبب نقض الطقس المقدس، أو لعله بسبب تصرف شخصى أخلاقى سيِّئ، أثناء انشغالهما بالخدمة (الأمر الذى يوحيه إلينا صدور الأمر فيما بعد بتحريم الخمر) (لا ١٠: ٨). وإذ ماتا صدر الأمر إلى هرون بعدم البكاء عليهما. ولابُد أن يكون هذا الحادث قد ملأ المحلة خوفا وذعرا.

وبعد ذلك بقليل حدث حادث آخر. لقد جدَّف على اسم الله القدوس ابن أمرأة اسرائيلية، وأبوه مصرى، وسب ولعن إذ تخاصم مع رجل من اسرائيل. فرجم هذا الذى جدف (لا ٢٤: ١٠- ٣٣). لابُد أن الحكم ظهر بأنه قاسٍ بالرغم من أن **الخطية اعتُبِرَت خيانة عُظمَى** لأن الله كان يعتبر بمثابة ملك لهم. لكن لابد أن الانتقام السريع المروع كان أحد العوامل التى جعلت حوباب يرفض مرافقة الجماعة.

كانت نتيجة كل هذا أن حوباب أجاب موسى بخشونة «لا أذهب بل إلى أرضى وعشيرتى أمضى» (ع ٣٠). لكن موسى استمر فى الالحاح والتوسُّل. ولا ندرى إن كان نجح لما كرر التوسل، ذلك لأن بنى القينى[١] حمى موسى ذُكِرُوا فيما بعد ضمن شعب الله المختار (قض ١: ١٦).

---

(١) أو «حوباب القينى» كما وردت فى الترجمة السبعينية، أو «يثرون القينى» كما وردت فى بعض النسخ.

لكن يبدو أن مساعدته لهم لم تكن لازمة بسبب الوعد الذى أُعطِىَ بعد ذلك مباشرة بامدادهم بالإرشاد اللازم. إلى تلك اللحظة كان موضع التابوت فى وسط الجماعة أمام إفرايم وبنيامين ومنسى، لكنه بعد ذلك كان يسير أمام الشعب «مسيرة ثلاثة أيام ليلتمس لهم منزلا» (ع ٣٣). وأننا لنتخيله سائرا إلى الأمام وحيدا، يحمله الكهنة واللاويون، ويرافقه جماعة قليلة من الأمراء والأبطال المحاربين وعلى الأخص موسى نفسه. وبعده بمسافة بضعة أميال تتبعه المحلة بضوضائها، صراخ الأطفال، ووقع أقدام الجنود المسلحين.

لكن أحدا من هؤلاء لم يكن يجرؤ على أن يقطع الصمت الرهيب الذى يلازم التابوت المتقدم إلى الأمام الذى كان يظلله الكروبيم. لاشك فى أن موسى كان يرافقه. فالكتاب ينقل إلينا الكلمات الرهيبة التى كان يعلن بها ارتحاله وحلوله (ع ٣٥ و٣٦). فى الحالة الأولى اذ كان يتطلع إلى الهواء الرقيق، الذى يبدو له مكتظا بالقوات المقاومة من البشر والشياطين، كان يصرخ قائلا: «قم يارب فلتتبدد أعداؤك ويهرب مبغضوك من أمامك». وفى الحالة الثانية كان يصرخ قائلا: «ارجع يارب إلى ربوات ألوف اسرائيل». وهكذا نرى أن الله نفسه قضى على اقتراح موسى، ودبر بدلا منه وسيلة تفى بحاجياتهم.

يالها من تعزية جزيلة نجدها هنا، فى ادراك الحقيقة الروحية التى تنطوى عليها هذه الرواية التاريخية. إننا جميعا يجب أن نتقدَّم إلى العمل الذى لا نعرفه من قبل ولا نعرف الطريق الذى نسلكه. على البعض أن يسيروا وحيدين. ويسير البعض حاملين ذكريات رفقائهم الذين كانوا يلازمونهم، يرونهم فى هذه الحياة. ويسير البعض يرافقهم أصدقاء أعزاء لكنهم يخشون الطريق ويخشون ما قد يأتى إليهم به اليوم. لكن يسوع معهم وسط كل هذه، ويتقدمهم، سواء فى وقت الحرب، أو وقت الراحة. أنه لا يتركهم ولا يهملهم. وإذ تمر الأيام تُعلمهَّم أن يُردُّدوا القول بمعنى متجدد دواما «لأنى عالم بمن آمنت» (٢تى ١: ١٢).

إن الرب يسوع هو تابوت العهد الحقيقى، الذى يسير أمامنا وسط العالم والموت، وسط القبر ووسط قوات الظلمة الأخيرة، إلى المجد، ليس علينا إلا أن نتبعه. وعليه هو أن يبدد أعداءنا، إذ نقف نحن ونصمت، وننظر خلاصه. عليه هو أن يختار موضع راحتنا إذ نضطجع نحن ونُعِدّ أنفسنا لطاعة جديدة.

يجب علينا أن لا نطلب إرشاد الله قبل الوقت، أو نملى عليه ارادتنا. «من آمن لا يهرب[1]» (إش ٢٨: ١٦). يجب أن يكون هنالك مسافة بينك وبين التابوت لكى ترى ـ على قدر ما تستطيع ـ ما يريدك الله أن تفعله. وبعد تأمل كثير وتفكير طويل وعزم أكيد اتبعه.. هو «يكون لنا كعيون» (ع ٣١).

ويالها من بَركَة عُظمى إذ نُدرك أن يسوع ليس بعيدا عنا «مسيرة ثلاثة أيام»، بل هو قريب بحيث يكون دواما بيننا وبين أعدائنا. فإنهم قبل أن يمدوا إلينا يد الإيذاء يجب أن يقفوا أمامه ليحاسبهم. وفيه أيضا الراحة، بحيث أننا تحت ظله نشتهى الجلوس[2]، موقنين أن كل الأشياء لابُد أن تعمل للخير، طالما كان هو الذى اختار لنا ميراثا.

✝ ✝ ✝

(١) أو «لا يستعجل» حسب هامش الكتاب وحسب الترجمة الانكليزية.

(٢) «تحت ظله اشتهيت أن أجلس» أو «تحت ظله جلست بسرور عظيم» حسب الترجمة الانكليزية.

الباب الثالث والعشرون

سُمُوٌّ فى النُبْل

«فقال له موسى هل تغار أنت لى؟ ياليت كل شعب الرب كانوا أنبياء»

(عد ١١: ٩٢).

لعل أخطار النجاح المستمر أشد وأقوى من أخطار التجربة المستمرة، هذا ما تؤكده رواية سهول «كابوا» حيث صار وهن القوى فى جيش «هانيبال» الحادث نتيجة الطقس المثبط للعزيمة أشد خطرا من جيوش روما الباسلة. وكثيرون ممن كانوا أقوياء ونشيطين فى أيام الشدة ضعفوا واستكانوا أمام تجارب واهية فى أيام الرخاء.

خليق بنا أنا نتساءل عما إذا كان المحك الأقسى للأخلاق هو الجو الصافى أمام الجو العاصف، أيام الرخاء أم أيام الشدة، وإن الرجل الحكيم الذى يرقب الطبيعة البشرية ليجيب بأن أيام الرخاء هى المحك الذى يظهر طبيعتنا بأجلى وضوح، فهذا هو المحك الأقسى. فعندما امتلك الابن الأصغر نصيبه من المال نزل إلى الدرك الأسفل، فوصل إلى رعاية الخنازير.

لقد ظل موسى نحو سنتين وهو ينعم بنجاح منقطع النظير. فبايمانه فى الإله الحى استطاع أن ينتصر على أعظم ملك فى زمانه، وأن يقود نحو ثلاثة ملايين شخصا فى البرية المقفرة دون امدادات محددة، وأن يبعث النظام فى جماعة غير منظمة، ويقدم إليها تشريعا مدنيا لا يزال موضوع اعجاب جميع المفكرين. كان هذا النجاح كفيلا بأن يخطف عقل أى شخص عادى.

ولو كنا قد رأينا فى موسى علامات الانتفاخ والكبرياء لما كان هذا أمرا مستغربا. لكن الحادثتين اللتين سوف نتأمل فيهما الآن يبينان كيف أنه وسط هذا النجاح المنقطع النظير ظل بسيطا بساطة كاملة، ومتواضعا تواضعا مطلقا.

الداد وميداد:

نظرا لضعف موسى عيَّن الرب سبعين زميلا ليحملوا معه ثقل مسئوليات الشعب. وقد قيل عنهم «فنزل الرب فى سحابة وأخذ من الروح الذى عليه وجعل على السبعين رجلا الشيوخ» (عد ١١: ٢٥).

أننى لا أوافق من يظنون بأن هذه العبارة تعنى أن الروح الذى على موسى قد نقص. فمن المستحيل أن يكون هنالك تقسيم فى الروح. لأنك لا تستطيع أن تأخذه من إنسان إلى إنسان آخر كما تأخذ المياه. إن روح الله الكامل كائن فى كل إنسان ينتظر حتى يملأه إلى أقصى ما يستطيع تَحمُّله. ولذلك فيبدو لى أنه لم يقصد بهذه العبارة سوى أن يؤكد الوحى أن هؤلاء السبعين «لبسوا» نفس القوة الروحية التى سبق أن حلت على موسى.

وإذ حل الروح على هؤلاء السبعين ظهرت القوة الروحية عندما تنبأوا فجأة، الأمر الذى يذكرنا بذلك اليوم الخالد الذى لم يكن تنبؤ السبعين سوى صورة مصغرة له عندما «امتلأ الجميع من الروح القدس، وابتدأوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا» (أع ٢: ٤). ألا يحق لنا القول أن دخول الروح بملئه فى قلب الإنسان يؤدى دواما إلى النُطق بالأفكار التى كانت تجاهد لتعبر عن نفسها كما تخبط أمواج البحر حاجزه لتبحث عن منفذ تتنفس منه؟

كانت قوة الكلام والتنبؤ وقتية فى ثمانية وستين «تنبأوا ولكنهم لم يزيدوا». هؤلاء يرمزون إلى الكثيرين الذين تحت مؤثر معين ـ كالذى دفع بشاول بين الأنبياء ـ ينطقون بكلمات معينة فجأة، ويقومون ببعض الأعمال، ويقطعون على أنفسهم عهوداً لا تتمم فيما بعد. على أن اثنين من هؤلاء السبعين المختارين ـ كانا قد بقيا فى المحلة لسبب ما ـ أحسا فجأة بحلول نفس القوة عليهما، وهما أيضا تنبأ، ويبدو أنهما استمرا فى التنبؤ. وللحال تقدم شاب إلى موسى ـ غيور على مجده ـ وحمل إليه النبأ الغريب «وقال: الداد وميداد يتنبآن فى المحلة». وإذ سمع يشوع هذا النبأ احتدمت غيرته هو أيضا وصرخ قائلا: «يا سيدى موسى أردعُهما»، فكان ذلك باعثا على الرد الخالد «هل تغار أنت لى، ياليت كل شعب الرب كانوا أنبياء إذ جعل الرب روحَه عليهم».

وكأنه قد قال: هل تظن أننى أنا هو الإناء الوحيد الذى يستطيع أن يسكب الله منه قوته؟ هل تتوهم بأن مصادر الله شحيحة بهذا المقدار حتى أنه إذا أعطى عن طريق غيرى يجب أن يحد مما يعطيه عن طريقى؟ إن أراد أن يخلق كواكب جديدة هل يجب عليه أن ينقص من نور الشمس لكى يقدم نورا لهذه الكواكب الجديدة؟ هل أبالى بارضاء عاطفة تافهة كحب الظهور، أنا الذى تفرست فى وجه الله؟ وعلاوة على هذا، فمن أنا، وما هو موقفى بين هذا الشعب بالمقارنة مع البركة التى يمكن أن يحصلوا عليها والمجد الذى يرجع إلى الله لو أنه فعل مع كل واحد منهم ما فعله معى؟

هذه هى روح العظمة والشهامة والنخوة الحقيقية. إن روح التشامخ هى التى تحاول أن تجعل نفسها المستودع الوحيد لبركات الله. ونتيجة هذه الروح هى أن النفس تخسر بركات الله ولا تعود تمر منها بركات جديدة للآخرين. ولكن عندما تكون العين بسيطة لا تبتغى إلا مجد الله، عندما ينظر إلى مركز الخدمة بأنه إنما هو هبة من الله يجب أن تستخدم لمجده، وعندما تتركز فى النفس الراغبة فى إتمام ارادته فقط، فإن مجد ذلك النور يطفئ نار الطمع. ثم **أن الخادم الأمين يعتبر نفسه بأنه لا شىء إن كان فى ذلك اتمام مقاصد الله.**

ليس هنالك محك أقدر من هذا فى فحص النفس: هل أنا متشوق بأن يأتى ملكوت الله عن طريق غيرى، كما يأتى عن طريقى؟ فى صلواتى الخاصة هل أستطيع أن أصلى بحرارة وبقوة من أجل نجاحى؟ هل أستطيع أن أرى - بثبات ورباطة جأش - غيرى ممن هم أصغر منى يتقدمون إلى الأمام، ويظهرون أنهم يمتلكون نفس المواهب التى كنت أحسبها وقَفَا علىَّ؟ هل أحس بشىء عندما أرى غيرى قد بدأوا ينافسوننى فى القيادة؟ هل أرتضى أن تتمم مشيئة الله عن طريق شخص آخر، أن كان أليَّق منى؟ قليلون منا هم الذين يستطيعون الاجابة على هذه الأسئلة بدون صعوبةً إن طُلِب منهم اتخاذ الموقف الذى وقفه موسى، حينما سَمِع بأن الداد وميداد كانا يتنبآن فى المحلة.

وإن كنا نعجز عن اتخاذ هذا الموقف ألسَّنا بذلك نكشف بأن خدمتنا المقدسة قد اختلطت ولازالت تختلط بالعوامل الجسدية؟ نعم، إننا لا نخدم إلا نفسنا، وخططنا وتدابيرنا. وإن انتزعنا من الخدمة المسيحية كل ما هو منبعث من تلك العوامل والمصادر، فإنه لا يتبَّقى منها سوى القليل جدا من الخدمات الخالية من كل الشوائب. آه، متى يأتى الوقت الذى

فيه نستطيع أن نُرَّدد القول «ياليت كل شعب الرب كانوا أنبياء»، ونتطلع بعين الشكر والفرح إلى مُساوَاة جميع المسيحيين لنا فى مواهبنا وكفاءاتنا؟

هذا لا يتم إلا إذا تعلمنا كيف نقضى الساعات الطويلة مع الله، وندخل مقادسه، ونعنى بمجده قبل أن نعنى بمجد أنفسنا، وبحصر كل تفكيرنا فى هذه الغاية الواحدة أن نراه مُمجَّداً فى قديسيه ومتعجبا منه فى جميع المؤمنين (٢تس ١: ١٠).

«غيرة بيتك أكلتنى». هكذا ارتضى كوكب الصباح ـ يوحنا المعمدان ـ الذى أخبر العيون المتعبة قبيل انتهاء الليل بأن الفجر اقترب ـ بأن يغرق فى بحر النور، ولو أنه هو نفسه لم يقل ضياؤه لأن كل جزء من الفضاء ينير مثله.

مريم:

أننا نذكرها إذ وقفت خلف إحدى الأشجار على شاطئ النهر ترقب مصير الرضيع الذى وُضِع فى سفط من البردى، وأُلقِىَ بين الحلفاء على حافة النهر. ثم نذكرها ونذكر بسالتها حين استقبلت شعبها الظافر، وقادت النساء فى التسبيح على شاطئ البحر الأحمر. أى شىء لم تكن مدينة لموسى به؟ لولاه لكانت حتما فتاة جارية مجهولة، كُتِبَ لها أن تكد وتعمل فى صناعة اللبن لفرعون، أو لبضعة عبيد. أما الآن فقد أصبحت حُرة، سيدة تمثل شعبا متحررا، وذلك عن طريق أخيها الذى أساءت إليه. آه، لقد كان أليما جدا أن تنقلب ـ فى سن التسعين ـ على ذلك الذى ربَّته وأحبَّته. وأن تُسمِّم عقل الأخ الأكبر الذى كان يده اليمنى والناطق بلسانه.

لقد تكلمت عنه هى وأخوها بسبب المرأة الكوشية التى تزوجها. يظن البعض أن موسى تزوج مرة أخرى. لكن الأرجح جدا أنه طالما لم يذكر شىء عن وفاة صفورة فالكلام ينطبق عليها، لاسيما وأنها على الأرجح كان يختلط بدمها دم غريب. فكلمة «كوشى» معناها أسود أو أسمر. لقد انضمت هذه المرأة الكوشية إلى المحلة حديثا، ولعل مريم كانت ترقبها بدقة بعض الوقت، فنتج عن هذا أنها أحست بشىء من الغيرة والحسد، إذ تنازلت عن مركز رئاستها لإمرأة كهذه. إنه من العسير دائما علينا أن نرى غيرنا يحتل المركز الذى نعتقد أنه ملك لنا، لاسيما إن كنا نشعر أن فى قدرتنا إتمام واجباتنا بكيفية أفضل.

إننا نتخيَّلها تتحدث مع هرون ومع صديقاتها عن هؤلاء الكوشيين حتى أثارت حفظيتهم ضدهم. كان هذا لا يليق بها، وبالأولى كان لا يليق بهرون الذى احتل مركزا ممتازا فى المحلة. كانت وظيفة موسى وقتية تنتهى بانتهاء حياته، أما وظيفة هرون فكانت دائمة له ولنسله. ومع ذلك كان هرون يُحِّس بأن الهوة التى بينه وبين أخيه شاسعة جدا. ونشأ من هذا أن قلبه امتلأ بروح الغيرة التى كشفها هجومه وهجوم مريم على موسى بسبب صفورة، «فقالا ألَم يُكلّم الرب موسى وحده؟ ألم يكلمنا نحن أيضاً؟» (عدد ١٢: ٢). **من اليسير جدا إخفاء روح الغيرة والحسد تحت ستار الغيرة على شريعة الله، ومن اليسير أن نظن بأننا معصومون عند انتقاد أخطاء الآخرين.**

وكيف تصرَّف موسى، ذاك الذى منذ بضع سنوات قتل مصريا بضربة واحدة من يده؟ هل سكب جامات غضبه مؤكدا لنفسه بأنه له الحق أن يغضب؟ هل طردهما من الخيمة وأمرّهما بأن لا يتدَّخلا فى شئون غيرهما؟ هل طلب من الله أن ينتقم منهما بغضبه؟ لا شىء من هذا قط. لم يُجِب بكلمة واحدة لأن «الرجل موسى كان حليما جدا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض» (عد ١٢: ٣). وفى صبره هذا يُذكِرّنا بالمسيح الذى «إذ شُتم لم يكن يَشتِم عِوضاً» (١بط ٢: ٢٣).

أكان هذا ضعفا منه كما قد يتوّهم البعض؟ كلا. فقد كان هذا إظهاراً للقوة الروحية الفائقة. لم يكن ممكنا أن يفعل هذا سوى شمشون قبل أن يحلق شعره. إن الرجل **الضعيف هو الذى يقابل الإساءة بالإساءة، الذى ينتقم لكى يسكن غضبه**، الذى لا يستطيع أن يكبح جماح غضبه. أما القوى فهو وحده الذى يستطيع أن يبقى صامتا وقت الغضب، أن يكبح جماح غضبه، ويُحوَّل نار الغضب المحتدمة فى داخله إلى نار محبة فائقة.

وخليق بنا أن نختم هذه التأملات ببعض قواعد، تُعيننا فى الحصول على هذا «الروح الوديع الهادئ الذى هو قُدَّام الله كثير الثمن» (١بط ٣: ٤). فما أعظم الإتضاع!!

١- لنُطالِب بوداعة المسيح:

لم يكن هذا بطبيعة الحال أمراً ممكنا لموسى بطريقة مباشرة، كما هو ممكن لنا الآن. ومع ذلك فلاشك فى أنه هو أيضاً كان بصفة مستمرة يلجأ إلى النعمة السماوية. اتضاع المسيح لم يمنعه من أن يقدم نفسه لنا كمثال للوداعة: «تعلموا منى فإنى وديع ومتواضع

القلب» كانت الحمامة التى استقرت فوق رأسه، والحَمَل الذى طالما شُبِّه به، خير ما يمثل وداعة قلبه. وفى لحظات الغضب ليس أفضل من أن نلجأ إليه، ونطالب بوداعته وصمته الجميل وصبره وهدوئه، قائلين: «إننا نطالب بكل هذه ياربنا من أجل حاجة نفوسنا المُرَّة».

٢- لنُدَّرِب أنفسنا على عادة الصمت:

عبر عن الفكرة تعطها قوة واستدامة، اكتبها تذبل وتموت. كان الرسول يعقوب حكيما عندما شدد التعليم على كيفية استعمال اللسان، مُشبهاً اياه بدفة الجسم كله ولجامه. لأن طريقة استعماله تحدد ـ فى الحال ـ عما إذا كان القلب ممتلئا شرا أو سلاما. كثيرا ما تسمع بأن أفضل طريقة للتخلص من عاطفة مُلِحَّة هى أن تُخرّجها وتستريح منها. لكن هذه سياسة خاطئة. فإخراجها عن طريق اللسان يعطيها قوة، ويزرع محصولا آخر سرعان ما يثمر ثمرا آخر. لكن الصمت يقتلها، كما يقتل الثلج السمك إن لم يجد منفذا يتنفس منه.

تعلم كيف تصمت، كيف تغلق باب فمك. كيف تجيب عندما تكون الاجابة مطلوبة، وكيف تعطى تفسيرا عندما يكون لازما لتصحيح خطأ فى الفهم. لكن، فى أغلب الأحيان، تمثّل بداود الذى كانت نصرته التى أحرزها بإجابته الهادئة على إهانة أخيه الأكبر له إعداداً لنصرته على جليات. «ليكن كل انسان مسرعا فى الاستماع مُبطِئاً فى التكلم مُبطئاً فى الغضب» (يع ١: ١٩).

٣- تأمل فى الضرر الذى يسببه لأنفسهم المُعتَدُّون بأنفسِهم:

لقد «ارتفعت السحابة عن الخيمة» كأنها يجب أن تغادر نفس المكان الذى وقف فيه المذنبان، «وإذا مريم برصاء كالثلج» (ع ١٠). وهنا نجد تعليما عميقا: **أنك لا يمكن أن تقول كلمة شريرة أو مُرَّة ضد غيرك، دون أن تُسىء إليه. أن اللعنة ترجع إلى الوراء إلى المكان الذى بدأت منه.** أما الشخص المُسَاء إليه. فإنه يستطيع أن ينسى ألمه عندما يسكب نفسه فى صلاة وعطف من أجل الذين إذ أساءوا إليه بكلماتهم القاسية قد أصيبت أجسادهم بالبرص.

٤- لنترك الأمر لله لكى يظهر براءتنا:

لقد ترك موسى الأمر لله لكى يظهر براءته. وعندئذ وجد أن الله القدير «ركب على كروب وطار، ورئى على أجنحة الريح» (٢ صم ٢٢: ١١). لقد سمع الرب كل ما قيل، وتكلم فجأة إلى الثلاثة، وأخبرهم بأنه إن كان يتكلم مع آخرين بالرؤى والأحلام فإنه يتكلم مع موسى وحده «فما إلى فم وعيانا» وجها لوجه، ثم قال لهرون ومريم «فلماذا لا تخشيان أن تتكلما على عبدى موسى؟» (عدد ١٢: ٨). هذا هو سر الراحة: أن ندرب أنفسنا على عادة تسليم كل شىء لله، كما فعل حزقيا عندما بسط رسالة سنحاريب فى بيت الرب.

سلم نفسك لمن يقضى بعدل (١بط ٢: ٢٣)، واثقا تماما بأنه سوف يظهر براءتك ويظهر مثل النور برك وحقك مثل الظهيرة (مز ٣٧: ٦).

٥- ثم يجب أن نصلى من أجل الآخرين:

«فصرخ موسى إلى الرب قائلا اللهم اشفها» (ع ١٣). عندما نصلى من أجل من يسيئون إلينا ويضطهدوننا فإن النفس تهدأ وترق سريعا. قد نبدأها كواجب، اطاعة للوصية، لكننا سرعان ما نتبين أنها ـ كالثلج على الرأس المحمومة ـ ترطب النفس وتطيب خاطرها. لا تنتظر حتى تحس بإيحاء داخلى، بل صل اطاعة لما يطلبه الله، وإذ تصلى فى حضرة الله، فى الخفاء حيث يوجد الله، تجد أن الأفكار غير اللائقة قد اختفت وغاصت فى عمق البحر كما يرسب الطمى فى قاع النهر ويترك المياه صافية رائقة.

وسمع الرب صلاة عبده وشفى مريم، لكن الشعب كله تعطل اسبوعا بسبب خطيتها. قد تغفر لنا خطايانا، **لكنها دواما تسبب نكبات وتعطيلا.** ولا نستطيع نحن أو الآخرون أن يكونوا حيث كان ينبغى أن نكون لو لم نخطئ.



الباب الرابع والعشرون

فشل مرير

«إنصرفوا غداً وارتحلوا الى القفر فى طريق بحر سوف»
(خر١٤:٢٥)

كانت رحلة شاقة من قبروت هتأوة الى حضيروت (عد ١١:٣٥)، ومن حضيروت الى قادش (عد ١٢:١٦،١٣:٢٦) ولعل هذا الطريق كان أشق الطرق كلها. وقد تحدث عنه موسى فيما بعد ووصفه «بأنه القفر العظيم المخوف» (تث ١:١٩). لكن الشعب وصل أخيراً الى حدود قادش برنيع، فى حدود أرض الموعد وكانوا يرون الجبال المنخفضة فى الأرض الخضراء التى تقع عليها عين المسافر أولاً إذ يترك البرية الجرداء.

كيف رحبوا بهذا المنظر البهيج، بعد رحلة قطعوا فيها أربعمائة ميل، وقضوا فيها خمسة عشر شهراً. لقد فرحوا به كما فرح كولمبوس اذ رأى شاطىء أمريكا من بعيد، أو كما يفرح السائح إذ يرى بيته المتواضع من بعيد لدى عودته، ولعل موسى كان أكثر منْ فَرِح به.

(١) آماله :

الى ذلك الوقت كان الله برحمته قد أخفى عنه الرحلات المتعبة المقبلة التى كانت ستستغرق أربعين سنة. لم تكن لديه أقل فكرة عنها. ولم تدخل فى حسابه. ومن لهجة كلامه مع الشعب يتضح أنه كان يتوقع نضالاً قصير الأمد - وإن كان نضالاً عنيفاً - قبل أن يمتلكوا أرض الموعد. لم يخطر بباله قط أن هناك شخصاً آخر غيره يستطيع أن يدبر الموقعة الحربية، حتى ولو قادها يشوع، أو أن هنالك يداً أخرى غير يده تستطيع أن تُملّك الشعب الأرض، التى طال انتظارهم لها. هذه هى الكلمات التى كلَّم بها الشعب إذ حطوا

رحالهم على مقربة من أرض كنعان «قد جئتم إلى جبل الأموريين الذى أعطانا الرب الهنا. انظر. قد جعل الرب الهك الأرض أمامك. اصعد تملَّك كما كلَّمك الرب إله آبائك. لا تخف ولا ترتعب» (تث ١:٢٠ و ٢١).

وحين فاه بهذه الكلمات ألم يتنفس الصُعدَاء، ويشعر بشئ من الراحة إذ أدرك أن مهمته قاربت على الانتهاء، وأنه أوشك أن يستريح من أعباء مسئولياته الثقيلة؟ كان لابُد أن يتمجد الله رغم محاولات الشعب، لاطفاء بهاء ذلك المجد. يجب أن يسمع المصريون وكل الشعوب المجاورة ويقتنعوا. أما بخصوصه هو، فقد كان يعتقد إن هنالك يقيناً سنوات سعيدة قليلة تنتظره يستريح فيها من أعبائه الطويلة. آه أيتها الأرض السعيدة، التى تحدَّث الله عنها، لابُد أنه يوجد فيكِ ركن هادئ أَجلس فيه لأستريح، وأتأمل في خدماتى التى أتممها.

منْ ذا الذى يشُك أن مثل هذه الآمال والأفكار ملأت نفسه، وهمست فى أذنه هذه الكلمة الحلوة العميقة «راحة»؟ لم يعودوا في حاجة الى جمع المن كل يوم، لأن هذه هى أرض الحنطة والشعير التى فيها يأكلون خبزاً بدون عوز. لم يعودوا بعد يروون عطشهم بالماء الساخن الذى يجرى فوق رمال الصحراء. ففى الأرض العتيدة كروم وتين ورمان، وهى أرض سواقى ماء، وينابيع تنبع من الأودية والجبال. لم يعودوا بعد يقيمون الخيام، ويخصصون الحُرَّاس، ويتنقلون بصفة مستمرة، لأن كل إنسان سوف يجلس تحت كرمته وتينته. كان يأمل أنه بعد أن يقضى بضع سنوات هكذا، يستطيع أن يطلب بأن ينطلق بسلام ويعود الى وطنه السماوى، من كنعان الأرضية.

ألا يُصوَّر كل منا لنفسه صورة جميلة مثل هذه عن أرض مشرقة صافية الجو تحنو عليها السماء بابتسامتها؟ إن الحياة شاقة الآن، هى رحلة في برية ناشفة مقفرة وعرة المسالك. هى نضال عنيف. هى حمل أثقال ليست لدينا الا قوة ضئيلة لحملها. لكن لا بأس من كل هذا، فإنها لا يمكن أن تدوم. لابُد أن تكون هناك راحة. والطريق الطويل لابُد له نهاية. وطريق البرية لابُد أن ينتهى عند كنعان. وأن حرماننا بعض الوقت من

عطف الأحبَّاء سوف يُنسَّى عندما نجد المحبة تعانقنا فتنسينا الذكريات الأليمة الماضية اذ نستيقظ كما من حلم قصير مزعج.

لكن هب أن هذا لا يحصل. ماذا لو أن ذاك الذى يحبنا، أكثر مما نحب نحن أنفسنا، قد رسم لنا طريقنا في البرية يؤدى إلى الجبل الذى منه نصعد الى وطننا السماوى؟ ماذا لو أنه تحتم علينا أن نُحارِب موآب، ونلتقى ببلعام، ونرى أن كل واحد ممن بدأوا الحياة معنا قد بدأ يذوى من حولنا؟ ماذا لو أننا اضطجَّعنا لنموت وحيدين، تحت ابتسامة على جبل الفسجة، دون أن يكون حولنا أحد من الأولاد أو أى شخص من المحبين؟ قد يحصل كل هذا. وإن حصل فكيف نتصرَّف؟ هذا ما حصل لموسى تماماً.

(٢) من أين أتى له الفشل؟ :

لقد أتى كله من الشعب.

١- كانت غلطتهم الأولى أنهم أرادوا أن يتجسسوا الأرض. صحيح أنه قيل فى هذه الاصحاحات «ثم كلم الرب موسى قائلاً أرسل رجالاً ليتجسسوا أرض كنعان» (عد ١٣:١ و ٢) لكن الاقتراح لم يصدر من الرب. لقد كان له مصدر آخر، كشف عنه موسى نفسه بعد أربعين سنة فى كلمات وردت بعد الكلمات السابقة «فتقدمتم الىَّ جميعكم وقلتم دعنا نرسل رجالاً قدامنا ليتجسسُّوا لنا الأرض، ويردوا لنا خبراً» (تث ١:٢٢).

لقد أعطاهم الله ما طلبوه، كما حدث أيام شاول ملك إسرائيل، لكن اصرارهم على رأيهم كان خطأً جسيماً. ألم يعدهم الله بأن يعطيهم الأرض؟ فلماذا لم يثقوا فى اختياره؟ ألم تكن عينه عليهم من أول السنة إلي آخرها؟ فما الداعى لرغبتهم في تجسسها؟ أين وعده لهم بإعطائها لهم؟ ما الداعى لتلْهُفِّهم علي أن يروا ان كانوا يستطيعون الوقوف أمام سكانها؟ لم يكن عليهم إلا أن يصعدوا ويمتلكوا ما أعطاهم الله، كما قال لهم موسى.

٢- وكانت غلطتهم الثانية قبول التقرير المثبط للعزيمة الذي قدمته أغلبية الجواسيس. كان هنالك اتفاق كامل بينهم الى حد محدود «قد ذهبنا الى الأرض التى أُرسِلّتنا اليها وحقاً

أنها تفيض لبناً وعسلاً وهذا ثمرها» (عدد ١٣:٢٧). وبعد ذلك قال العشرة «الشعب الساكن في الأرض مُعتز والمدن حصينة، عظيمة جداً. وأيضاً قد رأينا بنى عناق هناك.. لا نقدر أن نصعد الى الشعب لأنهم أشد منا» (ع ٢٨و ٣١). أما كالب ويشوع، اللذان طالما تردَّد إسماهما وحدهما على ألسنتنا، فأجابا «إن سُرَّ بنا الرب، يُدخِّلنا الي هذه الأرض ويعطينا إياها» (ص ١٤:٨).

والفرق بين الجماعتين هو هذا: أن العشرة تطلعوا الى الله عن طريق الصعوبات، كما نتطلع الى الشمس عن طريق تلسكوب معكوس، فتبدو بعيدة، ويبدو مجدها متضائلاً، أما الاثنان فقد تطلعا الى الصعوبات عن طريق الله. فانحاز الشعب الى رأى العشرة، وانحرفوا عن فِكْر الله، **وفكروا طويلاً في الصعوبات التى تكتنف امتلاكهم الأرض.**

وهنا نجد غلطة شنيعة جداً. إن عدم الايمان لا يمكن أن يتخطَّى الصعوبات ـ المدن، الأسوار، العمالقة. انه يتخيّلها أمامه بصفة دائمة، ويفكر فيها، ويُقيمها فى طريق تقدُّمه.

أما الإيمان، فمع أنه لا يُقلل من شأن الصعوبات، لكنه يتطلَّع دائماً إليها بثباتٍ، ويتحوَّل عنها، ويتطلع الى وجه الله، ويتكل عليه. هذا ما لم يفعله الشعب. ومن أجل هذا حرموا من دخول كنعان. «وقال الرب لموسى حتي متي يُهينَنى الشعب؟ وحتى متى لا يُصدّقوننَى؟» لا يؤمنون بى) (ص ١٤:١١). «**فنرى إنهم لم يقدروا أن يدخلوا لعدم الايمان**» (عب٣:١٩).

لاحظ بأنهم لم يحرموا من كنعان بسبب قبور الشهوة، **بل بسبب عدم الايمان.** أيها الآخ الحبيب لا تجلس بجوار قبر الشهوة، ظانا أنه هو الذى سيحدد مصيرك. كلا، فالله لن يربطك بالقبر الى الأبد. إن أمامك قيامة من موت الخطية، وحياة جديدة مُعدّة لك. لك أنت بالذات. قم فى نور غفرانه، وامشِ فى طول الأرض وعرضها لتمتلكها. واعلم هذا أن الشئ الوحيد الذى يحرمك منها هو عدم الايمان بالغفران وبالنعمة وبالرحمة، التي هى مثل قبة السماء الزرقاء فوق رأسك، أو مثل عظمة الأبدية نفسها.

٣- وكانت غلطتهم الثالثة تذمرهم الذى بعثهم على أن يفكروا فى استبدال قائدهم المُحنَّك، المرسل من الله، بقائدٍ آخر. «فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت وبكى الشعب تلك الليلة. وتذمر علي موسى وعلى هرون جميع بنى إسرائيل. وقال لهما كل الجماعة «ليتنا مُتّنا فى أرض مصر.. فقال بعضهم لبعض نقيم رئيساً ونرجع الى أرض مصر» (ص١٤:١-٤).

٤- لعل هذه كانت أصعب ساعة فى حياة موسى: كانوا قد سبقوا فاقترحوا انتخاب رئيس لما كان غائباً عنهم، أما الآن فكان اقتراحهم فى مواجهته. أن الشعب الذين أحبَّهم محبة فائقة، الذين كانوا يدينون بحياتهم لتضرُّعِه على الجبل. اذ كانوا على حافة الهلاك، نسوا كل ما عمل، وفكروا فى التخلُّص من قيادته، وان لم يشأ الذهاب معهم تحت قيادة قائدهم الجديد تركوه لأوهامه. فسقط موسى على وجهه «أمام كل معشر جماعة بنى اسرائيل» (ع٥). ياللحزن العميق الذى مزَّق قلبه، ليس فقط لأنه سيُنحَّى عن مهمته، بل لأن غضب الله سوف يحل على الشعب الذين أحبهم.

٥- واذ اضطجع هناك ألم يُخيّل اليه أيضاً في تلك اللحظات المظلمة أن آماله قد بدَّدتها الرياح؟ ولعل هذا كان اختبار كل واحد منا، لا مرة واحدة، ولا اثنتين، بل أكثر. لقد كنا على حافة تحقيق آمال طال انتظارها. لم يكن باقياً سوى يوم واحد على نهاية الرحلة. لقد لمست أيدينا حدود أرض الموعد، وقُطِفت أول ثمارها، وارتشفت أفواهنا عصير كرومها. يالها من فرحة، ياللثمار التي جنيناها بسبب طول الانتظار، ياللبركات السماوية. وبغتةً يظهر واحد أو إثنان ممن ارتبطنا بهم، لكن تدريبهما لم يكتمل. إنهما لا يستطيعان الذهاب الي الأرض الصالحة. ولأنهما لا يستطيعان، فقد يعطلاننا نحن أيضاً. ونحن إذ نقف هناك يأتى الصوت قائلا «انصرفوا غداً وعودوا الى طريق بحر سوف» (ص١٤:٢٥).

(٣) رفضه الحل الذى عُرِض عليه لتجنب الفشل :

كان ممكنا أن يتحقق فى ذلك الوقت حلم موسى الخاص بسرعة دخولهم الأرض. لو أن كل الشعب هلكوا، وأُنقِذَ هو وحده، ليمثل دور إبراهيم، ويكون مؤسساً لأمة جديدة ولأمكنه وقتئذٍ أن يدخل الارض الصالحة ويستقر فيها كإبراهيم. وهكذا أتته التجربة.

أن الشيطان يُجربْنا ليُظهِر ما فينا من شر، والله يُجرّبنا ليظهر مافينا من برّ. وهكذا إذ كان الله يعرف نبل خادمه الأمين الكامن فيه، ويريد أن يعلنه لكل العالم، عرض عليه اقتراحاً أن يضرب الشعب بالوباء، ويحرمهم من وراثة الأرض، ويجعل منه أمة أكبر وأعظم منهم.

وعندئذ قال روح محبة الذات: «اقبل هذا الاقتراح، لقد لقيت منهم متاعب جمة، هذا الاقتراح انما يعجل مصير آثامهم المحتوم. وفضلا عن هذا، فكَّر فى الراحة التى سوف تدخلها، والشُهرَة التى سوف تحصل عليها، في كل الأجيال القادمة».

أما روح النُبل فقال له: «حاشا، وماذا يحصل لاسم الرب؟ وكيف أحتمل أن أرى شعبى يهلك»؟.

فى كل الكتاب المقدس لا نجد فقرات كثيرة أسمَّى من هذه الفقرات التى بها رفض موسى الاقتراح الذى عُرِضَ عليه «إن قتلت هذا الشعب كرجل واحد يتكلم الشعوب الذين سمعوا بخبرك قائلين: لأن الرب لم يقدِر أن يُدخِل هذا الشعب الى الأرض التى حلف لهم قتلهم فى القفر» (ع ١٥، ١٦).

واذ ردَّد الكلمات التى تكلم بها الله الى ـ قلبه فى تلك المناسبة الخالدة عند نزوله من الجبل ـ توسَّل إليه أن يصفح عن الشعب كعظمة نعمته كما كان يفعل منذ خروجهم من أرض مصر الى ههنا (ع ١٧-١٩).

وبعبارة أخرى، أن موسى رفض الراحة التى طال انتظاره لها على حساب مجد الله، أو على حساب الشعب الذين ارتبطت حياته بهم، **بالرغم من إساءاتهم البالغة إليه.** وهكذا نراه يتحوَّل عن الباب المفتوح فى الفردوس، ومرة أخرى يُفضّل أن يُذل مع الشعب، فى آلامهم على أن يتمتع بمسرات كنعان وحده.

لنتأمل جيداً فى هذا الدرس: عندما تكون هنالك أمور بهيجة فى متناول أيدينا لكننا نرى أن تحوَّلنا عنها يؤوّل الى مجد الله وخير الآخرين، فلنطلب نعمة لكى نتخذ طريق البرية الوعر، ولو أدى الى حياة عنيفة أربعين سنة، والى الموت على جبل الفسجة.

(٤) موقف الشعب المناقض لموقف موسى:

لم يُذّكر إلا القليل عن صبر واحتمال موسى. لقد بقى صامتاً، ولم يفتح فمه. لقد واري وجهه حتى عن الخبر، لأن الرب فعل. لكن تصرفات الشعب دفعته الي الملجأ الحصين.

عندما علموا أنهم يجب أن يتغرَّبوا فى البرية أربعين سنة هائمين فيها على وجوههم حتي تسقط جثثهم فى القفر، وتُدفّن في الرمال «بكروا صباحاً وصعدوا الى رأس الجبل قائلين: هوذا نحن نصعد الي الموضع الذي قال الرب عنه... وأما تابوت عهد الرب وموسى فلم يبرحا من وسط المحلة» (ع ٤٠ و ٤٤). لقد حاولوا أن يُغيُّروا - بالعنف والقوة - الحُكم الصادر ضدهم تواً. أما موسى فقد أحنى رأسه أمام هذا، وقبل هذا التأديب، أى التغرُّب فى البرية هذه المدة الطويلة.

ألا تأتى أوقات كهذه فى حياتنا؟ لقد وصلنا الى حافة فرصة عظيمة، وكانت المكافأة فى متناول أيدينا. لكن أمراً مفاجئاً حدث فأصبحنا غير قادرين أو غير مؤهلين لامتلاكها. فأعادنا الله الى الوراء. وقال «لستُم بعد مُؤهَّلين للتمتُع بالبَرَكة. يجب أن تعودوا الى عملكم العادى، وتؤدوا مهمتكم اليومية، وتكدوا وتعملوا. دربوا أنفسكم فى الأعمال المُضنيَّة المثيرة للغضب، وفي الأعمال التافهة التى لا تستحق أن تُدوَّن فى بطون التاريخ. وبعد فترة أرجعوا وقفوا أمام هذه الأبواب ثانيةً فتدخلونها.

لكننا لا نخضع، ونقول «بل نصعد». ونثير حولنا العاصفة. ولا نقبل أى اعتراض. وهذا موقف أسيف وغير مُجدٍ. فإننا لا نستطيع الدخول بالقوة. خير لك ألف مرة أن تنتظر بوداعة خارج الباب، تتعلم درس الصبر والايمان، وبعد قليل تقف هناك ثانية، فتجد أن الباب قد فُتِحَ أمامك، لأن روحك قد تطهَّرت وسمَت.

(٥) عزاء لموسى فى فشله :

لكن كانت هنالك ينابيع استطاع موسى المُجهَد أن يروى عطشه منها، هى الشعور بأنه قد تمم إرادة الله، البركة التى تحمَّلها دواماً، روح أنكار الذات، الفرح بأن يرى نتائج

تأديب الله الذى أدى الى ازدياد شعبه قوة، قبول نعمة يومية لمواجهة الحاجات اليومية. كانت هذه كلها فى متناول يده.

وأفضل من هذه كلها كانت هنالك الثقة المتزايدة بأن الراحة الحقيقية التى يحلم بها **لا توجد فى كنعان الأرضية، مهما كانت مُغرَّية، بل هى راحة القلب، راحة النفس، راحة طبيعة الانسان فى الله. هذه وحدها هى الراحة الدائمة الراحة المريحة، وسط كل حالات العالم المتغيرة الزائلة.**

وهكذا كثيراً ما يسمح الله بأن يُحطِم آمالنا الأرضية الجميلة المحبوبة، لكى تبحث نفوسنا ـ بعد أن تكون قد تحطَّمت ـ عن السماويات، التى لا يأكلها سوس التغيُّر والفناء والزوال، ولا يُبلّيها صدأ الزمان «هوذا كل هذه يفعلها الله بالإنسان» (أى ٣٣:٢٩).



الباب الخامس والعشرون

أمين وقت التوبيخ

«اللهم هل يخطئ رجل واحد
فتسخط على كل الجماعة»؟
(عد ١٦:٢٢)

قليلون هم الذين عانوا الأمرَّين من جحود زملائهم كموسى. هنا نجد أن العاصفة قد هبت مرة أخرى. وفى هذه المرة هبَّت بسبب مؤامرة مُرَّوعة قام بها قورح، واشترك معه فيها مائتان وخمسون من رؤساء الجماعة ذوو إسم، ذائعو الصيت (عد ١٦:١و٢). وكانت هجماتهم مُوَّجهة نحو المركز الممتاز الذى احتله موسى، والسُلطة التى كان يمارسها. وأن الثورة لتَقدِم دروساً ثمينة لخُدّام الله عن الطريقة التي يجب أن يتأملوا بها فى المراكز التى يحتلونها فى كنيسته.

فى تاريخ كل خُدَّام الله تمر أزمات عندما يُتهمُون باتهامات باطلة، ويُقابَلُون بعواطف جامدة، حتى ممن يدينون بحياتهم الروحية لصلواتهم ودموعهم. يبدأ التمرد بالغيرة والحسد، بسبب تزايد القادة فى العظمة، ثم ينتهى بالعصيان، ورفض أى توجيه أو أمر يصدُر منهم. ثم هو ينشأ أيضاً بسبب نفور الجسد من المطالب الروحية السامية التى لا تتفق مطلقاً مع تشوّقها لَلَبن والعسل، والحقول والكروم. إن مثل هذا التمرُّد يبدأ بنفس واحدة متذمرة منغمسة فى ملذات الجسد، لكنه سرعان ما ينتشر كالنار في الهشيم. هنالك أشخاص كثيرون ضعفاء مستعدون أن يكونوا تابعين لا متبوعين، مستعدون أن يتبعوا غيرهم فى ـ أية محاولة ـ لهدم أى خادم من خُدَّام الله البارزين. وفى بعض الأحيان لا تكون حُجتهم أفضل من حجة ذلك المرء الذى أعطى صوته لإبعاد «ارستيدس» لا لسبب آخر سوى أنه تعب من أن يسمع أنه يدعى «البار».

فى مثل هذه الأوقات يحسُن بنا أن نتأمل فى هذا الاصحاح الذى يتحدث عن المأساة فى

تاريخ بنى إسرائيل. ونتعلَّم كيف يجب أن يتصرَّف البشر فى بيت الله، الذى هو كنيسة الله الحى، عمود الحق وقاعدته.

(١) ثق بأن مركزك هو الذى رَسَمه لك الله:

ادعى قورح وجماعته أن موسى وهرون انتحلا لنفسيهما المركزين اللذين احتلاهما، الأول كملك فى يشورون، حين اجتمع رؤساء الشعب (تث ٣٣:٥)، والثانى ككاهن هو وبنوه. لماذا تكون هاتان الوظيفتان وقفا على هذين الأخوين؟ ألا يوجد هنالك أشخاص كثيرون مثلهما؟ أليست كل الجماعة بأسرها مقدسة؟ أليس الرب فى وسط كل الجماعة مثلهما (عد ١٦:٣)؟ كانت هذه مؤامرة من الرؤساء ضد القائد والرئيس، ومن اللاويين ضد أسرة الكهنة.

وللحال سقط موسى على وجهه أمام الله. وكان هذا هو موقفه دواما عند هبوب الثورات والعواصف عليه من الشعب، عواصف الحقد والتذمر، كما تحنى الأسلة رأسها أمام العاصفة (إش ٥٨:٢). على أنه لم يبذل أى جهد لكى يعزز مركزه أو مركز هرون. كان ممكنا أن يذكر خدماته السابقة التى كانت تُبرِّره فى اعتراف الشعب بجميله والولاء له. كان ممكنا أن يُذكرَّهم بأن وجودهم كأمة يُعزَّى ـ بعد الله ـ لإيمانه وصلواته ودموعه وتوسلاته من أجلهم. لكنه لزم الصمت، وسلم كل الأمر لله، مُلقياً عليه كل المسئولية.

(أولاً): ذكَّر الساخطين المتذمرين بأن الله العلى هو الذى حدّد مركزهم. وأن إله اسرائيل قد أفرزهم من جماعة إسرائيل، ليقُرّبهم اليه، لكى يعملوا خدمة مسكن الرب، ويقفوا قدام الجماعة لخدماتها (ع ٨ و ٩). كان واضحاً انه هو الذى قربهم اليه هم وكل بنى لاوي. إذن فلم يكن هنالك مبرر للغيرة والحسد. لم تكن مراكز السلطة والنفوذ فى اسرائيل توهب جُزَافا أو بالقرعة، حيث تصيب القرعة أشخاصاً وتحرم الآخرين. بل كانت المراكز مخصصة لأشخاص معينين، وكان أشخاص معينون مخصصين لتلك المراكز، **وذلك بتعيين واضح من الله.** وكان يجب أن هؤلاء الأشخاص المعينين يعترفون بأن هنالك أيضاً تعييناً واضحاً من الله فيما يختص بهرون وموسى.

(ثانياً): ونتيجة لهذه الفكرة، التى أوضح بها حقيقة الأمر، بيَّن أن ثورة الغضب هذه موجهة فى الواقع الى الله نفسه «إذن أنت وكل جماعتك متفقون علي الرب. وأما هرون فما هو حتى تتذمروا عليه»؟ (ع ١١). عندما ينقلب الناس ضدنا فإننا نميل الى هجر مراكزنا وخدماتنا فى فزع لا مبرر له، أو الى الصُلح معهم، أو الى إطلاق العنان لأنفسنا فى الغضب. هذه كلها أخطاء جسيمة، ولا تتفق مع الفهم السليم لمركزنا من نحو الله، ومركزنا من نحو الانسان.

هنالك فقرات كثيرة فى الكتاب المقدس تُبيَّن، بما لا يدع مجالاً للشك، بأن مراكزنا في الكنيسة المنظورة مُحدَّدة كأعضاء فى الجسم البشرى. فحتى إن كان مركزك هذا قد حدده الله كلي الحكمة، وكلى القُدرة، والمُهيَّمن على كل شيء. هل يعقل لحظة أن من عين مركز كل نجم ليضيء فى كبد الظلام يترك مركز نجوم كنيسته للصدفة (أع ٢٠:٢٨، ١ كو ١٢:٢٨، اف ٤:١١)؟!.

إن قامت إذن عداوة أو تذمُّر يجب أن لا يؤثر هذا في حد ذاته فى تحديد مركزك. قد يكون علامة علي أن الوقت قد حان لتذهب الى مكان آخر. لكن ليست هذه علامة قاطعة نهائية جازمة. بل يجب أن تذهب الى منْ أرسلك، الذى تخدمه، وتسأل عما اذا كان يريدك ان تخلى مركزك. وان كان الأمر كذلك فاسأله أن يوضح لك الأمر جلياً. وإن لم يوضح فلا تدع ما يصنعه الانسان يُخِيفَك أو يُزعِجَك.

يجب أن تلبث في مركزك كالحارس (الديدبان) الذى يقف وحيداً وسط المخاطر، الى أن يأتى رئيس جند الرب ويطلب منك تسليم أمانتك المقدسة. وإن لم تأتِ أوامر كهذه أتت النعمة والصبر، ووجب أن تلبث فى مركزك الى أن تُسلُّمه عند الموت.

(وأخيراً): ترك موسى القرار النهائى لله. لقد طلب منهم جميعاً أن يأخذوا مجامر، وهذه لا يستعملها إلا الكهنة، ثم يجعلوا فيها ناراً ويضعوا عليها بخوراً، ويقفوا أمام الرب عند باب خيمة الاجتماع. وبعد ذلك يُترَك الأمر لله، لكي يختار منْ هو المقدس ومن هو الذى يقترب اليه؟!.

أية راحة عُظمى يجدها الكثيرون من خدام الله اذا ما تشربوا بروح هذا البطل العظيم، واعترفوا باتمام ارداة الله مهما اشتدت المخاطر، ولبثوا عند دفة السفينة حتى وإن زحفت اليهم نار حقد الشعب وحرقت أيديهم. كم مرة استبد بنا القلق والاضطراب ـ حتى وإن كنا لم ننحرف عن طريقنا السوى ـ بسبب أفكار كهذه: ماذا تقول الجمعية، أو القادة أو المعضدون؟ كيف يجد أبنائى قوتهم ورزقهم إن أغضبت هذا المشترك فى جمعيتى أو كنيستى الواسع النفوذ؟ كيف أستطيع مقاومة ثورة جامحة كهذه؟ ألا يجب أن أخضع لاقتراحات الأصدقاء أو تهديدات الأعداء؟ هذه الاسئلة ـ مع الأسف الشديد ـ كثيراً ما تفرض نفسها علينا، فنغير مراكزنا بسبب اقتراحات البشر، وبسبب مراعاة سياسة البشر، دون الرجوع الي ذاك الذى نخدمه، والذي عين لنا العمل الخاص الذى نؤديه.

فلنتصرّف كما تصرَّف موسى الخادم الأمين ولنترك تحديد مراكزنا لربنا وسيدنا. وفي نفس الوقت لنكن فى سلام كامل. إنه لخطأ جسيم أن نحمل أثقال عمل الرب. عندما تأتى المتاعب ـ ولابُد أن تأتى ـ فانها تُهمُّه كما تُهمُّنا. ليس لنا الحق أن نحمله همومه ونحل مشاكله. كل ما يطلبه منا هو أن نؤدى عمله، وأن نطيع وصاياه، وأن نتمم ما كلفنا به، وأن نُلقِى عليه كل الحِمْل الثقيل. إن كان كل الناس لا يحبوننا، فإنه هو الذى يحدد إن كان يريدنا أن نستمر فى مراكزنا. وإن أراد أن يبقينا، فهو الكفيل بأن يحفظنا هناك، وأن يعطينا نعمة فى أعينهم. وإن أعوزنا فى سبيل خدمته أى شئ من حاجيات الجسد إلتزم هو بإعالتنا وإعالة أولادنا. إن الملك ملتزم بأن يسدد أعواز سفرائه. ان استدعت مهمتنا اتخاذ مركز القيادة الذى ينازعنا فيه زملاؤنا وجب أن لا نتنحّى عنه طالما كنا نستطيع ترديد ما قاله موسى «الرب قد أرسلنى لأعمل كل هذه الأعمال وأنها ليست من نفسى» (ع ٢٨). وهكذ لا ندع مجالاً لا للكبرياء ولا للحسد أو الغيرة. إننا نعلم بأنه «لا يقدر إنسان أن يأخذ شيئاً ان لم يكن قد أُعطِىَ من السماء» (يو ٣:٢٧) فلنتقدم بكل هذه المنازعات الى ذاك الذى وضعّنا فى مراكزنا.



(٢) قابِل مقاوميك بعطف ورِقَّة :

كان موسى نبيلاً جداً فى تصرّفه مع هذه الجماعة المتذمرة. عندما سمع فى بداية الأمر تذمراتهم، اتخذ موقف الصلاة، وبدأ يصلى من أجل منْ أساءوا اليه واضطهدوه. وعندما ظهر فى الصباح التالى كأن الله لا يريد إهلاك زعماء الثورة فقط، بل كل الجماعة التى اجتمعت معهم، عند باب خيمة الاجتماع، سقط على وجهه، وصلى الى إله أرواح جميع البشر، متوسلاً اليه بأن لا يسخط علي كل الجماعة من أجل خطية رجلٍ واحد.

كان داثان وأبيرام ـ ابنا أليآب ـ هما الملومان بصفة خاصة. وعندما أرسل إليهما موسى يستدّعيهما بعثا اليه برسالة مُهينة أتهَّماه فيها بالخيانة، لأنه لم يأتِ بالجماعة الى أرض تفيض لبنا وعسلاً. بل ذهبا الى أبعد من هذا. وقالا إنهما لم يذهبا اليه لئلا يقلع أعين هؤلاء القوم (ع ١٣و١٤). كان طبيعياً أن يغتاظ موسى جداً، ويجرح قلبه بسبب هذه الكلمات المُرَّة القاسية، لكنه لم يحاول أن يَرُّد عليها سوى بأن يبرئ نفسه أمام الله (ع ١٥). وعندما أمرَه الله لم يتردَّد فى أن يقوم ويذهب إليهما دون أن يبدو فى حديثه لهما أى أثر للحقد أو طلب الإنتقام (ع ٢٥).

وفى اليوم التالى، عندما لم يتعظ الشعب بالقصاص المروع الذى تم، بل تذمروا على هرون وعلى موسى، وأتهموهما بقتل شعب الرب، سعى موسى مرة أخرى أن يُحَّوِل عنهم القصاص الذى كان يهددهم، وذلك أولاً بالصلاة، وثانياً بتعجيل هرون بأن يقف، ومبخرته فى يده، بين الموتى الذين ضُرِبُوا بالوبأ، وبين الأحياء الذين لم يحصدهم الموت بعد. لقد أدرك سريعاً جداً أن «السخط خرج من قبل الرب» وكان متلهفاً جداً على أن يردُّه عنهم. ولقد كان كريماً جداً أن يبذل مثل هذه الجهود من أجل أولئك الذين أساءوا اليه إساءة بالغة منذ ساعة واحدة فقط (ع ٤١-٤٨).

هكذا يكون قلب الراعي الحقيقى. أنه يشترك فى روح «الراعى الصالح» الذى أحب مُبغّضيه وطلب المغفرة من أجل قاتليه. إنه لا يوجد فى قلبه أى أثر للحقد من نحو

مقاوميه. ان حرس باب القصر الملكى المستعدين للموت، الذين يمنعون الغوغاء من دخول القصر لكى يشتروا بدمائهم وقتاً ليُنجُّوا ملكهم، لا يحقدون علي هؤلاء الغوغاء، كأن هنالك خصومة شخصية، طالما كانوا يعلمون أنهم مُبغضون، لأنهم يمثلون الملك، وهم يفخرون بأن يتألموا من أجله.

ليتنا تكون لنا روح الولاء التام للمسيح لكى نتألم مشتركين معه فى آلامه، ونموت متشبهين بموته، ونتمثّل به في كل شئ. لعل أسمَّى درجات الولاء له هى أن نشتهى المحبة لكى نسكبها عند قدميه، ونفزع من البغضة لأنها تجرح قلوب المحبين وتُسِئ الى ربنا المبارك.

(٣) انتظر الرب لكى يُظهِّر حقك :

«فقال موسى ... إن مات هؤلاء كموت كل إنسان ... فليس الرب قد أرسلنى. ولكن ان ابتدع الرب بدعة وفتحت الأرض فاها وابتلعهم ... تعلمون إن هؤلاء القوم قد أزدروا بالرب. فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقَّت الأرض التى تحتهم، وفتحت الأرض فاها، وابتلعتهم» (ع ٢٨-٣٢). كان هذا انتقاماً مروعاً. وكان ضرورياً لبقاء المحلة، بإخماد الثورة بدون رأفة. لم يكن هنالك مفر منه. يجب قطع جرثومة السرطان من الجسم. كان الموت غير أليم للأطفال الصغار الذين اذ قطعوا من الحياة هنا انتقلوا فى الحال الي الأبدية السعيدة، أما الباقون فقد كانوا يستحقون القصاص، وكان استئصالهم سبباً في نجاة المحلة.

حاول الكثيرون القضاء على كنيسة الله، لكنهم كهامان **عُلِقُّوا علي الخشبة التى أعدوها للكنيسة.** وتكلم غيرهم عن خُدّام الرب، لكنهم كابدوا موتا مُرّوعاً، فى غير أوانه. لقد «خرجت دبتان من الوعر وافترَسنا إثنين وأربعين ولداً» سخروا من أليشع (٢ مل ٢:٢٤). وهيرودس أكله الدود (ع ١٢:٢٣). ومضطهدوا الكنيسة ماتوا ميتات شنيعة. كل آلة صورت ضد قديسى الله لم تنجح. وكل لسان قام ضدهم في القضاء حكم عليه.

أيها القديسون المتألمون، اتكلوا علي الرب متممين إرادته عندما تُضطَهدون وتُبغَضون. لا ترهبوا وجوه البشر. لا تزعجكم تهديداتهم. هو معكم ليُخلّصكم. إن حاربوكم فلن ينجحوا، ولن تتم تهديداتهم. **فالله يحب قديسيه. وجميعَهم فى يده.** والذين ينشغلون في خدمته المقدسة هم بصفة خاصة فى ظل يده. إن كانوا أُمناء له ولوصاياه، ان كانوا يعيشون وفق مشيئته، فإنه لا يوجد شئ لا يعمله لهم. عندما يدعونه فى ضيقهم ينقذهم من عدوهم القوِى، ويأتى بهم الى الرَحَبِ، لأنه يُسُّر بهم، وهم يتكلون عليه.



الباب السادس والعشرون

كيف سقط الجبار؟!

«ورفع موسى يده وضرب الصخرة بعصاه مرتين»
(خر٢٠:١١)

كان تصرفاً واحداً، وتصرُّفاً صغيراً. لكنه سبب ذبول زهرة حياة نبيلة، وفوَّت الجائزة التي كانت وشيكة، على تلك النفس التى كان إيمانها هو الدُعامة القوية التى دعمت مسئوليات الخروج.

كانت الأربعون سنة ـ مدة التيه فى البرية ـ على وشك الإنتهاء. وكان الشعب المبعثر في شبه الجزيرة قد تجمع معاً فى قادش. هنالك استقروا بضعة شهور. وهنالك ماتت مريم وهي واحدة من شخصيات قليلة كان يستطيع موسى أن يتحدَّث معها عن الحياة في أرض الفراعنة، أرض الأهرامات الكائنة وراء رمال الصحراء، وراء أودية سيناء، بل وراء مياه البحر الأحمر. كان هرون وكالب ويشوع (وربما اللاويون) هم الأحياء الباقون من تلك الجماعة الظافرة التى ارتفع صوت هتافها، صوت التحدى، صباح يوم تحرَّرها. وكان موسى، مع كل واحد من هؤلاء الثلاثة، واثقاً بأنه سوف يعبر مع رفاقه ويرى «الأرض الجيدة التى فى عبْر الأردن، هذا الجبل الجيد ولبنان» (تث ٣:٢٥). لكن هذا لم يكن مُقدَّراً له أن يتم!!.

(١) كيف حدث الأمر؟! :

كان اقبال الشعب لمجارى الماء فى قادش شديداً جداً حتى جفت. وعندئذ ثارت مرة أخرى روح التذمر، والشكوى التى كانت سبباً فى لعنة الجيل السابق، والتى سرت عدواها الآن فى أبنائهم. تجمَّع الشعب معا على موسى وهرون، ولو أن كل هجماتهم كانت موجهة الى موسى بصفة خاصة، متجاهلين كل الجهود الجبارة التى بذلها معهم ومن أجلهم فى كل السنوات الماضية.

اعترفوا بأنهم كانوا يتمنون موتهم بالوباء الذى أوقفته مجمرة هرون. واتهموا موسى وهرون بمؤامرة دنيئة دبراها لإهلاك كل الجماعة بالعطش. وبالرغم من أن سحابة الله كانت تظللهم، والمن يسقط يوماً فيوماً، إلا أنهم وبخوا موسى، ولعنوا المكان الذى حلوا فيه، وقالوا عنه «هذا المكان الرديء. ليس هو مكان زرع وتين وكروم ورمان»، ثم أنهم «طلبوا ماءً للشرب». كان هذا هو الجيل الجديد الذى وضع فيه آمالاً كبيرة، كان هذا هو نسل الجيل القديم. وهذا ما سبَّب لموسي آلاماً نفسية مُبَرِّحة.

ومع ذلك، فقد لجأ الي موقفه القديم، وخر علي وجهه أمام خيمة الاجتماع، وظل هكذا حتى أشرق النور من قدس الأقداس، مُعلِناً بأن استجابة الله قريبة. أمر الرب موسى بأن لا يستعمل عصاه، مع أنه قد أخذها، وذلك بعكس الأمر الذى سبق أن صدر اليه منذ سنوات طويلة فى مناسبة مماثلة. **لكنه أمره بأن يكلم الصخرة**، واثقاً أن رنين صوته إذ يلاطم وجهها الصوانى، سوف تكون له نفس نتيجة ضرب العصا السابقة، وأن المياه سوف تتفجر منها.

ثم عندما يكون الله معك فان الكلمات تساوى العصا، بل أن مجرد الهمسات الهادئة التى تُقالُ باسمه، سوف تفتح الغرف الصخرية، وتدحرج الأحجار الضخمة، وتشقق القبور التى تضم جثثاً تنتظر الدعوة بالقيام من الأموات. العصا لازمة فى بداية تدريب الايمان عندما يكون لايزال ضعيفاً. لكنها يجب أن تُطرَح جانباً دون تردُّد عندما يكمُل تدريب النفس. لأنه **كلما نما الايمان قل استعماله للوسائط المادية التى يستخدمها، وعملت المعجزات بأقل كمية من الأشياء المادية.** منذ سنوات صدر لك الأمر باستعمال العصا لأن إيمانك كان فى بدايته، أما الآن وقد اشتد ايمانك، فيجب أن لا تستخدم إلا أقل الوسائط المادية.

كان ممكنا لموسى أن يدرك أفكار الله هذه فى لحظات أكثر هدوءاً. أما الآن فقد كان، متهيجاً وحانقاً، ومحتدم الغضب بسبب خيبة الأمل والفشل والغيظ. ولذلك فإنه، عندما التفَّت الجماعة حوله، بادرهم بالكلام بأنهم متمردون، قائلاً لهم «أيها المردة». وتكلم كأن عطية الماء تتوقف عليه وعلى هرون. لقد كشف عن شعوره بالضيق بسبب طلبهم،

فضرب الصخرة بعنف بعصاه مرتين. واذ رن صدى هاتين الضربتين فى سكون الصحراء حطما نهائياً كل آماله وأحلامه. لقد قضى على تلك الرؤيا التى طالما استهوت قلبه فى كل السنوات الطويلة الماضية، وأرسلت الملائكة لاختيار المكان الذى يدفن فيه جسده على جبل الفسجة القائم على أبواب أرض الموعد، التى كان يرجو أن يضطجع فيها.

ياله من تحذير نجده هنا، يبيِّن لنا بأننا فى بعض الأحيان نسقط فى أقوى نقطة، وأن الحياة النبيلة قد تذبل بسبب سقطة واحدة صغيرة. «فقال الرب لموسى وهرون من أجل أنكما لم تؤمنا بى حتى تقدسانى أمام أعين بنى إسرائيل. لذلك لا تُدخِلان هذه الجماعة الى الأرض التى أعطيتهم إياها» (ع ١٢).

لم يتأثر الشعب بسبب خطية قائدهم. فالمياه تدفقت من الصخرة، كما لو كان موسى قد أطاع الأمر الإلهى، «وخرج ماء غزير فشربت الجماعة ومواشيها» (ع ١١). **إن عدم ايمان الانسان لا يُعطِّل قوة الله. إن كنا غير أمناء فهو يبقى أميناً لا يمكن أن يُنكِر نفسَه أو يهجُر شعب اقتنائه.**

(٢) المبدأ الذى ينطوى عليه القرار الإلهى :

١- كان هنالك عصيان واضح :

لم يكن الأمر الالهى يتطرَّق اليه أقل شك، ولقد اعتُدِىَ عليه اعتداءً صريحاً. لم يؤمر بأن يضرب الصخرة، بل بأن يكلمها، أما هو فضرَّبها مرتين. بهذه الطريقة لم يقدس الله فى أعين الشعب. وذاك الذى كان ينبغى أن يُقدِّم مثالاً فى الطاعة الكاملة لكل نقطة وحرف فى أوامر الله نفذ مشيئته هو وطريقته هو، بدلاً من مشيئة الله وطريقة الله. لم يكن ممكناً أن يقبل هذا ممنْ أُقيمَ لقيادة الشعب وتعليمه.

يقدس الله حينما تضع سياجاً متيناً حول شخصه وحول كلماته، حينما نقبلّها بصفة نهائية حاسمة دون مناقشة، ونطيعها فى الحال بأمانة مطلقة، ونجعلها قانوناً لسلوكنا

وإرشادنا دون منازعة. لذلك فإن موسى عندما تغافلها ليتبع هواه، كان هذا يساوى تدنيس اسم الله القدوس «لم تؤمنا بى حتى تُقدِّسانى أمام أعين بنى إسرائيل».

خليق بنا أجمعين أن نسأل أنفسنا عما اذا كنا دقيقين دقةً كافية فى طاعتنا؟. في الرسالة الى العبرانيين التى تتحدث عن التيه فى البرية تكررت هذه العبارة مراراً «لم يقدروا أن يدخلوا لعدم الايمان» (أو «بسبب العصيان» حسب بعض الترجمات)، لا «عدم الإيمان» و «العصيان» وجهان لعملة واحدة، عُملة ضرّبها الشيطان. **فالذين يعصون لا يؤمنون والذين لا يؤمنون يعصون.** فليت الكاهن الأعظم (الرب يسوع) يضرب بسيفه ذى الحدين أعماق قلوبنا لينزع منها أقل أثر للعصيان. عندئذ يقوَّى الايمان، وعن طريق أبوابِه ندخل الي أرض الراحة (الملكوت).

٢- كان هنالك عدم إيمان :

كأنه قد أحسن بأن التكلُم الى الصخرة لا يكّفى. وكأنه كان يجب أن يكون هنالك شئ أقوَّى، كان يجب أن تتدَّخل القوة البشرية والواسطة البشرية. واضح جداً أنه كان هنالك اعتماد على نصيبه فى العملية، أو على قوة العصا السحرية التى طالما عملت المعجزات. لقد فكَّر كثيراً في هذه الناحية أو تلك، دون التفكُر فى قدرة الله الأزلية. لم يُدرِك كيف يمكن أن تكون مجرد كلمة ينطق بها، كافية بأن تفتح طاقات القُدرَة الأزلية. بل اعتقد أن الأمور المحسوسة الملموسة هى التى تكفِى لكى تُحِرك هذه القدرة الآلية للعمل.

كان عجيباً جداً أن يسمع الله وهو يقول لموسى «لم تؤمنا بى». ألم يكن هذا هو الرجل الذى عن طريق إيمانه حلت الضربات بأرض مصر؟ وانشقت مياه البحر الأحمر؟ وغطى المن البرية كل يوم؟ وسار الشعب فى البرية ثمانى وثلاثين سنة دون أن يُمسُّوا بأى أذى من أعدائهم؟ ماذا حدث؟ هل كان التيه سبباً في إضعاف هذه النفس القوَّية، وهل سلبها قوتها، وقص شعرها، وجعل موسى كأى إنسان عادى؟ يقيناً أنه لابُد أن يكون قد حدث شئ من هذا القبيل. كان ممكناً أن يكون تصرُّف واحد سبباً فى هذا العطب، وعلامة على

خطأ داخلى دفين، لم يُعلن. إن اشجار البلوط لا تسقط أمام عاصفة واحدة إلا إن كانت قد تعفنت فى داخلها.

فلنسهر ولنُصّل لئلا يكون فى أحدَّنا قلب شرير بعدم إيمان (عب ٣:١٢)، لئلا نبتعد فى تفكيرنا عن بساطة الايمان بالله الحى، لئلا نُسلِّم جوهرة إيماننا الى إغراءات شهوة نجسة تحت ستار مظهر من المظاهر الجميلة. لنضع حارساً ـ بصفة خاصة ـ لأقوى نقطة فينا. لأننا إذ نثق بأننا أقوياء فيها، نميل الي تركها بدون حراسة، وبذلك تكون مفتوحة أمام العدو. إن وضعنا هذا الحارس نجوَّنا من أية سقطة تُغْلق فى وجوهنا أبواب كنعان، وتُسلِّمنا الى قبرٍ مجهول، قبل الوقت.

فى كل الجهود المسيحية يوجد قدر كبير من هذا الاعتماد علي العصا. لقد اتبعنا فى الماضى طريقة مُعيّنة ـ يُقرّها الله ـ فى تجديد الخطاة، وفى بنيان شعب الله، وللحال اعتزمنا التشبُّث بها وعدم تغييرها. وعندئذ نحاول أن نعالج الحالات الجديدة بإخراج العصا واستعمالها كما فيما مضى. هذا خطأ شنيع. إن الله لا يُكرّر نفس الطُرق. بل هو **يقابل الحالات الجديدة بوسائط جديدة.** ويضع خمراً جديدة فى زقاقٍ جديدة. ان كانت العصا لازمة في وقتٍ ما، فإنه الآن يرى أن مجرد كلمة تصلح أفضل من العصا. فخليق بنا أن نستشيره، ونتمسَّك بالقرار الذي يُعطيه، **ونعمل تماماً كما يقول لنا، سواء من جهة الوسيلة أو الوقت أو المكان.** (فالخضوع للمشيئة الإلهية من مبادئ الإيمان).

٣- وكان هنالك إفسَّاد للرمز :

«**كانت الصخرة هى المسيح**» ذ ضُرِبَ قلبه بالموت في الجلجثه خرج منه نهر ماء الحياة ليُفرِّح مدينة الله، ويحوَّل القفار الي جنات. لكن الموت جاء إليه، ولم يأتِ إلا مرة واحدة. «المسيح قدّم مرة لكى يحمل خطايا كثيرين» (عب ٩:٢٨). «لأن الموت الذى ماته قد ماته للخطية مرة واحدة، والحياة التى يحيّاها فيحياها لله» (رو ٦:١٠). «أنا هو الحى وكُنتُ ميتاً وها أنا حى إلى أبد الآبدين» (رؤ ١:١٨). كل هذه الآيات تُبيِّن كيف هو ضرورى

جداً إثبات هذه الحقيقة وهى أن موت المسيح مرة واحدة قد تم. وواضح أنه لإتمام الشبَه بين الحقيقة والظل، كان يحب أن تُضرَب الصخرة مرة واحدة. وبدلاً من هذا ضُرِبَت فى بداية رحلاتهم في البرية وفى نهايتها. فكان هذا تحريفاً لحقيقة أزلية، وكان يجب توقيع أقصى العقوبة علي منْ يتعدَّى على الوصية الإلهية بغفلة، كما مات عزة «لأجل غفلة» اذ حاول أن يعدل التابوت الذي كاد يسقط (٢ صم ٦:٦و ٧).

لكن هنالك شئ أعمق من هذا. كانت هنالك مناسبة أزلية في طبيعة هذه الحقيقة وهى **عدم السماح لموسى بأن يدخل الشعب إلى أرض الراحة.** فإن موسى يُمثّل الناموس. وهو الذى على يديه أتى الناموس. هو الذى يحق له أن يقف أمام كل الأجيال كممثل لذلك الناموسْ الذى لا تَكِّل عيناه ولا تذهب نضارته بمرور الزمن. **لكن الناموس لن يدخلنا الراحة. أنه يستطيع أن يقودنا الى عتبة أرض الراحة،** لكنه لن يستطيع أن يتعدَّى هذا الحد. يجب أن يُدخِلنا شخص آخر، هو يشوع الحقيقى، **يسوع المخلص مُحب البشر.**

(٣) القرار الإلهى الذى لا رَادَّ له :

شرب موسى كأس الفشل المُر حتى الثُمَالة. ويبدو أنه ظل يصلى بصفة مستمرة لكى يُغيِّر الله حُكمَه، أو يُخفِّفه. «دعنى أعبر وأرى الأرض الجيدة التى فى عبر الأردن، هذا الجبل الجيَّد ولبنان» (تث ٣:٢٥). لم يكن مُمكناً لأى شاعر أن يُصوّر تلك الأرض بصورة أبهى وأمجد. لقد غمس موسى ريشته فى ألوان قوس قزح، إذ كان يتكلم عن تلك الأرض الجيدة، التى هى «أرض أنهار من عيون، وغمار تنبع فى البقاع والجبال. أرض حنطة وشعير وكرم وتين ورمان. أرض زيتون زيت وعسل» (تث ٨:٧و٨) لم يبلغ الحنين فى أى موطن نحو أرض آبائه، كما كان حنين موسى نحو دخول تلك الأرض المباركة. لقد توسَّل الى الله من أجل نفسه فى هذه المناسبة، بنفس اللجاجة التى طالما استخدمها فى الصلاة من أجل شعبه. ولكن لم تُستَّجب الصلاة. «الرب غضب علىَّ بسببكم ولم يسمع لى، بل قال لى الرب كفاك. لا تعُد تكلّمنى أيضاً فى هذا الأمر» (تث ٣:٢٦). **لقد غُفِرت الخطية، لكن كان يجب أن تتم نتائجها الأليمة.** كلنا قد اختبرنا كيف غَفَر الله لنا خطايانا، لكنه يجب أن يؤدّبنا بسبب اختراعاتنا. يجب أن نحصد ما زرَّعنا. **يجب أن نتألم حيث أخطأنا.**

فى مثل هذه الأوقات لا تستجاب صلواتنا حرفياً. وسواء بصوت الروح القدس، أو بغريزة روحية، نُدرِك بأنه لا فائدة من الاستمرار فى الصلاة. والشوكة لا تنتزع حتى إذا صلّينا لا ثلاث مرات، بل ثلثمائة مرة. لكن الصلاة تُستجاب بشكلٍ ما. وآلامنا تُصبح درساً يُحذِّر البَشر، فى كل الأجيال القادمة. ويسمح لنا من قمة جبل الفسجة بأن نُبصِر الأرض الجيدة التى نتوق لها. ومن ثم ننقل الى أرضٍ أفضل. وتُستَجاب صلواتنا فى المستقبل، كما حدث مع موسى، الذى تمت صلواته بكيفية مجيدة، عندما وقف مع المسيح على جبل التجلِّى. وفى نفس الوقت نسمع صوته يقول «تكفيك نعمتى لأن قوّتى في الضعف تُكمَّل».

لكن آه، ليت الله يحفظ نفوسنا لئلا تُداهمنا تجربة فجأة، علي غير انتظار. واذ تحل بنا تلك التجربة فى منتصف طريق حياتنا، أو قُرب نهايته، قد تطوِّح بآمالنا، وتُدنِّس إسمنا الجميل، وتهين الله، وتُخسِّرنا الجعالة. (المكافأة الأبدية).



الباب السابع والعشرون

الاستعداد لجبل الفسجة

«وقال لهم «موسى»: أنا اليوم ابن مئة وعشرين سنة. لا أستطيع الخروج والدخول بعد، والرب قد قال لى لا تعبُر هذا الأردن» (تث ٣١:٢).

فى كتاب «سياحة المسيحى» يضع المؤلف أرض بعولة قبيل النهر الأسود الذى يعبره السائح الى المدينة الذهبية. ويصف أرض بعولة هذه بأن الشمس تشرق عليها بصفة مستمرة، وفيها تُغنِّى الطيور وتظهر الزهور كل يوم، والهواء طيِّب وجميل. وهى علي مرأىً من المدينة. لكن اليأس الجبار لا يصل إليها. والذين يدخلونها لا يستطيعون أن يروا أبراج قلعة الشك.

يميل القديسون أن يتمتعوا بمثل هذه الاختبارات الجميلة، وأن يقضوا فترة راحة وهدوء بين مشاغل الحياة الصافية وبين دخولهم الي أرض الموعد، ليكونوا مع المسيح. لكن هذا لم يكن من نصيب موسى. فإن السنة الأخيرة فى حياته، كانت مليئة بالخدمات، كما كانت سنواته السابقة.

(١) كان أمامه أولا غزو كنعان الشرقية :

وصفها أحد الرحالة (دين ستانلى) بأنها هى الحدود الشرقية العجيبة للأرض المقدسة، وبأنها جميلة جداً، وجذابة جداً، ويجهلها الكثيرون. لقد طُرِدَت قبائل موآب وعمون (وهم من أقارب العبرانيين) سكانها الأصليين وهؤلاء الموآبيون والعمونيون قد انتزع من أيديهم جزء كبير من أرضهم بمعرفة القائدين الكنعانيين سيحون وعوج، اللذين طالما تردَّد أسماءهما فى هذه المناسبة.

أما هجوم الاسرائليين فقد برَّرته حماقة سيحون، إذ رفض طلبهم نحو عبور حدوده في طريقهم الى أريحا. وهو لم يرفض فقط طلبهم الذى ينحصر في مجرد العبور، بل جمع جميع قومه وخرج للقاء إسرائيل في الحدود بين أراضيه وبين البرِّية. وذلك النشيد الذى أُنشِد إحياءٍ لذكرى النصر يُبرِز بصفة خاصة بسالة رماة المقلاع ورماة السهام في إسرائيل. واليك إحدى فقراته «قد رميناهم. هلَكَت حشبون» (عدد ٢١:٣٠). وتُبيّن هذه الكلمات سبب الإطاحة بهذا الملك القوى، الأمر الذى **لم يتم إلا بالمعونة الالهية.** لقد ضرب اسرائيل العدو بحد السيف، حتي أباد جيشه، وهكذا لم تبَّق أمام الجيش الظافر أية مقاومة. وفتَحَت المدن أبوابها، وأصبحت تلك المنطقة الخصبة من أرنون الى يبوق (شرق البحر الميت) مِلكاً للشعب الإسرائيلى بقوة السلاح.

لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد. فقد كانت باشان تقع شمال هذه المنطقة، وكانت غنية بأخشابها تكثر فيها غابات البلوط وأشجار الزيتون، وتنتشر فيها مزارع الحنطة. لقد كانت، ولاتزال، أجمل بقعة في الأرض المقدسة وأخصبًّها. وكان عوج ملكها مشهوراً بطول قامته. وحسب رواية يوسيفوس كان قد قَدِم لإغاثة سيحون اذ سمع بهزيمته وموته. لكنه جرَّد جيشه ضد جيش اسرائيل دون أن يتسرب الخوف الى قلبه. وقامت الحرب فى أذرعِى، التي كانت تعتز بموقعها الحصين، وانتهت بنُصرَة اسرائيل الساحقة. ويُقدّم الينا موسى نتيجة الحرب بهذه الكلمات الوجيزة القوية «فضربوه وبنيه وجميع قومه حتى لم يَبَق له شارد، وملكوا أرضه».

ولولا تدخُّل الله لما كان ممكنا أن يتم هذا الانتصار الرائع الذى مكَّن اسرائيل من امتلاك هذه البقعة الثمينة من الأرض بمدنها المُسوَّرة أسواراً عالية، وأبوابها وعوارضها ومدن أخرى كثيرة غير مُسوَّرة. لقد سبق أن قال الله «لا تخف منه لأنى قد دفعَّته الى يدك». وهذا ما حدث. ويبدو أن كمية هائلة من الدبابير ـ التى تكثر فى فلسطين ـ هاجت عليهم فى تلك الفرصة حتى اضطر الشعب الى هجر حصونهم والإلتجاء الى السهول المكشوفة،حيث عجزوا عن مقاومة الإسرائيليين.

وخصص موسى تلك المنطقة الغنية الجميلة لِسبط رأوبين وسبط جاد ونصف سبط منسى، بناء على طلبهم، بعد أن أعطوه وعداً مؤكداً بأن يقوموا بنصيبهم فى غزو فلسطين الغربية. ونحن نستمع إليه يقول لهم فيما بعد: «وأمرتكم فى ذلك الوقت... متجردين تعبرون أمام أخوتكم بنى اسرائيل... حتي يُريح الرب إخوتكم مثلكم» (تث٣:١٨-٢٠).

(٢) بعد ذلك قدَّم موسى للشعب وصيته الأخيرة :

وهذه أُعطِيت فى سلسلة من خطابات وداعية تضمنتها الاصحاحات ١-٣٠ من سفر التثنية. إن مركز هذا السفر بالنسبة للأسفار الأربعة السابقة له كمركز انجيل يوحنا بالنسبة للأناجيل الثلاثة السابقة له. إنه (سفر التثنية) ملئ بالتوسلات المؤثرة، ملئ بذكريات الماضى، وعبارات الشُكر والعِرَّفان بالجميل والعبارات التى تَنُّم عن الخوف ومحبة الذات. خليق بموسى أن يُقال عنه أنه أحبَّ الشعب، وفى هذه الصفحات نستطيع أن نتتبع آثار المحبة، التى تدفقت من قلبه نحو شعبه.

إن العبارات التى تُعتَبر مفتاح هذا السر العجيب هى: «**احفظ**» (١)، «**احترز لتعمل**»، «**الرب يختار**». وهو ملئ بالعبارات الرائعة التى تصف أرض الموعد والتى يمكن تطبيقها روحياً على تلك الاختبارات المُفرِحَة التى تُعبِّر عنها هذه العبارة «**راحة الايمان**». **حقاً إنها** ـ كما كانت أرض كنعان قديماً ـ أرض جيدة، أرض أنهار من عيون وغمار تنبع فى البقاع والجبال. هنالك نشرب من نهر ماء الحياة، هنالك نأكل خبز الحياة بدون عوز، ولا يعوزنا شئ من حاجياتنا الحقيقية. أما الاصحاح الثامن والعشرون فإنه يُنبئ مقدماً عن تطويبات الرب فى عظته على الجبل. وطوبى لمن يستطيع أن يُطبّقها فى اختباراته الروحية، ويدخل ليمتلك الأرض.

ونحن نستطيع أن نُقرِّر بأن المناقشات الطويلة التى احتدمّت حول كاتب هذا السفر يقضى عليها ما أكده العهد الجديد بأن موسى هو الذى كتبه. فبولس مثلاً يؤكد بصراحة أن موسي هو كاتبه وذلك فى (رو ١٠:٥-١٠) التى يقتبّسها من (تث ٣٠:١١-١٤).

(٣) بعد ذلك نجد اهتمامه بمن يخلفه :

تكلم موسى مع الرب قائلاً «ليوكِل الرب إله أرواح جميع البشر رجلاً على الجماعة يخرج أمامهم ويدخل أمامهم ويُخرِجهم ويُدخِلهم لكى لا تكون جماعة الرب كالغنم التى لا راعى لها». واجابة لهذا الطلب أمَره الرب بأن يأخذ **يشوع بن نون**، وهو رجل فيه روح الله، ويقدمه الي العازر الكاهن وقُدّام كل الجماعة ويُوّصيه أمام أعينهم. ويبدو أنه تمم هذا الأمر، وعندما اقترب الموت قدم اليه وصية أخرى. (قارن عد ٢٧:١٦-١٩ وتث ٣١:٧و٨).

ياله من منظر رائع، عندما دُعِى موسى ـ وهو فى سن المائة والعشرين ـ يشوع وقال له أمام أعين جميع إسرائيل «تشدد وتشجع لأنك أنت تدخل مع هذا الشعب الأرض التى أقسم الرب لآبائهم أن يعطيهم إياها، وأنت تُقسَّمها لهم، **والرب سائر أمامك. هو يكون معك. لا يُهملك ولا يتركك. لا تخف ولا ترتعب**». وللحال «وقف عمود السحاب على باب الخيمة». ودعي موسى ويشوع لتقديم نفسيهما أمام الله فى الموضع المقدس. وهنالك أمر الله يشوع ـ بنفس الكلمات التى سبق أن أمره بها على فم موسى ـ أن يُدّخِل بنى إسرائيل الى الأرض التى أقسَّم لهم بأن يُعطيهم إياها، مع الوعد بأن يكون معهم.

(٤) وكان عمله الأخير أن يتخَّذ الإجراءات اللازمة للإحتفاظ بالناموس فى حراسة قوية، ولضمان قراءته بصفة مستمرة :

لقد تمم الشطر الأول من هذا العمل بإيداع السِفْر ـ الذي دوَّن فيه الاعلانات التى أعطيت له ـ بجانب تابوت العهد. كان يجب أن يُحفَظ فى عُهدَة اللاويين، وأن تُقرأ فقرات منه فى نهاية كل سبع سنوات، حينما كان كل اسرائيل يظهرون أمام الله فى المكان الذى يختاره.

أما الشطر الثانى، فقد أُودَع موسى نصائحه وتوسلاته فى نشيدين رائعين، الأول يتضمن تحذيراً من الارتداد، والثانى يبرز مميزات الأسباط، ويمنحهم بَرَكة ودَاعية علي غِرار مافعله يعقوب قبيل موته.

أما الأصحاح الثانى والثلاثون من سفر التثنية، فإنه من أروع ما كُتِب فى الكتاب المقدس. إنه ترنيمة موسى قبيل موته. ومنه اقتبس كثيرون من كتبة الكتاب المقدس اللاحقين. إنه

يدعى مجد النبوة. لا يوجد ما يُشبّهه سوي ترنيمة واحدة هى ترنيمة الخروف التى رتلها معها (أى مع ترنيمة موسى) حاملوا قيثارات الله، وهم واقفون على البحر الزجاجى، فإنهم «يرتلون ترنيمة موسى عبد الله وترنيمة الخروف» (رؤ ١٥:٢و٣).

تشمل هذه الترنيمة ما يأتى: عبارات متكررة تُشبَّه الله بالصخر. وعطْف الله الغنى علي شعبه منذ وجده لأول مرة، فى أول قفر، تشبيه الله الأزلي بالنسر، الذى يُعلِّم فراخَه كيف تطير في الجو لأول مرة، الجحود الذى قوبلت به شفقته العجيبة بهم، المصير المروع الذى لابُد أن يُعرّضهم له تمرُّدهم، الرحمة التى تنتظرهم لدى توبتهم. كل هذه دُونَت بتعبيرات رائعة تقوم الي الأبد شهادة عن كيف تتكلم الشفاه المتلعثمة، عندما تمسها جمرة النار الحية التى على المذبح (إش ٦).

ثم تأمل في الآيات الختامية التى بارك بها الأسباط، وهى المُدوّنة فى الاصحاح الثالث والثلاثين. فيها نجد المجد الأوحد لاله يشورون، الذى يركب السماء ليُعين شعبه ويخلصهم، الملجأ الحصين الذى يجده البشر فيه، الأذرع الأبدية التى تُدّعِم شعبه، القُدرة المنيعة التى بها يطرد العدو من قدام النفس التي يحبها، المسكن الأمين الذى يسكن فيه إسرائيل ولو كان منعزلاً، الأرض الخِصّبة والسماء الكريمة التى تقطر ندىً، البَرَكة التى ينعم بها الشعب إذ يكون لهم الرب تُرس عون وسيف عظمة. كل هذه الصور للحياة المباركة رسمتها تلك اليد المقتدرة إذ غطسَّت فرشتها في الألوان الممتزجة باختباراتها.

هنا نرى لمحة عن الحياة الداخلية لهذه الشخصية النبيلة، ان كل ما عمله على الأرض **كان نتيجة لشركته العميقة مع الله. كان الله له مسكنا، ومعيناً، وملجأ. كان هو لا شئ، وكان الله كل شئ. كان كل ما عمله على الأرض يعزى للقدير الذى حل فيه، وكان يعمل فيه، ويتمم مقاصده فيه.**

وهكذا ختم موسى حياته. لقد ترك وراءه حياة طويلة مجيدة. وكانت أمامه الخدمة والعبادة في المقادس السماوية. هنا حضرة الله التى كان يَمثُل أمامها بالايمان، هناك الوجه المكشوف. هنا الخيمة ورحلات البرية، هناك الراحة الأبدية. هنا أرض الموعد التى رآها من بعيد، لكن لم يدخلها، هناك الأرض الجيدة عبر الأردن ليدخلها ويمتلكها. هنا كانت الحياة معقدة، ولم يوضع الحجر الختامى فى بناء حياته. لكن كان الأفضل له جداً أن ينطلق ويكون مع الله فى سماه.

الباب الثامن والعشرون

موت موسى

«فمات هناك موسى عبد الرب فى أرض موآب حسب قول الرب. ودفنه في الجواء فى أرض موآب مقابل بيت فغور».
(تث ٣٤:٥و٦)

الكتاب المقدس هو كتاب «الحياة». وصحائفه لتكتظ بتاريخ حياة الكثيرين، لكنها لا تتضمن إلا ذكريات ضئيلة عن موتهم. والشخص الوحيد الذى دُوِّن نبأ موته بالتفصيل هو ذاك الذي قَتَل الموت بموته. وأن دقة وصفه تبيِّن كيف كان موته فريداً، وكيف كان لازماً كل اللزوم يقيس الناس الصفات بمقياس الموت أكثر مما يقيسونها بمقياس الحياة. وإن كلمات قليلة تقوِّية تُقال وقت الموت، لتمحو ذكريات الحياة المُتقَّلبة.

والكتاب المقدس لا يُدَّوِن الا القليل عن شهادات أبطاله وأقوالهم واختباراتهم وقت الموت، بينما يتضمن الكثير جداً عن أعمال وأقوال الذين جاهدوا وتألموا وخدموا فى معركة الحياة. وهذا قد يُفسِّر السبب الذى من أجله دُوّن نبأ موت موسى العظيم، بمثل هذه البساطة وهذا الايجاز بعكس عادة البشر، وبعكس ما كان يُنتَظر.

لكن هذه البساطة تساويها عظمة الفِكرَة. فانه بعد مثل هذه الحياة التى عاشها موسى كان خليقاً به موت ودفن لا نظير لهما فى تاريخ البشرية. نحن لا نعجب إن كان الشعراء والفنانون والوعاظ يشحذون قرائحهم لتصوير هذا الموت الفريد على قمة جبل الفسجة. ونحن لا نستطيع أن نقتطف الا القليل من الزهور البرية التى يكتظ بها ذلك الجبل، على أن نترك الباقى لغيرنا. إن موت موسى يُحدّثنا عن الخطية، وعن الموت، وعن حقيقة الإفتقاد الالهي.

(١) حديثه عن الخطية:

لا يمكن أن يخطر ببالنا بأن حِدَّة طبعه ـ التى انفجرت فجأة عند مريبة اذ احتدمت روحه غضباً ـ لم يغفرها له الله. كبُعد المشرق عن المغرب أبعد الله عنه هذه المخالفة. ومع أن المغفرة كانت كاملة إلا أن النتيجة ظلت لاصقة بحياته، وحرَّمته من اختبارٍ كان ينتظر أن يُتوِّج حياتَه.

قال ناثان لداود الملك إذ أخطأ: «الرب قد نَقَل عنك خطيتك. لا تموت»، «الابن المولود لك يموت. لا يُفارِق السيف بيتك الى الأبد» (٢ صم ١٢:١٠-١٤). واللص اليمين غُفِرَت له خطيته، لكنه استوفى فى جسده أقصى قصاص خطيته. قد يُغفَر الشك الذى يعوق الانسان عن قبول بركات صعود المسيح الى السماء، لكن لا يوجد شئ يُعوّضه عن خسارته. قد لا تُقَال كلمة واحدة عن المسلك الشرير الذى سلكه الابن الضال، فأطاح بصحته وثروته، ومع أنه كان يتمتع بكل خيرات بيت أبيه، إلا أنه لن يتمتع بالصحة أو القوة أو الفرح المتدفق، كما كان ممكنا أن يحدُث لو أنه لم يذهب الي الكورة البعيدة.

ثم **أن الخطية لا تسبب الخسائر والحزن للخاطئ فقط، لكنها تسلُب من البشرية كثيراً من البركات التى كان ممكناً أن تتمتع بها لو لم يرتكبها.** كان ممكناً لموسى أن يقود شعبه فى عبور نهر الأردن، وأن يخدمهم سنوات طويلة فيما بعد، لو لم يضعف إيمانه ويشتّد غضبه.

فاحذر من أن تكون سهولة الغفران مُغريّة لك على الاستخفاف بالخطية، واحذر من أن تتوهم بأنها لا تترك آثاراً فى النفس، أو فى الحياة لأنك واثق من رحمة الله الغافرة لدى التوبة والايمان. إن كان تصرُّف واحد ـ فى حدة طبع وشكٍ ـ ألقى بموسى حبيب الله وخادمه فى قبر على حدود أرض الموعد، **فماذا يكون مصيرك أنت؟**

إن سلسلة التذمرات لا تنقطع مع الأسف الشديد. فالشفاة التى تشترك فى ترنيم تسابيح التكريس قد تشكو فى بعض الأحيان. وليس أحد فينا يحرص كما ينبغى على

أن لا ينطق بكلمات تنّم عن عدم القناعة. كم مرة اختلطت التذمرات بالطعام الذى نأكله لأننا غير راضين رضاءً تاماً بنوعه أو بطريقة إعداده واختلطت بالطقس لأنه لا يتفق مع الخِطَط التى رسمنّاها، واختلطت بأعمالنا اليومية، لأنها مُتعِبَة وغير مُشوِّقة، وبوجود أو عدم وجود أشخاص مُعيّنين معنا.

(٢) حديثه عن الموت :

١- وحدته الموحشة : هذه الروح العظيمة النبيلة كانت ترفع رأسها عالية ـ لدرجة لا يُدّنى منها ـ وسط غيرها من سائر البشر. لم يستطع أى إنسان أن يسبر غورها. كان موسى فريداً إذ خدم، وتألم، وقابل الله، ووضع التشريع للشعب. لكن وحدته لم تكن واضحة بقدر ما كانت يوم مات فى وحشة جبل نبو، ولم يكن بجانبه حتى يشوع وحيداً صعد الى الجبل وحيداً تطلع الي الأرض الجيدة وحيداً رقد رقدة الموت.

لكن تلك الوحدة ترمز الى الوحدة التى يجب أن يختارها كل واحد منا إلا اذا اختطُفّنا لملاقاة الرب في الهواء. فى تلك الساعة الرهيبة تصمُت الأصوات البشرية، وينتقل الأحباء، ويوضع حد للمناظر العادية المألوفة. تنتقل الروح وحيدة لتتعلم السر العظيم. وسعيد هو المرء الذى يستطيع أن يقول قبل تلك اللحظة: «اننى وحيد، لكننى لستُ وحيداً، فإن مُخلصِى معى. وذاك الذى سلك هذا الطريق وحيداً هو بجانبى الآن».

٢- طريقته : إننا نموت ـ كما مات موسى ـ «حسب قول الرب». تقول تقاليد اليهود أن الملائكة جاءته، الواحد بعد الآخر، لتأخذ روحه، لكن بدون جدوى. جاءه أولا الملاك الذى كان معلمه الخاص، لكن شجاعته خانته عندما حاول أن يهدم الحياة التى بذل معها مجهوداً كبيراً. وبعدئذ دُعِى ملاك الموت للقيام بالمهمة، فاقترب اليه بحرص، لكنه اذ رأى ضياء وجهه العجيب الذى يلمع كالشمس، وسمعه يُرَّدد معجزات حياته، رجع هو أيضاً الى الوراء فى خجل.

وعندما تنحى هذان الملاكان العظيمان عن المهمة التى تفوق أعظم قدرة فيهما التفت موسى الى القدير (هكذا يروى التقليد) وقال «أيها الرب اله الكون، يا من أعلنت ذاتك لى فى العُلّيقة المشتعلة، أذكر أنك حملّتنى الى سمائك حيث أقمت أربعين يوماً وأربعين ليلة. إرحمنى ولا تسلُّمنى لسلطان ملاك الموت».

هذه بطبيعة الحال صورة تُصوِّر لنا محبة وولاء الأجيال التالية اللذين دفعاها الى المغالاة فى تلك الكلمات العجيبة التى تُخبّرنا أن موسى مات «حسب قول الرب». والبعض يقولون أنه مات «حسب قبلة الرب» كأنه بدا لهم أن القدير قد قبل روح خادمه الأمين اذ استردها الى نفسه فى عناق طويل حلو رقيق.

أليست هذه هى طريقة موت كل القديسين؟ أم موتهم عزيز فى عينى الرب؟ فانه بعد تعب نهار الحياة الذى تبدأه النفس فى الصباح تتلقى الدعوة للنضال، وبعد أن يشتد عليها ضغط المسئوليات والاهتمامات ظُهراً، وتشرق عليها أشعة الشمس فى غروبها، مخترقة السحب القاتمة مساء، بعد ذلك تستريح النفس المجهدة على أريكة مريحة جدا أعدتها يد الله، وينحنى عليها ليُقبّلها قُبلَة النوم، كما تفعل الأم لطفلها المُجهد إذ تُقبّله قبل أن ينام. ليست هذه القُبلة بداية ليل طويل تضطجع فيه النفس وتفقد فيه الاحساس والشعور، بل هى بداية يقظة فى النور العلوى للصباح الأبدى.

٣- **قبره** : يروى الكُتّاب أن الرب «دفنه فى الجواء[١] فى أرض موآب»، بالرغم من اعتراض ابليس على ميخائيل رئيس الملائكة، الذى أرسل لكى يضمن سلامة ذلك الجسد المبارك والهيكل النبيل (يه ٩). ماذا كان يريد رئيس الشياطين أن يفعل بذلك الجسد؟ هل أراد أن يُنافِس هيكل الله الحى، ويسلب له كرامة يسرع الشعب فى تقديمها إليه؟ لا نعلم شيئاً على وجه التحقيق. وعلى أية حال، فقد أحبط مسعاه بكيفية مشينة. لقد عنى الله بجسد ابنه موسى بعد موته. لم يستَطِع حتى ملك الأهوال أن يجعله كريهاً أمام محبة الآب. كان ذلك الهيكل ثميناً فى عينيه، حتى ولو هدَّه الموت وخرَّبه.

---

(١) «الوادى» حسب ترجمة اليسوعيين والترجمة الانكليزية.

لم يسمح حتى لجوقة ملائكة أن تقوم بعملية الدفن. فالكتاب يقرر أن الرب «دفنه»، كأنه لم يشأ أن يعهد بهذه المهمة المقدسة لأية يد أدني من يده. أليس من محبة الله أن تُمارِس الطقوس الأخيرة للأجساد التى اشتراها المسيح على أيدى الأحبَّاء الذين امتلأت قلوبهم من محبة الله؟

وكما أننا نثق بأن الله يُدبّر حاجيات الجسد في الحياة، فلنثق بأنه يهتم بدفنه عند الموت. إنه يُحدد المكان الذى يختلط فيه تراب كل واحد من أولاده بأمه الأرض. عندما يُفتَح قبر تتطلع اليه عيناه. وان كانت لا تطأ أرضه قدم، ولا تعنى به يد، فإنه لن ينساه. وعندما يبوق رئيس الملائكة ببوقه فوق الأرض والبحر، فإنه لن يتغافل عن أحد.

٤- قصده : ورد فى الكتاب أن بنى إسرائيل بكوا موسى «ثلاثين يوماً». وإن ربطنا هذه الكلمة بحقيقة القبر المجهول، استطعنا أن نُدرِك قصد الله فى اخفاء القبر. إننا كثيراً ما نُبخِس قيمة الأحياء، واذا ما انتقلوا وابتعدوا عنا قدرناهُم حق قدرهم.

قليلون هم الذين أدوا لقومهم خدمات أجل من خدمات موسى لقومه. لقد ضحى بمركزه الرفيع فى قصر فرعون ليحمل شعبه أثناء ضعفات طفولتهم، كما تحمل المرضعة طفلها. لقد تمتع بفرص منقطعة النظير فى الشركة مع الله. لقد كان يمتلك قوة غير عادية. بناءً على أمر إيمانه أتت الرياح بلحوم، وتفجرت المياه من الصخور، وانشق البحر، ثم عاد إلى أصله، وامتلأ القفر طعاماً تناثر على وجهه. ألم يكن من الجائز جداً ـ لو لم يُخفّ الرب قبره ـ أن يصبح وادى بيت فغور مكاناً يحج اليه الناس من كل العالم ويعبدونه؟ لهذا كان من الخير أن يقطع الطريق عن هذه العبادة الوثنية. لقد كان اخفاء القبر سبباً فى أن يحول الشعب أنظارهم من الأرض إلى السماء ومن العبد إلى الرب.

أليست هذه هي طريقة الله معنا؟ عندما مات لعازر أرسلت أختاه الى المسيح. عندما تذبل اليقطينة يتحوَّل المُتغرِّب في القفر الى ظل الصخرة العظيمة. عندما لا تجد الحمامة مقراً لرجلها تلجأ الى نافذة الفُلْك. عندما تنضب المياه من الخزانات الصخرية نلجأ الى

النهر الخارج من عرش الله. هذا هو السبب الذى من أجله ملأ الحزن بيتك: لأنه قد رحل عنه من كان لك، كما كان موسى لشعبه.

حتى السحابة الرابضة فى السماء.
حاجبة عنا المحبة.
هى نفسها محبة.

٥- **منظره** : من المكان الذى وقف فيه استطاعت عينه أن تُبصر منظراً رائعاً دون أن تكون له موهبة غير عادية للنظر. تحته كانت خيام اسرائيل، الى الشمال كانت مراعى جلعاد وباشان الغنية، تحدها من جهة أرض الصحراء، ومن الجهة الأخرى وادى نهر الأردن الممتد من بحيرة الجليل الى البحر الميت.

واستطاع أن يرى ـ عبَّر الأردن ـ أرض الموعد من جبال حرمون وجبال لبنان الى مرتفعات إفرايم ومنسَّى، يرى المدن المختلفة بما يحيط بها من المراعى وحقول الحنطة وبساتين التين والعنب والرمان. وكانت أمامه مباشرة الى الغرب أريحا بنخيلها وطريقها الشديد الانحدار المتصل بأورشليم. وقريباً منها بيت لحم المتلألئة القريبة من الجبال.

ولايزال المؤمنون عند موتهم يتمتعون بهذا المنظر، منظر الأرض الجيدة عبر الأردن. إنها ليست بعيدة، ليس عليهم إلا أن يعبروا النهر. أنها تُرَى بوضوح فى أيام الرؤية الجميلة عندما تهب ريح شديدة فتُزيل حُجُب الضباب والدخان، اللذين طالما تسلَّطا على جونا الروحى.

على أن المنظر يحفظ في أغلب الأحيان للمنتظرين على حافة الأرض الجيدة، المنتظرين إشارة للدخول. يُقال أنهم على حدود تلك الأرض يسمعون أصواتاً ويرون مناظر رائعة الجمال. قال أحدهم قبيل موته «إننى أرى المدينة السماوية بكل وضوح. أمجاد فوقى، ونسيمها يهب علىَّ، وروائحها الجميلة تُعطرّنى، وأصواتها ترِّن فى أُذنىّ، وروحها ينفذ الى قلبى». فليت الله يمنحنا بركة الموت على رأس الجبل الذى منه يُتَاح لنا هذا المنظر.

(٣) حديثه عن الافتقاد الالهى :

لقد أعطى الناموس على يدى موسى. ويقف موسى على سهول التاريخ كممثل للناموس الأدبي، سواء أعطى من جبل سيناء، أو دون على ألواح القلب اللحمية البشرية.

كان هذا يتفق تماماً مع هذه الفكرة وهى أن قواه البدنية لم يتطرق اليها الوهن. كانت عينه حادة كعين النسر، كانت خطوته مرنة رشيقة سريعة، وكانت قامته مستقيمة. لم يمت بسبب أى مرض، أو بسبب ضعف الشيخوخة. «لم يوجد لأن الله نقله». لقد جعله الزمن أكثر وقاراً، لا أكثر ضعفاً. وهكذا هو يمثل ناموس الله المقدس الذى لا يضعف ولا يبلى، لكنه يبقى بصفة دائمة محتفظاً بحيويته وقوته الكاملة، حتى وان عجز عن أن يدخلنا الى راحة الله.

أننا لا نستطيع الحديث عن هذه الراحة هنا فى هذا العالم. فكنعان ـ بصفة مبدئية ـ لا تمثل لنا الراحة التى تنتظرها بعد الموت، حيث تبطل متاعب الحياة، بل الراحة التى نستطيع التمتع بها الآن في هذا العالم حيث تتحرر النفس من عبودية الذات وعبودية الفساد، وتعيش فى سلام الله الذى يفوق كل عقل. عندئذ تصبح الحياة سلسلة واحدة مباركة من الطاعة لارادة الله، وعندئذ أيضاً نتمتع بالثروة الغنية المكتنزة لنا فى الله، ويجعلنا نشرب من نهر مسراته.

هذه هى أرض الموعد الطيبة التى لا يستطيع أن يراها من بعيد الا من لا يعرفون شيئاً سوى ما يعلمهم موسى اياه، ولا يدخلها الا من يتبعون التابوت بعد أن يعبروا نهر الموت الى أرض القيامة.

✝ ✝ ✝

تم بحمد الله

للمعرب أيضاً

حياة يوسف .... دكتور ف. ب. ماير

حياة إبراهيم .... دكتور ف. ب. ماير

حياة إيليا .... دكتور ف. ب. ماير

حياة أرميا .... دكتور ف. ب. ماير

حياة يشوع .... دكتور ف. ب. ماير

حياة داود .... دكتور ف. ب. ماير

حياة صموئيل .... دكتور ف. ب. ماير

حياة زكريا (نبى الرجاء) .... دكتور ف. ب. ماير

حياة بطرس .... دكتور ف. ب. ماير

حياة بولس .... دكتور ف. ب. ماير

حياة يعقوب (اسرائيل) .... دكتور ف. ب. ماير

حياة يوحنا المعمدان .... دكتور ف. ب. ماير

المسيح فى أشعيا .... دكتور ف. ب. ماير

مزمور الراعي .... دكتور ف. ب. ماير

أسرار الحياة المسيحية .... دكتور ف. ب. ماير

مخلصون ومحفوظون .... دكتور ف. ب. ماير

أضواء على الحياة اليومية .... دكتور ف. ب. ماير

سر الحياة الداخلية .... دكتور ف. ب. ماير

تفسير رسالة فيلبى ـ رسالتى تيموثاوس الأولى والثانية .... دكتور ف. ب. ماير

تفسير أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا .... دكتور متى هنرى

تفسير رسالة رومية ـ رسالة بطرس .... دكتور متى هنرى

تفسير سفر الجامعة ـ أيوب .... دكتور متى هنرى

تفسير سفر نشيد الأنشاد .... دكتور متى هنرى

تفسير سفر هوشع .... دكتور متى هنرى

تفسير سفر صموئيل ـ عاموس ـ عوبديا ـ يونان ـ ميخا ـ
ناحوم ـ حبقوق ـ صفنيًا ـ حجى ـ زكريا ـ ملاخى .... دكتور متى هنرى

تفسير سفر نحميا .... دكتور متى هنرى

تجسد الكلمة .... أثناسيوس الرسولى

رسالة الى الوثنيين .... أثناسيوس الرسولى

رسائل عن الروح القدس ـ رسائل فصحيَّة .... أثناسيوس الرسولى

حياة أنبا أنطونيوس .... أثناسيوس الرسولى

مخدع الصلاة .... أندروا مرى

تاريخ الكنيسة .... يوسابيوس القيصرى

حياة قسطنطين .... يوسابيوس القيصرى

تفسير المزامير .... القديس أوغسطينوس

المسيح فى حياة الطالب

العمل الفردى

أمثال المسيح

خيمة الاجتماع

الكهنوت

الذبائح

حياة المسيح حسب انجيل مرقس

الدسقولية

الاستعداد للتناول من الأسرار المقدسة

تفسير قداس الكنيسة القبطية

حياة الخادم

كيف تدرس الكتاب المقدس

أسرار الكنيسة السبعة (باللغة الانجليزية واللغة العربية)

شهادة علم الآثار للكتاب المقدس

الصلاة الربانية

تأملات هادئة فى سفر أستير

محتويات الكتاب

صفحة



٢/٢٣

مكتبة المحبة : ٣٠ شارع شبرا - القاهرة
E-mail : Mahabba5@hotmail.com

ت. وفاكس : ٢٥٧٥٩٢٤٤ (٢٠٢) - ٢٥٧٧٧٤٤٨ (٢٠٢)
تليفون : ٢٥٧٥٨٢٦٢ (٢٠٢) - ٢٥٧٨٢٩٣٢ (٢٠٢)